
ميخائيل
نعيمة
مرداد


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

نوفل



أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

الطبعة الثانية عشرة
صدرت عام 2014 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

تصميم الغلاف: **معجون**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-017-8
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-438-454-1

حكاية الكتاب

الراهب المسحور

في جبال الآس واللُّبان، على القمّة الشاهقة المعروفة بـ«قمّة المذبح»، ما تزال بقايا هيكل مهجور، متهدّم، يدعى «الفلْك». أمّا تاريخه فقد غاب في لججِ سحيقةِ من القِدَمِ تنتهي، في عرف التقاليد، إلى الطوفان.

كثيرة هي الأساطير التي حاكتها الأيّام حول الفلك. لكنّما الأسطورة الأكثر رواجًا هي التي سمعتها مرارًا من أفواه القاطنين في سفح قمّة المذبح حيث أُتيح لي ذات سنة أن أُمضي صيفًا بكامله. وها أنا أرويها كما سمعتها:

من بعد الطوفان العظيم بسنين عديدة انتهى التجوال بنوح وذرّيته إلى جبال الآس واللُّبان حيث المياه غزيرة وعذبة، والتربة نشيطة وخصبة، والمناخ معتدل وطيّب، فقرّ رأيهم على الإقامة هناك.

وعندما شعر نوح بدنوّ أجله دعا إليه ابنه سامًا. وكان سام رجل أحلام ورؤى كوالده. وخاطب نوح سامًا هكذا: «إنّ ما حصده والدك من السنين حتّى الآن كان من الوفرة على جانب عظيم يا بنيّ. وها هي القبضة الأخيرة من سنابله في انتظار المنجل. أمّا أنت وأخواك وبنوكم وبنو بنيكم فستجدّدون حياة الأرض الثكلى، وسيكون نسلكم كعدد رمل البحر حسبما وعدني الله.

«إلّا أنّ خوفًا يساور ما تبقّى في عينيّ من نور ويكاد يطفئه قبل أوانه. وذلك أنّ الناس على مرّ العصوي سينسُون الطوفان وجميع الشرور والمخازي التي جلبته على الأرض. مثلما سينسُون الفلك والإيمان الذي حملها بسلام مئةً وخمسين يومًا ومكّنها من الغلبة على اللّجّة الصاخبة. كذلك لن يذكر الناس الحياة الجديدة التي انبثقت من ذلك الإيمان فكانوا بعض ثمارها.

«لذلك آمرك يا بنيّ أن تبني مذبحًا على أعلى قمّة من هذه الجبال. وتلك القمّة تدعى من بعد ذلك (قمّة المذبح). ثمّ أن تبني حول المذبح هيكلًا يشبه الفلك في كلّ تفاصيله وإنّما يكون أصغر منها حجمًا بكثير. وأن يُعرف الهيكل باسم (الفلك).

«على ذلك المذبح أريد أن أقدّم إلى الرّبّ ذبيحة شكراني الأخيرة. والنار التي سأوقدها هناك أريد أن تبقى حيّة إلى الأبد.

«أمّا الهيكل فعليك أن تجعل منه ملجأ لجماعة من رجال مختارين لا يزيد عددهم أبدًا على التسعة ولا ينقص عنها. وهؤلاء سيُعرفون باسم (رفاق الفلك). وعندما يتوفّى الله واحدًا منهم يُرسل من قِبَلِه آخر ليحل محله. وعلى الرفاق ألّا يخرجوا من الملجأ بل أن يلازموه كلّ أيّامهم ممارسين من التقشّف حياة كالتي مارسناها في الفلك، ومحافظين على نار الإيمان من الانطفاء، ومنعكفين على الصلاة للعليّ من أجل هدايتهم وهداية إخوانهم الناس. وعليهم إلّا يهتمّوا بحاجاتهم الجسديّة، فهذه ستبذل لهم من عطف المؤمنين وإحسانهم».

وكان سام يصغي إلى كلّ حرف من كلمات أبيه ويقتبلها بلهفة الجائع. إلا أنّه قطع عليه كلامه ليعرف منه القصد من تحديد عدد رفاق الفلك بالتسعة، لا أكثر ولا أقلّ. فأجابه الشيخ المثقل بالسنين:

«ذلك يا بنيّ هو عدد الذين ركبوا الفلك».

لكنّ سامًا كان يعرف أنّ الذين ركبوا الفلك ما زادوا يومًا عن الثمانية، وهؤلاء الثمانية هم أبوه وأمّه وأخواه وزوجاهما وزوجه. لذلك وقع في حيرة من كلام أبيه. وأدرك نوح حيرة ابنه سام فقال له مفسّرًا ما أُبهم عليه:

«ها أنا يا ابني أبوح لك بسرّ عظيم. إنّ الراكب التاسع دخل الفلك خلسة عنكم وعنّي. فما درى بوجوده أحد غيري، ولا كان يبصره ويسمعه أحد غيري. فكان رفيقي الدائم في الليل والنهار، وبيده كانت إدارة دفّة الفلك. لا تسألني عنه زيادة بل احذر ألّا تفسح له مكانًا في الملجأ الذي أوصيك به. فقد قال لي إنّه سيعود لينقذ العالم من طوفان النار. هذه هي وصيّتي إليك يا بنيّ، فاعمل بها».

وعمل سام بكلّ ما أمره أبوه.

وعندما انضمّ نوح إلى آبائه دفنه بنوه تحت المذبح في «الفلك» التي بقيت لأجيال كثيرة من بعده محافظة بالفعل وبالروح على وصيّة قاهر الطوفان.

مرّت قرون عدّة والفلك آهلة برفاقها التسعة الذين، وإن تغيّرت منهم الوجوه والأسماء، ما برحوا أمينين للتقاليد والطقوس المرسومة لهم منذ البدء. إلّا أنّهم على كرِّ السنين أخذوا يتقبّلون من المؤمنين عطايا فوق حاجاتهم الجسديّة بكثير. فكان من ذلك أنّ مقتنيات الفلك من عقارات وذهب وفضّة ومجوهرات أخذت تزداد سنة بعد سنة.

ودامت الحال كذلك لبضعة أجيال خلت إذ حدث أن توفّي أحد التسعة. وحدث بعد وفاته أن جاءَ الفلكَ رجل غريب وطلب أن يُقبل كواحد من الجماعة. ووفقًا لتقاليد الفلك المعمول بها منذ تأسيسها

كان لزامًا على الرئيس، وكان يُلقّبُ عندهم بالمتقدّم، أن يقبل ذلك الغريب لأنّه أوّل طالب جاءه من بعد وفاة رفيق من الرفاق. لكنّ المتقدّم في ذلك الوقت كان رجلًا مستبدّ الرأي، علمانيّ الميول، قاسي القلب. فما راقه منظر الغريب الذي كان عريانًا، وهزيلًا من شدّة الجوع، ومُثخَنًا بالجروح. لذلك قال له إنّه ليس أهلًا للانضمام إلى الجماعة.

أمّا الغريب فألحّ في طلبه، وإلحاحه ما كان ليزيد المتقدّم إلا كُرهًا له وغضبًا عليه حتّى إنّه أمره بالانصراف من أرض الدير في الحال.

غير أنّ الغريب كان ملحاحًا وقويّ الحجّة، فما انفكّ عن أربه. وفي النهاية تمكّن من أن يحمل المتقدّم على قبوله خادمًا في الفلك.

من بعد ذلك بقي المتقدّم زمانًا طويلًا يترقّب من العناية أن تبعث إليه بمن يحلّ محلّ الرفيق المُتوفّى. لكنّ أحدًا لم يأتِ إلى الفلك بقصد الانضمام إلى جماعتها. وهكذا لأوّل مرّة في تاريخها كانت الفلك تؤوي ثمانية رفاق وخادمًا.

مرّت على ذلك الحادث سنوات سبع تعاظمت في خلالها ثروة الفلك إلى حدّ أنّ إحصاءها لم يبقَ في الإمكان. فقد أصبحت تملك كلّ القرى من حواليها على مسافات شاسعة. فانتفخ صدر المتقدّم غبطةً بذلك ولانَ للخادم الغريب بل كاد يحبّه لاعتقاده أنّه كان طالع سعد عليه وعلى الفلك.

لكنّ السنة السابعة ما كادت تنتهي وتنبلج الثامنة حتّى بدأت الأمور تنقلب بسرعة خاطفة. فالجماعة التي كانت إلى ذلك الوقت وادعة آمنة أخذت تتخمّر وتفور. وما خفي عن المتقدم أنّ سبب ذلك كلّه ما كان إلّا الخادم. فأقرّ طرده في الحال. لكنّه، ويا للأسف، أدرك أنّ الوقت قد فات. فالرفاق بقيادة الخادم ما كانوا ليصغوا إليه أو ليتقيّدوا بقاعدة أو قانون أو تقليد. بل إنّهم في سنتين فرّقوا كلّ مقتنيات الفلك من منقول وغير منقول واهبين الأملاك الشاسعة للشركاء الذين كانوا يعملون فيها. وفي فجر السّنة الثالثة هجروا الفلك. والأفظع من ذلك كلّه أنّ الخادم الغريب لعن المتقدّم فسَحَره بلعنته وربَطَه إلى أرض الدير وجعله أبكم حتّى هذا اليوم.

تلك هي أسطورة الفلك كما سمعتها في جبال الآس واللُّبان، في ظلّ قمّة المذبح.

وكثيرٌ هم شاهدو العِيان الذين أكّدوا لي أنّهم في مختلف الظروف، أحيانًا في الليل وأحيانًا في النهار، أبصروا ذلك الراهب متجوّلًا في ساحات الدير المهجور. لكنّ أحدًا منهم ما تمكّن يومًا من أن يبتزّ كلمة واحدة من شفتيه. وفوق ذلك، فالراهب كان يختفي بسرعة كلّما شعر بوجود إنسان بقربه. وليس مَن يعرف كيف كان يختفي وأين.

وها أنا أعترف أنّ هذه الرواية سلبتني راحتي. فما كنت أتخيّل ذلك الراهب هائمًا على وجهه سنوات كثيرة في باحات هيكل قديم مهجور، وعلى رأس قمّة شاهقة قفراء كقمّة المذبح، إلّا

أحسست نيرانًا في دمي، ومهاميز في لحمي وعظمي، وسياطًا في أفكاري، وأشباحًا في عينيّ. وكلّها يدفع بي إلى القمّة.

وأخيرًا قلت في نفسي: سأصعد الجبل.

مُنحدر الصوّان

ترتفع قمّة المذبح آلاف القامات عن سطح البحر المنبسط عند قدميها إلى الغرب. وجبهتها الواسعة المرصوفة بالصخور المخدّدة، المسنّنة، تبدو للناظر من بعيد منيعةً وجبّارة ورهيبة. لكنّ الذين خبروها عن كثبٍ كانوا يشيرون إلى شِعبين فيها، أحدهما إلى الجنوب والآخر إلى الشمال، وكلاهما ضيّقٌ يتلوّى بين وهدات خيّم الموت في أعماقها، ويؤكدن لي أن ليس في سلوكهما إلى القمّة خطر يُذكر. أمّا أنا فصمّمت ألّا أسلك ذاك ولا هذا. فقد كنت أبصر ما بين الاثنين، منحدرًا ضيّقًا ومستقيمًا كأنّه مخاضة نهر جفّت مياهه. وهذا المنحدر يبتدىء عند رأس القمّة وينتهي قريبًا من قاعدتها. فراقني شكله وموقعه وبدا لي كأنّه الطريق الأمثل إلى القمّة. وكنت أشعر فوق ذلك بجواذب لا أفهمها تجذبني إليه. لذلك عوّلت أن أجعله طريقي إلى القمّة.

ما كدت أبوح بعزمي هذا لأحد الجبليّين حتّى حملق بي بعينين مُلتهبتين، وصاح ضاربًا كفًّا بكفّ:

«منحدر الصوّان؟! ويحك! إنّه لمن الحمق الذي ما بعده حمقٌ أن تهدر حياتك هدرًا. كثير هم الذين حاولوا ذلك من قبلك. لكنّهم ما عاد منهم ولا واحد يخبر بما جرى له. منحدر الصوّان؟! إيّاك. إيّاك!».

قال ذلك وأخذ يتوسّل إليّ أن يكون دليلي إلى القمّة لكنّني رفضت معونته بلطف. وما أعرف لماذا أثّر بي ذعره تأثيرًا معكوسًا إذ زادني صمودًا في عزمي بدلًا من أن يردّني عنه.

وذات صباح، وقد شرع الشيبُ يتفشّى في الظلام، نفضتُ عن أهدابي أحلام الليل، وأخذتُ عصاي وسبعة أرغفة من الخبز وانطلقت متّجهًا نحو منحدر الصوّان. وكأن أنفاس الليل المحتضر، وأنباض النهار المولود، والرّغبة النهّاشة في أن أواجه سرّ الراهب المسحور، والرغبة الأشدّ منها في أن أخلعَ عن نفسي نير نفسي ولو برهة، مهما تكن قصيرة، كانت لرجليّ أجنحة قويّة ولدمي نشوة سحريّة.

بدأت رحلتي وفي قلبي نشيد الأمل وفي نفسي عزيمة الإيمان. إلّا أنّني ما كدت أبلغ أسفل المنحدر حتّى غصصت بنشيدي. فمن بعد أن قطعت مسافةً محمولًا على بساط من الجذل وجدتني مسمّرًا بالأرض أمَام أحجيّة ظننت حلّها مستحيلًا. فالمنحدر الذي كان يبدو لي عن بعيد كأنّه طريق معبّد ومستقيم، تبيّن لي الآن عقبة كأداء لا تُقهر.

وقفت أمَام تلك العقبة حائرًا وأخذت أقلّب طرفي في كلّ جوانبها فما كان يدرك أعاليها. بل كان، أنّى أتّجه، لا يقع على أقلّ أثر للحياة، ولا يُبصر غير حصى من الصوّان متفاوتة الحجم والشكل، بعضها كالنصال المسنونة وبعضها كالإبر المحدّدة، فكأنّ فيلقًا من الجنّ قد فرش بها تلك الناحية من الجبل ثمّ لفّها بأكفان قائمة من الصمت الذي يثير الرّعبة والرّهبة. أمّا القمّة فما كنت لأراها من أسفل المنحدر.

فتّشت عن عزيمتي فإذا بها ما تزال معي. وذكرت الرجل الذي نهاني عن سلوك المنحدر فإذا بعينيه الملتهبتين لا تستطيعان أن تثنياني عن قصدي. وهكذا بدأت أصعد. لكنّني أدركت بعد قليل أنّ رجليّ وحدهما لن تقطعا بي شوطًا بعيدًا. فالصوّان المتفتّت كان ينهار من تحتهما وبانهياره يحدث أصواتًا جهنّمية كأنّها خارجة من مليون حنجرة في حالة الحشرجة. فكان لا بدّ لي من أن أستعين بيديّ وركبتيّ كذلك إذا ما شئت أن أتقدّم تقدّمًا محسوسًا. وكم تمنّيت آنئذٍ لو كانت لي خفّة العنزة!

كنت أزحف صعودًا في خطوط متكسّرة من غير أن أسمح لنفسي حتّى بالقليل من الراحة، إذ بدأت أخشى أن يدركني الليل في ذلك البلقع الرهيب قبل أن أدرك القمّة. أمّا أن أعود القهقرى فما خالج ضميري قطّ.

وكان النهار على وشك التلاشي عندما شعرت بغتة بقرصة من الجوع. فعجبت لي كيف أنّني قطعت ما قطعته من النهار ومن الجبل من غير أن يخطر الأكل أو الشرب لي ببال. وما كان أثمن الأرغفة السبعة عندي في تلك الدقيقة – تلك الأرغفة التي كنت قد تمنطقت بها ملفوفة في منديل!

جلستُ مكاني وفككتُ المنديل عن وسطي وأخذتُ رغيفًا من السبعة. وإذ هممتُ بتناول الكسرة الأولى منه طرق أذني صوت جرس وصوتٌ آخر فيه شيء من النحيب كأنّه صوت الناي. ولشدّ ما أدهشني ذلك وروّعني في بلقع كان صمته الرهيب يطأ أذنيّ بسنابك من صوّان.

وما هي إلا لحظة حتّى بدا ليعينيّ على مرتفع قريب كرّازٌ أسود كبير من المعزى. وما كدت أستعيد نَفسي المخطوف دهشةً حتّى وجدتني محوطًا بالمعزى من كلّ جانب. وسمعتُ الصوّان ينهار من تحت أظلافها كما كان ينهار من تحت قدميّ، ولكن من غير أن يُحدث أصواتًا مزعجة كالتي كان يحدثها زحفي. وفي أقلّ من لحظة هجمت المعزى بقيادة كرّازها عليّ كأنها جاءت تلبية لدعوة منّي فكنت وإيّاها على ميعاد. وكادت تختطف الخبز من يدي لولا صوت راعيها الذي ما

عرفتُ كيف ومن أين جاء، فانتصب بجانبي وليس عليه من كساء غير مئزر من الجلد يغطّي حقويه، ولا سلاح في يده غير الناي. تأمّلته فإذا به شابٌ مديد القامة يطفح وجهه عافية وبشرًا وقوّة. ومن قبل أن تفارقني الدهشة لأتمكّن من فتح فمي بكلمة، سمعته يخاطبني بصوت ناعم وابتسامة خلّابة:

«لا تعجب لفعل كرّازي، فهو تيس مدلّل. وأنا أطعمه الخبز كلّما تيسّر الخبز لي. لكنّنا قد استقبلنا وودّعنا أهلّة عديدة في الزمان الأخير من غير أن يمرّ بنا مخلوق واحد من أَكَلة الخبز».

قال هذا ثمّ التفتَ إلى تيسه الكبير وخاطبه هكذا:

«أرأيت يا كرّازي الأمين كيف يجود الحظّ على المعتصمين به؟ إيّاك أن تيأس من جود الحظّ».

وعندها مدّ يده إلى الخبز فأخذ منه رغيفًا. وإذ ظننته جائعًا قلتُ له بلطفٍ متناهٍ وإخلاصٍ أكيد:

«سنقتسم هذا الزاد الزهيد فيما بيننا. فالخبز الذي معي يكفيني ويكفيك. وسنجعل للكرّاز حصة منه كذلك».

وما كدت أنهي كلامي حتّى أخذ الراعي الرغيف الأوّل، ومن بعد أن قضم منه قضمة طرح به إلى المعزى. وهكذا فعل بالثاني والثالث حتّى السابع والأخير. فصُعقتُ من شدّة انذهالي وأخذ الغضب يتفجّر في صدري. إلّا أنّني وقد أدركتُ أن لا مقدرة لي على المقاومة، لجمت غضبي ونظرت إلى الراعي نظرًا كلّه دهشة. ثمّ كلّمته بلهجة نصفها توسّل حار ونصفها لومٌ خفيف:

«الآنَ، وقد أطعمتَ معزك زاد رجلٍ أتلفه الجوع والتعب، أفلا تكرّمت عليه بقليل من لَبَنِها؟» فأجابني من غير أن يلتفت إليّ:

«إنّ في لبن معزي لسمًّا زعافًا للمجانين. وأنا لست أرضى لماعزة واحدة من معزي أن ترتكب جريمة القتل، حتّى وإن لم يكن القتيل غير مجنون مثلك».

«وفيم تراني مجنونًا؟».

«في أنّك تزوّدت سبعة أرغفة لرحلة تستغرق سبع حيوات».

«أكان عليّ إذن أن أتزوّد سبعة آلاف؟».

«كلّا. ولا رغيفًا واحدًا».

«أتنصح لي أن أُقدم على رحلة طويلة وخطرة كهذه الرحلة من غير زاد على الإطلاق؟»

«إنّ الطريق الذي لا يزوّد سالكه ليس بالطريق الذي يَحْسُنُ سلوكه»

أتريدني أن أقضم الصوّان إذا عضّني الجوع، وأن أرتوي بعرقي إذا اشتدّ بي العطش؟»

«إنّ في لحمك وحده ما يكفيك طعامًا، وفي دمك وحده ما يكفيك شرابًا. وعلاوة على ذلك فالطريق أمامك.»

«إنّك لماجنٌ أيّها الراعي، أو إنّك تسخر بي فوق ما أستحقّ. أمّا أنا فلن أقابل سخريتك بمثلها. ففي شرعي أنّ كلّ من تناول من خبزي، وإن تركني في خطر الموت من الجوع، أصبح أخًا لي. إنّ النهار يتدحرج سراعًا إلى أسفل الجبل، وعليّ أن أتابع سيري إلى القمّة. أفلا تلطّفت وأخبرتني إذا كنت ما أزال بعيدًا عنها؟»

«إنّك لقريب جدًّا من الإندثار.»

قال ذلك ورفع الناي إلى شفتيه ونفخ فيه ثمّ أدار لي ظهره ومشى كأنّه يمشي على طنفسة من حرير. وتبعه الكرّاز ثمّ القطيع كلّه. وبقيتُ وحدي مشلول الفكر والعصب أرقب تلك الأخيلة الغريبة المتباعدة عنّي وأسمع كركرة الصوّان ونحيب الناي المتقطّع الذي كان يطرق أذنيّ كأنّه عويل متصاعد من شقوق الأرض، من عوالم سفليّة.

بعد قليل، وقد نسيتُ جوعي، عدت إلى نفسي أرمِّم ما انهار من عزيمتي وإقدامي. وكان لا بدّ لي، إذا ما دهمني الليل في ذلك القفر من الصوّان المترجرج، من أن أفتّش عن مكان أمين أقضي فيه ليلتي من غير أن أكون في خطر التدهور إلى أسفل. فعدتُ إلى الزحف. وما صدّقتُ عينيّ عندما حانت منّي التفاتة إلى تحت فوجدتني قد توقّلتُ القسم الأكبر من الجبل، إذ أنّني ما عدت أبصر أسفل المنحدر. أمّا القمّة فبدت كأنّها على بضعة أذرعٍ منّي.

وكان من حسن طالعي أنّني عندما هبط الليل، اهتديت إلى كومة من الصخور في وسطها منفرج يشبه الكهف. وكانت هذه الصخور معلّقة على شفير هاوية سحيقة القعر تتلاطم في جوفها أمواج من الدياجير الهائلة. وكان مدخل الكهف من جهة الهاوية. فما ثنتني المخاطر المحدقة به عن أن أتّخذه ملجأي تلك الليلة.

هممت بخلع نعليّ فإذا بهما بقايا هزيلة وممزّقة من النعلين اللذين خرجتُ بهما في الصباح. وإذا بهذه البقايا قد اصطبغت بدمي والتصقت بلحمي إلى حدِّ أنّني ما تمكّنتُ من سلخها عن قدميّ إلا بسلخ نتف من لحمي. أمّا يديّ فكانتا مخدّدتين بأخاديد حمراء كثيرة، وأطراف أظافري كأنّها اللحاء المتدلّي من قشرة شجرة يابسة. وأمّا ثيابي فكانت قد أهدت القسم الأكبر منها إلى الصوّان. وكان رأسي قد تخدّر بالنعاس فلم يبق فيه من فكرة إلّا النوم.

لست أذكر مدى غفوتي. أدقيقة دامت أم ساعة أم دهرًا. وكلّ ما أذكره أنّني أفقتُ شاعرًا بقوّة تجذبني من كمّي. استويت جالسًا وبي من الوسن والذعر ما لا يوصف، لا سيّما عندما أبصرت فتاة واقفة أمامي وفي يديها مصباح ضئيل النور، ولا ثياب عليها البتّة. أمّا وجهها فكان مشرقًا بجمال فائق الحدّ. وبالقرب منها قد انحنت عجوز حوَت من الشناعة على قدر ما حوَت الفتاة من الحسن. وهذه العجوز هي التي كانت تشدّني من كمّي. فما وقع نظري على ذلك المشهد حتّى اعترتني رجفة باردة من رأسي إلى أخمصيّ.

«أرأيتِ يا بنيّتي كيف يجود الحظّ على المعتصمين به؟ إيّاكِ أن تيأسي من جود الحظّ».

بهذه الكلمات كانت العجوز تخاطب الفتاة وهي تعمل على نزع سترتي عن كتفيّ. فانعقد لساني من الذعر والانذهال. وأحببت أن أقول لها كلمة فما تمكّنت، وأن أعاندها فما وجدت قوّة للمعاندة. وعبثًا استنجدتُ إرادتي التي انهزمت منّي بسرعة البرق وتركتني كالمشلول بين يدي تلك العجوز. وكنتُ، كلّما تأمّلتُها، حسبتني لو نفختُ عليها نفخةً لقذفتُ بها إلى الهاوية، لكنّني أحسستُ أنّهُ لم يبقَ في إمكاني حتّى أن أنفخ.

ما انتهت العجوز من نزع سترتي حتّى أخذت تنزع كلّ ما عليّ، ثوبًا ثوبًا، إلى أن تركتني ولا شيء يسترني إلّا جلدي. وكانت كلّما نزعت عنّي قطعة من اللّباس ناولَتْها للفتاة فلبستْها. أمّا أنا فكنت أشهد كلّ ذلك من غير أن أفهم منه شيئًا. وكنت كلّما وقع بصري على خيالي المنعكس مع خيالَي العجوز والفتاة على حائط الكهف أحسستُ قشعريرة اشمئزاز وذعر تتمشّى في مفاصلي وعروقي. وإذ أهمّ أن أفصحَ عما بي يخونني النطق الذي ما احتجتُ إليه يومًا مثل حاجتي إليه في تلك الحالة المشومة. وبعد محاولات عدّة انحلّ لساني من عقاله فقلت:

«إذا كنتِ أيّتها العجوز قد فقدتِ كلّ الحياء فأنا ما فقدتُه بعد. وإنّي لأخجل من عُريي حتّى أمام عجوز مثلكِ. أمّا خجلي من هذه الفتاة الطاهرة فلا حدّ له».

«أفلا لبستَ طهارتها مثلما لَبِسَتْ خزيك؟».

«وأيُّ حاجة لفتاة بأسمال رجل نهكه العياء فضلّ سبيله في مثل هذا المكان وفي ليل كهذا الليل؟».

«قد يكون ذلك رغبة منها في تخفيف عيائه بتخفيف عبئه. وقد يكون طلبًا للدّفء. فهي، وأولداه، تصطكّ أسنانها من البرد».

«أمّا أنا فعندما يقرع البرد أسناني بعضها ببعض فبماذا عساني أطرده؟ أليس في قلبك من شفقة؟ ألا ترين أنّني لا أملك من هذه الدنيا غير ثيابي؟».

«قلّ ما أملكه / قلّ ما يملكني
زاد ما أملكه / زاد ما يملكني
قلّ ما يملكني / زاد قدري
زاد ما يملكني / قلّ قدري
ربّ يسر كان عسرًا / ربّ عسرٍ كان يُسرا

هيّا بنا يا بنيّتي».

وإذ أخذت العجوز الفتاة بيدها وهمّت بالذهاب تألّبت في رأسي أسئلة كثيرة كنت أودّ طرحها عليها. لكنّ واحدًا منها لا أكثر وثب إلى لساني فقلت:

«ألا تلطّفتِ أيّتها العجوز وقلتِ لي قبل أن تنصرفي من هاهنا إذا كنتُ ما أزال بعيدًا عن القمّة؟» فأجابتني:

«إنّك لعلى شفير الهاوية السوداء».

وخرجت المرأتان من الكهف وبقي ظلّهما فيه إلى أن ابتلعته الظلمة وابتلعتهما. فما دريت من أين قُذِفْتُ بموجة من البرد المظلم. وتلت تلك الموجة موجات حتّى تراءى لي أنّ جدران الكهف نفسها كانتْ تتنفّس صقيعًا. فأخذت أسناني تصطكّ، ومثلُها أفكاري المبعثرة المشوّشة. وعبثًا حاولت أن أفهم شيئًا من كلّ ما مرّ بي في ذلك اليوم حتّى تلك الساعة: المعزى التي ترعى الصوّان. وراعيه المتهكّم. وهذه العجوز والفتاة التي معها. وأنا العريان، المرضوض، المخبول، المقرّح، التلف من الجوع والبرد، في كهف كهذا الكهف، وعلى شفير هاوية كهذه الهايوة – أليس في ذلك من معنى؟ وما هو؟ أقريب أنا من القمّة؟ ألعلّني مدركها؟ ألهذا الليل آخر؟

ما كدت أجمع أفكاري حتّى سمعتُ هرير كلب ولمحت بصيص نور. وذلك قريبًا من الكهف، بل قريبًا جدًّا – بل في الكهف!

«أرأيتِ يا حبيبتي كيف يجود الحظّ على المُعتصمين به؟ إياكِ أن تيأسي من جود الحظّ». وكان الصوتُ صوت رجل بالغ في الشيخوخة، تقوّس ظهره، واصطكّت ركبتاه، وتدلّت لحيته إلى صدره. والتي كان يخاطبها امرأة بلغت من الشيخوخة مثل ما بلغ، فتقوّس ظهرها، واصطكّت ركبتاها، وكان فمها مغارة لا أثر للعظام فيها، ورأسها جمجمة مستديرة عريانة إلا من خصيلات من الشعر الأشعث الذي كان بالصوف أشبه منه بالشعر. وأخذ العجوزان يدوران في الكهف على ضوء فانوسهما غير آبهين بي كأنّني ما كنت إلّا خيالًا. وكان كلاهما يتلمّظ كمن يتذوّق فاكهة نادرة الطعم والشكل.

«حقًّا إنّها لفخمة ولائقة بحبّنا هذه المقصورة النادرة التي أعدّها لنا الحظّ لليلة عرسنا يا حبيبتي. وجميلة ومتينة هذه العصا تتوكّئين عليها بدلًا من التي أضعتها. وإنّي لواثق من أنّك لن تعثري فيما بعد».

قال العجوز ذلك بصوت متقطّع كأنّه يجاهد في الخروج من حنجرته. ثمّ تناول عصاي وناولها رفيقته. وهذه انحنت فوقها بلهفة الأمّ فوق ابنتها وأخذت تتلمّسها بأصابعها الذاوية من رأسها حتّى أسفلها. وكأنّ الشيخ شعر عندئذٍ بوجودي فتابع خطابه إلى رفيقته، ولكن من غير أن يلتفت إليّ:

«هذا الغريب سيبرح مقصورتنا في الحال، وسنحلم أحلام ليلتنا في عزلة عن كلّ مخلوق».

صُعقتُ لدن سمعت كلمات الشيخ إذ شعرت أنّها كانت لي بمثابة أمر بإخلاء الكهف، وأنّ لا قدرة لي على ردّه؛ لا سيّما من بعد أن رأيت الكلب يقترب منّي مكشّرًا عن أنيابه كأنّه ينفّذ أمر صاحبه. هزّتني قشعريرة مرّة من هول ذلك المشهد. وإذا بي أقف وأمشي متّجهًا نحو مدخل الكهف

كأنّني الآلة يحرّكها محرّك ليس منها، ولا لها أقلُّ سلطان عليه. وكنت في أثناء ذلك كلّه أحاول بكلّ قدرتي أن أتكلّم، أن أدافع عن نفسي، أن أبيّن حقّي. وبعد جهد عظيم تمكّنتُ من أن أقول:

«لقد أخذتما عصاي. بورك لكما فيها. أتقسوان كذلك إلى حدّ أن تطرداني من هذا الكهف الذي لا ملجأ لي سواه في هذا الليل؟».

لكنّهما ما تنازلا أن يجيباني بكلمة، بل أخذا يرنّمان هكذا:

«من سار من غير عصًا
وُقي العثار
من عاف دارًا عاش في
كلّ الديار
واهًا لنا أسرى العصيّ
واهًا لنا أسرى البيوت
واهًا لنا. واهًا لنا!».

وكانا، وهما يرنّمان، يمهّدان مضجعهما بأصابعهما الطويلة الهزيلة من غير أن يتعطّفا عليّ ولو بنظرة. فآلمني ذلك حتّى صحت من يأسي:

«ألا نظرتما إلى يديّ؟ ألا نظرتما إلى رجليّ؟ إنّي لسائح منكود تاه في وعر هذا المنحدر. ولقد رسمت طريقي إلى هنا بدمي. وها أنا في هذه الظلمة الدامسة لا أستطيع أن أبصر فترًا واحدًا من هذا الجبل الرهيب الذي تعرفانه، كما يظهر، كلّ المعرفة. أفلا تعرفان الشفقة؟ أفلا تخافان العقاب؟ أعيراني في الأقلّ فانوسكما ما دمتما لا تسمحان لي بأن أقاسمكما هذا الكهف حتّى الصباح».

فأجاباني بأنشودة أخرى؛

«الحبّ لا يُعرّى
والنور لا يُعار
أحبِبْ ترَ ما لا يُرى
أنرْ وسرْ أنّى تشاء.
أين المسيرْ
يوم الزحيرْ
يوم لا للأرضِ أنفاسٌ
ولا لليل أنباضٌ
ولا للصبح نور؟».

كِدتُ أنشقُّ من الغيظ لاستخفاف العجوزين، أو العروسين، بي إلى ذلك الحدّ. إلّا أنّني كظمت غيظي ولجأت إلى التوسّل عالمًا أنّه لن يُجديني نفعًا، إذ كنت أشعرُ بقوّة خفية تدفعني إلى خارج الكهف.

«أيّها العجوز الصالح. أيّتها العجوز الصالحة. إنّني لن أعكّر عليكما صفاء ليلتكما، ولن أكون خنفساء في قارورة طيبكما. فأنا كذلك قد تذوّقت الحبّ. لذلك سأترك لكما عصاي بطيبة خاطري. وسأخلي لكما هذا الكهف الذي أخذتماه مخدعكما ليلة العرس. وإذ قد ضننتما عليّ بمصباحكما فإنّي سائلكما حاجة طفيفة للغاية، وهي أن تتلطّفا وتقوداني إلى خارج الكهف وتوجّهاني نحو القمّة. فقد فقدت وجهتي وتوازني كذلك. وما أعرف إلى أيّ حدّ ارتفعت في الجبل، وكم عليّ أن أرتفعَ بعد».

فما أثّرت بهما توسّلاتي على الإطلاق بل راحا يغنّيان كالسابق:

«كم عَلَونا فانخفضنا
وانخفضنا فعلونا،
واغتنينا فافتقرنا
وافتقرنا فاغتنينا.
مالُهم دينٌ لنا
مالُنا دينٌ علينا
يا لطوبى من إذا.
حوسبَ لا يحسب دَيْنا».

عندئذٍ ضاق صدري وكادت تنشقّ مرارتي إذ أيقنت أن لا نفع لي من الكلام مع العجوزين. إلّا أنّني كنت كالغريق يتعلّق بقشة. فكان رجائي الأخير إليهما أن يشيرا عليّ في أيّ جهة يجب أن أخطو خطوتي الأولى من بعد خروجي من الكهف. إذ قد يكون الموت في تلك الخطوة. ولبثتُ في انتظار جوابهما على أحرّ من الجمر. لكنّه ما عتّم أن جاءَني في شكل أغنية أُخرى من أغانيهما الغريبة فما زادني إلّا يأسًا فوق يأس وارتباكًا فوق ارتباك:

«يا لحضن الهاوية ما أظلَمَهْ!
وشفير الهاويهْ ما أنعمهْ!
الضبُّ والنعامهْ
البحر والغمامهْ
الشمس والذبالهْ
القرد والغزالهْ

الأرز والقتادُ
التبْرُ والرمادُ
القزم والجبّار
والدرّ والفخّار
الطعم في البلعومِ
والشصّ في الخيشومِ
من كوّة الندمْ
لهوّة العدمْ
هنالك الضوضاءُ
وهاهنا السكوتْ
إن شئتَ مُتْ لتحيا،
أو عشْ لكي تموتْ»

وانطفأ المصباح فجأةً ومعه انطفأ آخرُ أملٍ لي بالتفاهم مع ذينك المخلوقين الغريبين. فخرجتُ من الكهف زحفًا على يديّ ورجليّ، وكان الكلب يزحف خلفي بلجاجة كأنّه يخشى أن أتلكّأ عن الزحف لحظة واحدة. وعندما انتصبتُ على قدميّ خارج الكهف وجدتني في ظلمة حالكة إلى حدّ أنّي شعرتُ بثقلها الأسود على أهدابي.

خطوت خطوة. ثم أخرى. وعند الثالثة شعرتُ كأنّ الجبل هرب بغتة من تحت قدميّ، وشعرت أنّني أغرق في دُردُور من الظلام الذي كان يمتصّ أنفاسي من صدري ويجذبني بعنف إلى أسفل، إلى تحت، إلى تحت...

وكان آخرُ رسم مرّ أمَام عينيّ وأنا في ذلك الدردور من دياميس الهوّة السوداء رسم ذينك العروسين من الجنّ. وكانت آخرَ كلمات تمتمتُها والنّفَس يتجمّد في منخريّ كلماتهما:

«إن شئتَ متْ لتحيا
أو عشْ لكي تموتْ».

حارس الكتاب

«ألا انهض أيّها الغريب المحظوظ. لقد أدركت غايتك».

كنتُ، والعطش يضغط حلقي بكلّابات من حديد، والشمس تشويني بأشعّتها المحرقة، أتململ كمن في كابوس. وكما يسمع الحالم وقد أوشك أن يستفيق، سمعتُ ما يشبه الصوت البشريّ. فانفتحت عيناي نصف انفتاحة وإذا بي ملقى على الأرض، وإذا بشبح إنسانيّ أسود قد انحنى فوقي وأخذ يبلّل شفتيّ بالماء ويغسل الدم المتجمّد على جروحي الكثيرة.

كان الرجل بدينًا، خشن الملامح، كثّ اللحية والحاجبين، غائر العينين، حادّ النظر. وكنت، مع ذلك، أحسّ رقةً ونشاطًا يتسربان إليّ من لمس يديه. أمّا عمره فكان من الصعب تحديده ولو بالتقريب. وأخيرًا تمكّنت بمعونته من أن أستوي جالسًا وأن أسأله بصوت ما كدت أسمعه: «أين أنا؟».

«على قمّة المذبح».

«والكهف؟».

«وراءك».

«والهوّة السوداء؟».

«أمامك».

ولشدّ ما دهشتُ حقًا عندما التفتّ وإذا بالكهف من خلفي وبالهوّة السوداء من أمامي، وإذا بي جالس على شفيرها. فسألت الرجل أن ينتقل ويساعدني على الانتقال إلى الكهف. ففعل كما سألته بطيبة خاطر.

«ومن أخرجني من الهوّة؟»

«لا شكّ في أنّ الذي قادك إلى القمّة هو نفسه الذي أخرجك من الهاوية».

«ومن عساه أن يكون؟»

«هو نفسه الذي عقد لساني وربطني إلى هذه القمّة مائة وخمسين عامًا»

«أأنت إذًا هو الراهب المسحور؟»

«أنا هو.»

«لكنّك تتكلّم أمّا هو فأبكم.»

«لقد فككتَ عقدة لساني.»

«أنت لا تخشاني ولا تهرب منّي. أمّا هو فيهرب من النّاس.»

«من كلّ النّاس إلّا منك.»

«ولكنّك ما رأيت وجهي من قبل. فكيف تقول إنّك تهرب من كلّ النّاس إلّا منّي؟».

«لقد مرّ بي مئةٌ وخمسون عامًا وأنا أترقّب مجيئك. مئة وخمسون حولًا أفنيتها، وعيناي الخاطئتان، في الحرّ والقرّ، في اللّيل والنهار، ترصدان صوّان المنحدر لعلّهما تقعان على رجل يتسلّق الجبل إلى هذه القمّة فيدركها كما أدركتها أنت: عريانًا، ولا عصا ولا زاد. كثيرٌ هم الذين حاولوا الصعود بطريق المنحدر. لكنّ واحدًا منهم لم يبلغ القمّة. وكثير هم الذين بلغوها بطريق غير طريق المنحدر، ولكنّ واحدًا منهم لم يصلها عريانًا، ولا زاد ولا عصا معه.

كنت كلّ نهار أمس أرقب حركاتك من هنا. وعندما بلغتَ الكهف تركتك تمضي ليلتك فيه لعلّك تستريح من عيائك. وعند بزوغ الفجر جئت أتفقّدك فوجدتك مخطوف الأنباض والأنفاس. بيد أنّني ما شككت قطّ في أنّك ستعود إلى الحياة. وها أنت الآن حيّ أكثر مني. لقد متَّ لتحيا. أمّا أنا فأحيا لأموت.

«ألا تمجّد اسمه. فقد تمّ كلّ شيء حسبما قال ووعد. هكذا كان وهكذا يجب أن يكون. فلم يبقَ من ريبة عندي في أنّك الرجل المختار».

«مَنْ؟!».

«الرجل المغبوط الذي عليّ أن أضعَ الكتاب الطاهر بين يديه ليعلنه للعالم».

«وأيّ كتاب هذا؟»

«كتابه، كتاب مرداد.»

«مرداد! ومن هو مرداد؟»

«أمنَ الممكن أنّك لم تسمع بعد بمرداد؟ يا للغرابة! فقد كنت موقنًا كلّ اليقين بأنّ اسمه من ذلك اليوم حتّى اليوم قد ملأ الأرض مثلما ملأ وما يزال يملأ الأديم الذي تحت رجليّ، والفضاء من حواليّ، والسماء من فوقي. مقدّس هو هذا التراب أيّها الغريب لأنّ قدميه قد وطئتاه. ومقدّس هذا الهواء لأنّ رئتيه تنفّستاه. ومقدّس هذا الجَلَد لأنّ عينيه كانتا ترصدانه.»

وفي الحال انحنى الراهب إلى الأرض، وبخشوع مؤثّر قبّل التراب ثلاثًا. وانقطع عن الكلام. فقلت بعد سكوت:

«إنّك لتلهبني شوقًا إلى أكثر مما بحت لي به عن هذا الرجل الذي تدعوه مرداد».

«أعرني أذنك فأخبرك كلّ ما ليس محظورًا عليّ البوح به:

«اسمي شَمادَم. وقد كنت المتقدّم في الفلك عندما توفّى الله واحدًا من الرفاق التسعة. وما كادت روحه تفيض حتّى قيل لي إنّ غريبًا في الباب يطلب مقابلتي. فعرفت في الحال أنّ العناية قد ساقته ليحلّ محلّ الرفيق الراحل. وكان عليّ أن أبتهج لأنّ الله ما نسي الفلك بل ما زال يحرسها كما كان دأبه منذ أيّام أبينا سام».

هنا قطعتُ على الراهب كلامه لأسأله عمّا إذا كان ما سمعته من الناس صحيحًا. وهو أنّ بكر أولاد نوح هو الذي بنى «الفلك» حقًّا. فجاءني جوابه سريعًا وحاسمًا:

«أجل. إنّه لكذلك.» وتابع حديثه فقال:

«بلى. كان عليّ أن أبتهج. ولكنّني، لأسباب أبعد من إدراكي، ما شعرت إلّا والامتعاض يتمشّى في صدري. ولا دريت كيف أنّني بدأت أحارب ذلك الغريب حتّى قبل أن وقعت عليه عيني. فصمّمت أن أرفضه عالمًا حقّ العلم أنّني برفضه أنقض التقاليد المقدّسة وأكون كأنّني رفضت الذي أرسله.

«فتحتُ الباب وإذا بالواقف خلفه فتى لا يتجاوز الخامسة والعشرين من سنّه. وما أعرف لماذا انتفض قلبي في داخلي وأصبح كأنّه جعبة من السهام كنت أتمنّى أن أصمي بها فؤاده. وكنت إذا ما نظرتُ إليه، وقد امتصّ الجوع لحمه، ولفحت الشمس والرياح جلده العريان من كلّ كساء، وليس في يده حتّى عصا يدافع بها عن نفسه، بدا لي ضعيفًا إلى أقصى درجات الضعف. لكنّ نورًا في عينيه وعلى وجهه كان يجعله أشدّ وأمنع من كميّ وأعتق من سنيه بكثير. حتّى إنّ أمعائي أخذت تصرخ ضدّه. وكلّ قطرة من دمي، راحت تشتهي سحقه. لا تسألني لماذا. فلعلّ عينه الثاقبة اخترقت الحجب التي كانت نفسي محجّبة بها فتركتها مفضوحة، عريانة، وهالني أن أرى نفسي عريانة أمام إنسان. أو لعلّ طهارته مزّقت الستائر عن قذارتي فأحزنني أن أرى الستائر التي صرفت عمري في حياكتها ممزّقة ومطروحة على الحضيض. أليس أنّ القذارة تعتزّ أبدًا وتتباهى بستائرها؟ أو لعلّ ثأرًا قديمًا بين نجمه ونجمي. من يدري؟ من يدري؟ هو وحده يعلم السبب.

«قلت له بصوت أجشّ ولهجة لا رحمة فيها إنّ قبوله مستحيل. وأمرته أن يغادر المكان في الحال. لكنّه، بدلًا من أن يفعلَ ذلك، عاد ينصح لي بصوتٍ هادئٍ أن أتروّى في الأمر فلا أتسرّع في حكمي. فاعتبرت نصيحته إهانة لي وبصقت في وجهه. فلم ينهزم حتّى من بعد ذلك، بل احتفظ بمكانه بثباتة جأش غريبة. فمسح البصاق عن وجهه على مهله وعاد ينصح لي أن أرجع عن

حكمي. فشعرت، وهو يمسح البصاق عن وجهه، كأنّه يمرّغ به وجهي. وشعرت كذلك أنّني انكسرت. وفي أعماق نفسي أيقنت أنّ الكفّتين في المعركة لم تكونا متوازنتين. وأنّ كفّته كانت الراجحة.

«إلّا أنّ كبريائي، مثل كلّ كبرياء مغلوبة، أبَتْ أن تسلّم لخصمها بالغلبة إلّا من بعد أن تلقَّم التراب وتُداس بالأقدام. أوشكت أن أستسلم للغريب وأمنحه ما طلب. لكنّني كنت أشتهي أن أُذلّه ولو قليلًا، أن أكسر من شوكته، أمّا هو فما كان ليذلّ.

«بعد مناورات دارت كلّها عليّ لا معي التفتَ إليّ الرجل وبغتة سألني قليلًا من الخبز وشيئًا من الكساء. فتجدّدت آمالي بالنصر، إذ وجدتُ في الجوع والبرد حليفين عنيدين ضدّ الرجل. فرفضت طلبه بقساوة فائقة الحدّ قائلًا إنّ الدير يعتاش بالحسنات فلا يستطيع أن يُحسن. وقد كذبت فيما قلت. لأنّ غنى الدير كان فاحشًا فكان حرامًا أن نردّ جائعًا أو معوزًا أو عريانًا. لقد أردت من الرجل أن يتوسّلَ بضعف الضعفاء، أن يستعطي بذلّ الفقراء. لكنّه ما كان ليتوسّل أو ليستعطي. بل كان يطلب كمن له حقّ. بل كان يأمر إذ يطلب.

«طالت المعركة فيما بيننا. ولكنّها ما كانت سجالًا ولا في مرحلة من مراحلها بل كان النصر فيها بجانبه منذ البداية. وأخيرًا أخذتُ أفكّر في أسلوب أنسحب فيه من النزال من غير أن أفضح انكساري. فعرضت على الرجل أن يدخل الفلك لا رفيقًا بل خادمًا لا غير. وقلت في نفسي: إنّ في ذلك لتعزية لي ومذلّة له إن هو قبل بما عرضت. وما أدركتُ حتّى تلك الدقيقة أنّني أنا كنت المستعطي لا هو. فما كان منه إلّا أن رضي بما اقترحت من غير أن يبدي أقلّ تذمّر. فكأنّه إذ ذاك هشّمني تهشيمًا ولفّني بثوب من الخذلان الشائن. وما دار في خلدي قطّ أنّني عندما فتحت أبواب الفلك في وجهه أقفلتها في وجهي. فقد بقيتُ حتّى النهار الأخير متمسّكًا بوهمي أنّني ربُّ الفلك لا هو.

«آه، مرداد، مرداد، ماذا فعلت بشَمَادَم! آه، شمادم، شمادم، ما الذي فعلته بنفسك!».

وتدحرجت على وجنتي الرجل دمعتان كبيرتان، وارتعشت جثّته الضخمة. فرقّ له قلبي وقلت:

«ما دام ذكر هذا الإنسان يتفجّر دموعًا من عينيك فالأفضل ألّا تحدّثني عنه فيما بعد».

«لا يضطربنّ بالك أيّها الرسول المغبوط. فما هذه الدموع العلقميّة إلّا عصارة من كبرياء مَن تذوّق طعم الرّئاسة، فماتت الرئاسة بين يديه أمّا كبرياؤه فما تزال تندب ذاتها والرئاسةَ من حين إلى حين. هي سلطة الحَرْف المميت تحرّق أسنانها ضدّ سلطة الروح المحيي. دع الكبرياء تبكي. إنّها لن تجد دموعًا فيما بعد. دع السلطة تحرّق أسنانها. إنّها لفاقدة أسنانها قريبًا.

«واهًا لعينيّ. ألا ليتهما ما كانتا محجّبتين بضباب الأرضيات عندما أبصرتا طلعته السماويّة لأوّل مرّة! واهًا لأذنيّ. ألا ليتهما ما كانتا مسطومتين بحكمة العالم عندما نفخ فيهما حكمته الإلهيّة.

واهًا للساني ألا ليته ما كان مغلّفًا بحلاوة البشرة المرّة عندما راح يناهض لسانه المغموس في رحيق الروح! لكنّني حصدت الكثير من أحساك غروري وأوهامي، وعليّ بعد أن أحصد أكثر.

«مرّت بنا سنوات سبع ما عرفناه في خلالها إلّا خادمًا وضيعًا وأمينًا، ولطيفًا، وهادئًا، ولبقًا، ومتفانيًا في قضاء أقلّ حاجة لأصغر رفيق. وكان إذا مشى فكأنّه يمشي على الهواء. لكنّه ما كان ينبس بكلمة. فاعتقدنا أنّه نذر السكوت التامّ على نفسه. لقد حاول البعض في البدء أن يمازحه ليخرجه من صمته. لكنّه كان يقابل تلك المحاولات برصانة عُلويّة حتّى أنّه بعد قليل أجبر الكلّ أن يوقّروا صمته فلا يُزعجوه. ولكم كان يؤلمني صمته وتقلقني طمأنينته. على عكس الآخرين من رفاقي الذين كانوا يستأنسون بهما. ولكم حاولت أن أفسد ذاك الصمت وأعكّر تلك الطمأنينة، ولكن بغير جدوى.

«قال لنا إنّ اسمه مرداد. فكنّا نناديه كذلك. أمّا مَن هو ومن أين، وابن مَنْ وما هي أذواقه ومعتقداته، فما باح لنا بشيء من ذلك. وكنّا، مع ذلك، نحسّ وجوده بيننا إلى حدٍّ بعيد.

«لقد كانت السنوات السبع التي تلت دخول مرداد، سنواتِ يسر ووفرة. إذ ازدادت في خلالها ممتلكات الفلك سبع مرّات وأكثر. فلان له قلبي وخاطبتُ جماعة الرفاق في أمر قبوله واحدًا منّا، لا سيّما والعزّة الإلهيّة ما أرسلت لنا غيره ليحلّ محلّ الرفيق المتوفّى.

«وعندها وقع ما لم يكن في الحسبان، بل كان أبعد من تكهّنات كلّ الرفاق، وبالأخصّ تكهّنات هذا المسكين الذي أمامك. وذلك أنّ مرداد حطّم الخاتم الذي كان على شفتيه وبذلك أطلق العاصفة من سجنها. فقد بدأ يبوح بما تستّر خلف صمته من الأهواء والأفكار التي اندفعت بقوّة السيل الهائل جارفة في سبيلها كلّ الرفاق. أجل. كلّهم ما عدا شمادم الذي حاربها حتّى النهاية. فقد حاولتُ أن أقف في وجه السيل، أن أردّه على أعقابه، بما أُعطيته من سلطان الرئاسة. لكنّ الرفاق أبوا من بعدها أن يعترفوا بسلطان غير سلطان مرداد. فقد أصبح هو السيّد. وأصبح شمادم منبوذًا. عندما خانني الصدق والوعيد لجأتُ إلى الحيلة والتمليق. فأغريتُ بعض الرفاق بالمال الكثير، والبعض بهبات واسعة من الأرض. وكدتُ أفوز في كلّ ذلك لو أنّ مرداد لم يعلم به بطريقة خفيّة ويخنقه بغير عناء، ببضع كلمات لا غير.

«غريبة وعويصة هي العقيدة التي كان يبشّر بها مرداد. وكلّها مبيّنة في الكتاب. أمّا أنا فمحظور عليّ بالتكلّم عنها. ولا عجب. فقد كان من السهل على مرداد أن يصوّر لك الثلجَ أشدّ سوادًا من القير، والقير أنصع بياضًا من الثلج. إذ كان في حجّته قوّة لا تُردّ، وفي كلمته حماسة لا تُقهر. وكانت له طلاقة لسان لا تُجارى. فبماذا كان عليّ أن أقاوم سلاحًا ماضيًا كذلك السلاح ولست من الفصاحة وقوّة الحجّة على شيء؟ لم يبقَ من سلاح في يدي غير خاتم الفلك. لكنّ هذا السلاح ما أغناني فتيلًا. إذ أنّ الرفاق، وقد ألهبتهم حماسة مرداد وبلاغته، راحوا يُرغمونني على

توقيع وختم كلّ صكّ كانوا يرتأون كتابته ويرون من الضروري أن يكون مختومًا بخاتم الفلك. وهكذا وهبوا قطعة بعد قطعة من الأملاك الشاسعة التي وقفها المؤمنون في خلال أجيال كثيرة. ومن بعدها أخذ مرداد يرسل الرفاق مثقلين بالهدايا إلى المعوزين في كلّ القرى المجاورة. فما جاء عيد الكرمة الأخير وهو أحد العيدين السنويّين المقدّسين في الفلك، أمّا الآخر فعيد الفلك، حتّى اختتم مرداد أفعاله الجنونيّة فأمر رفاقه بأن يعرّوا الفلك من كلّ ما فيها من تحف ورياش، ويوزّعوه على الناس المجتمعين خارجًا. «كلّ ذلك شهدته بهاتين العينين الخاطئتين، ودوّنته في هذا القلب الذي كاد ينشقّ غيظًا من مرداد وبغضًا له. ولو أنّ البغض يذبح كما يذبح حدّ السيف لذبحت ألف مرداد بما كان يجيش في صدري من البغض. لكنّ محبّته كانت أشدّ من بغضائي. فما توازنت الكفّتان حتّى في هذه المعركة الأخيرة. ولا تراجعت كبريائي إلّا من بعد أن طُرحَتْ إلى الحضيض وداستها أقدام عابري السبيل. فلقد صرعني مرداد من غير أن يصارعني. ولقد صارعته، لكنّني ما صرعتُ غير نفسي. ولكم حاول بمحبّته الصافية وصبره الطويل أن يزيح الغشاوات السود التي كانت على عينيّ! ولكم عدت أفتّش عن غشاوات أشدّ كثافة وسوادًا منها فأغشّي بها عينيّ! فكان كلّما زادني من لطفه، زدته من شراستي.

«لقد كنت ومرداد محاربَين في حومة واحدة. لكنّه كان جيشًا عرمرمًا في ذاته. وكنت وحيدًا ولا معين. ولو أنّ رفاقي نصروني عليه لسحقته في النهاية سحقًا، ولانتزعتُ قلبه من صدره وأكلته أكلًا. لكنّ رفاقي نصروه عليّ. يا لهم من خونة! يا لهم من جبناء! مرداد! مرداد، مرداد! لقد أخذت بثأرك».

وأجهش الراهب في البكاء. ثمّ هدأ هدأة طويلة ومن بعدها انحنى إلى الأرض مرّة ثانية وقبّلها ثلاثًا قائلًا:

«إيه مرداد، يا غالبي، يا سيّدي، يا رجائي، يا عقابي، يا ثوابي. اصفح لشمادم هذه المرارة. إنّ رأس الحيّة ليحتفظ بما فيه من سمّ حتّى من بعد فصله عن الجثّة. ولكنّه لا يستطيع اللسع. وها هو شمادم لا أنياب اليوم في فيه ولا سمّ. اعضده بمحبّتك كيما يرى اليوم الذي يصبح فيه فمه مترعًا بالشهد كفمك. فأنت قد وعدت ذلك. لقد أطلقته اليوم من سجنه الأوّل. فلا تدعه يمكث طويلًا في سجنه الثاني».

وكأنّ المتقدّم قرأ السؤال في عينيّ عما عساه يعني بسجنه الأوّل والثاني، فتنهّد وراح يفسّر لي ذلك بصوت فيه من الرقّة والحنوّ ما كاد يحملني على البتّ بأنّه صوت رجلٍ آخر:

«في ذلك اليوم دعانا كلّنا إلى هذا الكهف حيث كانت عادته أن يعلّم السبعة. وكانت الشمس على وشك المغيب، وريح من الغرب قد ساقت ضبابًا كثيفًا فجلببت به كلّ التلال والأودية من هنا إلى البحر بجلباب سحرّي. لكنّه لم يبلغ من هذا الجبل أعلى من خصره. فبان وسط الجبل كما لو كان

شاطئًا من شواطىء البحر. ومن فوق الضباب، على الأفق الغربي تلبّدت غيوم دكناء حجبت وجه الشمس. فتقدّم المعلّم من السبعة وعانقهم واحدًا واحدًا. وكان التأثّر العميق باديًا على وجهه. ومن بعد أن عانق السابع التفت إلى الجميع وخاطبهم هكذا:

«قد طالما سكنتم الأعالي. فعليكم اليوم أن تهبطوا إلى الأعماق. لأنّكم ما لم تربطوا القعر بالقمّة، فتصعدوا إذ تهبطون، وتهبطوا إذ تصعدون، بُليتم بالدُّوار في الأعالي، وفي الأعماق بالعمى».

وعندها التفت إليّ بعينين طافحتين رقةً وحنوًّا. ومن بعد أن حدّق إليّ طويلًا قال:

«أمّا أنتَ يا شمادم فساعتكَ لم تأزف بعد. فستبقى على هذه القمّة في انتظار أوبتي. وستحرس كتابي المحفوظ في صندوقة من حديد تحت المذبح. فاحذر من أن تمسّه يدٌ، حتّى ولا يدك. وأنا سأبعث برسولي في حينه ليأخذه منك ويعلنه للعالم. ستعرف الرسول بالدلائل الآتية: فهو سيصعد هذه القمّة بطريق منحدر الصوّان، وسيبدأ رحلته مزوّدًا سبعة أرغفة وعصا، ومكتمل اللباس فتجده أنت أمَام هذا الكهف عريانًا ولا زاد معه ولا عصا، ولا نفَسَ في صدره. وإلى أن يجيء رسولي تبقى أنت ملجوم اللسان مختوم الشفتين. فلا تكلّم إنسانًا ولا تقارب إنسانًا. لكنّك حالما يقع بصرك عليه تنعتق من سجن الصمت. ومن بعد أن تسلّمه كتابي تصير حجرًا. وذاك الحجر يكون بمثابة حارس لمدخل هذا الكهف. وتبقى كذلك حتّى عودتي. وأنا وحدي أنقذك من سجنك الحجريّ. فإذا ما استطلتَ الانتظار جعلته طول. وإذا ما استقصرتَه جعلته أقصر. كن مؤمنًا. وكن صبورًا».

«وعندها عانقني أنا كذلك. ثمّ التفتَ إلى السبعة ولوّح بيده قائلًا: «اتبعوني أيّها الرفاق». ومشى أمامهم في المنحدر ورجلاه الطاهرتان تنتقّلان بخفّة عجيبة فما تكادان تمسّان الصوّان، ورأسه النبيل قد استوى عاليًا فوق كتفيه، وألحاظه الهادئة النفّاذة تهتك ستائر الآفاق البعيدة. وعندما بلغوا ذيل جلباب الضباب في متوسّط الجبل اخترقت الشمسُ الجانبَ الأسفل من الغيمة الدكناء فوق البحر فكوّنت فسطاطًا متألّقًا بأنوار أبهج من أن توصف ومن أن تحدّق عينٌ بشرية إلى بهائها. فتراءى لي أنّ المعلّم والسبعة وراءه قد انفصلوا عن الجبل وأنهم كانوا يمشون على الضباب، ثمّ إنّهم دخلوا فسطاط النور، بل دخلوا الشمس. فانقبض قلبي إذ وجدتني متروكًا وحدي، أجل وحدي. وحدي».

وكمن يستريح من بعد تعب مضنك، انقطع شمادم فجأة عن الكلام، وأطبق جفنيه، ولوى عنقه، وراح يصعّد أنفاسًا متقطّعة. وبقي برهة كذلك. وإذ أخذت أفتّش عن كلمات أعزّيه بها ولو بعض التعزية، رفع رأسه وقال:

«أنت محبوب من الحظّ. فاعذر رجلًا لا حظّ له. لقد تكلّمت كثيرًا، وكثيرًا جدًّا. فكيف لي أن أفعل غير ذلك؟ أيستطيع من صام لسانه عن الكلام مئةً وخمسين عامًا أن يفطر على «إي»

و«لا»؟ أيستطيع شمادم أن يكون مرداد؟».

«ألا أذنت لي بسؤال يا أخي شمادم؟».

«ما ألطفك تدعوني أخًا! فأنا منذ مات أخي الأوحد، وذلك لسنين عدّة خلتْ، ما سمعتُ إنسانًا يناديني بذلك الاسم العذب. ما هو سؤالك؟»

«إنّه ليدهشني أن يكون مرداد المعلّم العظيم الذي وَصَفْتَ وألّا يسمعَ العالم عنه أو عن أحد من رفاقه شيئًا حتّى اليوم.»

«لعلّه ما يزال يترقّب الوقت المناسب. أو لعلّه يعلّم باسم غير اسمه. إلّا أنّني واثق من أمر واحد. وهو أنّ مرداد سيغيّر العالم كلّه كما غيّر الفلك.»

«ولعلّه مات من زمان.»

«لا. مرداد لا يموت. لأنّه أقوى من الموت.»

«أتعني أنّه سيهدم العالم مثلما هدم الفلك؟»

«كلّا ثم كلّا. فهو ما هدم الفلك بل أراحها من أثقالها. وكذلك سيريح العالم من أثقاله. وعندها سينير الضوء الأبديّ من جديد، ذلك الضوء الذي أخفيته أنا وأمثالي تحت أكداس من الأوهام، والآن ننعى شدّة الظلمة التي نحن فيها. إنّ مرداد سيرمّم في الناس ما أتلفه الناس في أنفسهم. وقريبًا يصبح الكتاب في يديك. فاقرأ واستنر. والآن عليّ أن لا أبطىء بعد. انتظرني قليلًا هنا ريثما أعود. وإيّاك أن تتبعني حيث أنا ذاهب.»

وخرج الراهب من الكهف بخطوات سريعة وتبعتُه حتّى شفير الهاوية حيث وقفتُ أتأمّل المشاهد المنبسطة أمَام عينيّ من رأس القمّة حتّى شاطئ البحر. وإذا بالجمال المنثور في ألوانها الفتّانة وخطوطها العجيبة يسطو عليّ بسحر لا يُقاوم. فشعرت كأنّني أذوب ثمّ أسيل ثمّ أتبخّر ثمّ أنزل قطيرات لا تبصر فوق كلّ شيء وأتغلغل في كلّ شيء: في البحر البعيد الملتفّ بأكفان شفّافة من الضباب اللّؤلؤيّ؛ وفي الآكام المنحنية هنا، المتكئة هنالك، وكأنّها كلّها درجات سلّم أسفله في البحر وأعلاه على غوارب الجبال الجرداء؛ وفي المزارع والقرى المنثورة على التلال والمغمورة بخضرة الأرض؛ وفي المروج الزمرّديّة المحضونة بالتلال، المرصّعة بالبهائم في مراعيها والناس في أعمالهم، والمرتوية من أفئدة الجبال السائلة؛ وفي الأودية والأخاديد وكأنّها الجروح الحيّة في أجسام الجبال، الشاهدة لها بالصمود في معركتها مع الزمان؛ وفي النسيم النشوان، وفي زرقة السماء واغبرار الأرض.

كدتُ أنسى الراهب وحكايته المحيّرة عن نفسه وعن مرداد والكتاب لو لم تعد بي أبصاري من جوّها البعيد إلى منحدر الصوّان بالقرب منّي. فرحت أفكّر باليد الخفيّة التي أخرجتني من بيتي

للتفتيش عن الراهب المسحور، فقادتني إليه وإلى أكثر منه بكثير. إلى مرداد وكتابه. وباركتها في قلبي.

وأنا كذلك وإذا بالراهب يعود فيناولني كتابًا ملفوفًا بقطعة من الكتّان المصْفَرّ من تعاقب السنين ويقول لي:

«إنّ مهمّتي أصبحت منذ الآن مهمّتك. فالكتاب اليوم أمانة في يديك. فكن أمينًا لأمانتك. أمّا أنا فقد دنت ساعتي الثانية. وأبواب سجني تنفتح لتقتبلني. وليس يُعرف إلى متى تبقى مُغلقة عليّ غير مرداد. قريبًا يمحى شمادم من كلّ ذاكرة، يا له من ألم لا يضاهيه ألم، أَلَمُ الامّحاء! وما بالي أقول ذلك وذاكرة مرداد تحفظ كلّ شيء؟ من عاش في ذاكرة مرداد عاش إلى الأبد.»

وتلا ذلك سكوت طويل ومن بعده رفع الراهب رأسه والتفت إليّ بعينين مترعتين بالدموع ثمّ قال بصوت منخفض كأنّه الهمس فما كدت أسمعه:

«ستعود قريبًا إلى العالم. لكنّك عريان والعالم يكره العري. فهو يلفّ حتّى روحه بالأطمار. وأنا لا حاجة لي فيما بعد بالثياب التي على بدني. فها أنا أدخل الكهف لأنزعها عنّي كيما تستر بها عريك. ذلك مع علمي أنّ ثياب شمادم لا تناسب أحدًا إلّا شمادم.»

قبلت بما عرضه عليّ الراهب من غير أن أعلّق عليه كلمة واحدة. وفهم الراهب أنّي قبلت فدخل الكهف وبقيت واقفًا عند المدخل. ثمّ فطنتُ للكتاب في يدي فنزعتُ عنه لفائفه وأخذت أقلّب أوراقه التي كانت من رقّ الغزال وقد علاها اصفرار جميل. وسرعان ما غرقت في صفحاته فرحت أقرأ من غير ترتيب ولكن بانجذاب غريب. وكنت، وأنا أقرأ، أنصتُ إلى داخل الكهف لعلّني أسمع الراهب يناديني لأدخل وأرتدي ثيابه. فمرّت الدقائق سراعًا ولم أسمع للراهب صوتًا. أخيرًا رفعت عينيّ عن الكتاب ونظرتُ إلى داخل الكهف فرأيتُ في وسطه كومة ثياب الراهب. أمّا الراهب نفسه فما لمحته حتّى لمحًا. فناديته مرة واثنتين وثلاثًا رافعًا صوتي كلّ مرة أكثر من التي قبلها. إلّا أنه ما كان ليجيب. فاضطربت كثيرًا وانذهلت أيّما انذهال لعلمي أنّ الراهب لا يستطيع الخروج من الكهف إلّا من المدخل الضيّق حيث كنت واقفًا، ولم يكن عندي أقلّ شكّ في ذلك. فما عدت أعرف ما أقول ولا كيف أردّ عني الأفكار الغريبة التي أخذت تساورني: ألعلّه ما كان إلّا شبحًا؟ ولكنّني لمست لحمه وعظمه بلحمي وعظمي. وها هو الكتاب ما يزال في يدي. وها هي ثيابه داخل الكهف. ألعلّه أغمي عليه وهو الآن مطمور تحت ثيابه؟

دخلتُ الكهف ورحتُ أرفع الثياب بيدي ثوبًا ثوبًا. يا للغباوة! إنّ أكوامًا أضعاف هذه الكومة لا تكفي لطمر جثّة كجثّة المتقدّم. ألعلّه، بطريقة عجيبة، خرج من الكهف من غير أن أشعر به ووقع في الهاوية؟

وبأسرع ممّا جاءتني الفكرة الأخيرة وثبت إلى الخارج. وبأسرع من وثبتي وجدتني مسمّرًا إلى الأرض على بضع خطوات من مدخل الكهف عندما ألفيتني وجهًا لوجه أمَام حجرٍ كبير قائم على شفير الهاوية بالتمام. وممّا لا ريب فيه على الإطلاق أنّ هذا الحجر لم يكن هناك من قبل. وقفتُ أتأمّله فإذا به يشبه وحشًا جاثمًا. وإذا برأس ذلك الوحش يكاد يكون رأس إنسان. ملامحه خشنة. صلبة. وأبرزها ذقن عريض مرتفع وفكّان قويّان متماسكان. وشفتان كأنّهما مختومتان بخاتم الصمت الرهيب. وعينان ذاهلتان وشاخصتان إلى الشمال الفراغ القاسي.

الكتاب

هذا كِتابُ
مِرداد
كما دَوّنَه
نَرُوْنْدا
أصغرُ رفاقِه سِنًّا
وأقلّهُم قدرًا
مَنارةً وميناءً
للتوّاقين إلى التغلّب
أمّا غير التوّاقين
فليَحْذروه!

الفصل الأوّل

مرداد يسفر ويحدّث عن الحجب والخواتم.

نَرُوندا: في ذلك المساء كان الثمانية مجتمعين حول مائدة العشاء. وكان مرداد واقِفًا جانبًا في انتظار الأوامر.

وكان الرفيق شمادم يتبجّح بمآتيه في خلال رئاسته فيسوق الأرقام ليُظهر المقادير الطائلة التي أضافها إلى ثروة الفلك والمكانة الرفيعة التي أوصلها إليها. وكان في تبجّحه يُكثر من استعمال كلمة «أنا» مناقِضًا بذلك قاعدة من أقدم القواعد المسنونة للرفاق. وهي أن يتحاشوا جهد استطاعتهم استعمال ضمير المفرد المتكلّم في أحاديثهم. فما كان من الرفيق ميكايّون إلّا أن أنّب المتقدّم بلطف. وعلى الأثر احتدم الجدال حول تلك القاعدة، والغاية منها، واسم واضعها، أهو أبو الآباء نوح أم الرفيق الأوّل سام. وأدّى الجدال إلى المعايرة، والمعايرة إلى المهاترة فالتشويش حيث لم يبقَ في إمكان السامع أن يسمع أو أن يفهم شيئًا من الأخذ والردّ.

وعندها رأى شمادم أن يحوّل اللغط والتشويش إلى ضحك فالتفت إلى مرداد وقال بسخرية مفضوحة:

«ما بالنا نتخبّط في الجدال وعندنا من هو أعظم من أبي الآباء؟ مرداد ألا خلّصتنا من هذه الشِباك الكلاميّة؟».

وفي الحال توجّهت كلّ الأبصار إلى مرداد. ولشدّ ما دُهشنا وما ابتهجنا عندما فتح مرداد فاه لأوّل مرّة في سبع سنوات وكلّمنا هكذا:

مرداد: يا رفاق الفلك! كأنّي بشمادم عندما توجّه متهكّمًا بأمنيته هذه إلى مرداد تنبّأ عن غير قصد منه بما اعتزمه مرداد من أمدٍ بعيد. فمنذ اليوم الذي دخل فيه هذه الفلك قد اختار مرداد هذا

الظرف بعينه، هذه الساعة وهذا المكان، ليفضّ فيه خواتمه ويطرح عنه حجبه، ويقف سافرًا أمامكم وأمَام العالم.

بسبعة خواتم ختم مرداد على شفتيه. وبسبعة حجب حجب وجهه كيما يعلّمكم ويعلّم العالم، عندما تصبحون قابلين للتعليم، كيف تفضّون الخواتم التي على شفاهكم، وتمزّقون الحجب التي على وجوهكم، وبذلك تعلنون أنفسكم لأنفسكم بتمام المجد الذي هو مجدكم.

إنّ عيونكم لمحجّبة بحُجُب كثيرة. فأنتم ما نظرتم إلى شيء إلّا كان ذلك حجابًا لكم.

وإنّ شفاهكم لمختومة بخواتم كثيرة. فأنتم ما نطقتم بكلمة إلّا كانت الكلمة خاتمًا لشفاهكم.

فما الأشياء بأشكالها وأنواعها سوى حُجُب وقُمُط تحجّبت الحياة وتقمّطت بها. فكيف للعين التي ليست في ذاتها غير حجاب من حجب الحياة وقماط من قمطها أن تدلّكم على أكثر من الحجب والقمط؟

والكلمات؟ أليست هي كذلك أشياء مختومة في أحرف ومقاطع؟ فكيف لشفة ليست في ذاتها غير خاتم أن تنطق بغير الخواتم؟

إنّما تستطيع العين أن تحجب الأشياء، ولكنّها لا تستطيع أن تميط عنها الحجب.

وإنّما تستطيع الشفة أن تختم الأشياء، ولكنّها لا تستطيع أن تفضّ الخواتم.

لا تسألوا تلك ولا هذه أن تفعلا أكثر ممّا في وسعهما فعله. فشأن الواحدة أن تحجب الأشياء، وشأن الأخرى أن تختمها. وكلتاهما تقوم بما وكل إليها من أعمال الجسد خير القيام. فهما إذ تحجبان الأشياء وتختمانها، إنّما تدعوانكم إلى التفتيش عمّا وراء الحجب وإلى التنقيب عمّا تحت الخواتم.

أمّا إذا شئتم هتك الحجب فعليكم بعينٍ غير العين المسلّحة بالأهداب والجفون، والمظلّلة بالحواجب.

وإن شئتم فضّ الخواتم فعليكم بشفةٍ غير قطعة اللحم المألوفة التي تحت أنفكم.

تعلّموا أوّلًا أن تبصروا العين نفسها جليّة إذا ما شئتم أن تبصروا الأشياء جليّة. لذلك لا تنظروا بالعين، بل من خلالها، كيما تبصروا كلّ ما وراءها.

وتعلّموا أن تُنطقوا بالصواب الشّفة ذاتها واللسان عينه إذا ما شئتم أن تنطقوا غيرهما من الكلام بالصواب. لذلك لا تَنطقوا بالشفة واللسان بل من خلالهما كيما تنطقوا بكلّ ما وراءهما من الكلم.

فأنتم لو كان لكم أن تنظروا بالصواب وتتكلّموا بالصواب لوجدتم أنّكم لا تبصرون غير أنفسكم في كلّ ما تبصرون. ولا تنطقون إلّا بأنفسكم في كلّ ما تنطقون. إذ ليس في الأشياء وكلّ ما وراءها، ولا في الكلام وكلّ ما خلفه إلّا الناظر والمتكلّم. وإذ ذاك فإن يكن عالمكم أحجية فلأنّكم الأحجية. أو يكن كلامكم شباكًا وشراكًا فلأنّكم الشباك والشراك.

ذروا الأشياء على حالها ولا تحاولوا أن تغيّروها. فهي ما كانت على ما هي إلّا لأنّكم على ما أنتم. وهي لا تبصر وتنطق إلّا على قدر ما تعيرونها من بصركم ونطقكم. لذلك إذا ما أغلَظَتْ لكم الكلام فابحثوا عن السبب في ألسنتكم. وإذا ما أزعجتكم شناعتها ففتّشوا عيونكم أوّلًا وآخرًا.

ثمّ لا تسألوا الأشياء أن تنزع عنها حجبها. بل اسفروا أنتم تسفر الأشياء. ولا تسألوها أن تفضّ خواتمها. فضّوا الخواتم التي على شفاهكم تُفَضّ الخواتم عن كلّ شيء.

أمّا مفتاح الانعتاق من الحجب والخواتم فكلمة لا تبرح شفاهكم أبدًا، وهي ما بين الكلمات، أصغرها وأكبرها. وقد دعاها مرداد «الكلمة المبدعة».

نَرُوندا: ووقف المعلّم عن الكلام فهبطت على الجميع سكينة عميقة مرتعشة بما في أفكارنا وعيوننا من الشوق والانتظار. وأخيرًا تكلّم ميكايّون وقد عيل صبره والتهبت مشاعره:

ميكايّون: إنّ آذاننا لجائعة إلى الكلمة وقلوبنا لتوّاقة إلى المفتاح. سألناك بأبي الآباء، تكلّم يا مرداد، تكلّم.

الفصل الثاني

في الكلمة المبدعة. «أنا» هي الينبوع والمحور.

مرداد: كلّما قلتم أنا قولوا كذلك في قلوبكم: نجّنا اللّهمّ من ويلات أنا، واهدنا إلى غبطة أنا. فهذه الكلمة، على ضآلتها، هي الإناء السرِّيّ الذي خُتمت فيه أرواح كلّ الكلم. فإذا ما فضضتم مرّة خاتمه تعطّرت أفواهكم وحَلَت ألسنتكم، فسالت كلّ كلمة من كلامكم ببهجة الحياة. وإذا ما تركتموه مختومًا بقيت أفواهكم بَخْراء وألسنتكم مريرة. وسالت كلّ كلمة من كلامكم بصديد الموت.

لأنّ «أنا»، أيها الرهبان، هي الكلمة المبدعة. فما لم تدركوا القدرة السحريّة التي فيها، وما لم تصبحوا أسياد تلك القدرة، دام غناؤكم عويلًا، وسلمكم حربًا، ودمتم ترتجفون في ظلمات السجون حين تودّون أن تحلّقوا في أنوار الأعالي.

إنّ «أنا»، أيّها الرهبان، هي حسّكم غير المجسّد الصامت بالوجود، وقد أصبح مجسّدًا وناطقًا. هي ما ليس يُسمع فيكم وقد غدا مسموعًا، وما ليس يُنظر وقد بات منظورًا. حتّى إذا ما نظرتم بعيونكم أبصرتم ما لا يُبصر. أو أصغيتم بآذانكم سمعتم ما لا يُسمع. فأنتم ما برحتم مقيّدين بالعين والأذن. وما لم تبصروا بأعينكم وتسمعوا بآذانكم بقيتم عميانًا وصمًّا لا تبصرون ولا تسمعون.

إنّكم بمجرّد ما تفكّرون بـ«أنا» تكوّنون في رؤوسكم خضمًّا متلاطمًا من الأفكار. ذلك الخضمّ هو من صنع «أنا» التي هي المفكِّر والمفكَّر به في آنٍ معًا. إن يكن في أفكاركم ما يَلدغُ أو ينهش أو يمزّق فاعلموا أنّكم أنتم قد سلّحتموه بالحُمَّة والناب والمخلب.

ومرداد يريدكم أن تعلموا كذلك أنّ مَن كان في مستطاعه أن يُسلّح كان في مستطاعه أن ينزع السلاح.

كذلك بمجرّد ما تحسّون «أنا» تكشفون في قلوبكم عن بئر طافحة بالإحساسات. وتلك البئر ما أوجدها في قلوبكم إلّا «أنا». فهي المُحِسّ والمحسوس في آنٍ معًا. إن يكن في قلوبكم قتاد وحسك

السعدان فاعلموا أنّكم أنتم قد غرستموهما هنالك.

ومرداد يريدكم أن تعلموا كذلك أنّ من كان في استطاعته أن يغرس كان في استطاعته أن يقتلع ما غرس.

وكذلك بمجرّد ما تنطقون «أنا» تبعثون إلى الحياة جيشًا لجبًا من رميم الكلام. كلّ كلمة منه رمزٌ إلى شيء. وكلّ شيء رمز إلى عالم. وكلّ عالم جزء غير منفصل من مسكونة لا تُحَدّ. وتلك المسكونة هي من خلق «أنا» التي هي الخالق والمخلوق في آنٍ معًا. إن يكن في مسكونتكم من عفاريت فاعلموا أنكم خالقوهم من لا شيء.

ومرداد يريدكم أن تعلموا كذلك أنّ من كان في استطاعته أن يخلق شيئًا من لا شيء كان في استطاعته أن يعيده إلى لا شيء. كما يكون الخالق تكون خليقته. أيستطيع أحد أن يخلق أكثر من ذاته؟ إنّما يخلق الخالق ذاته، لا أكثر ولا أقلّ.

إنّ «أنا» لينبوع تتدفّق منه الأشياء كلّها وإليه تعود. فهل لينبوع أن يفيض بغير ما فيه؟ كما الينبوع كذلك ما يسيل منه.

وكعصا الساحر هي «أنا». أتستطيع العصا أن تُظهر من السِّحر أكثر ممّا في الساحر؟ كما الساحر كذلك السِّحر الذي في عصاه.

وإذن كانت «أنا»، أيّها الرهبان، صورة صادقة لحسّكم بالوجود، وكان العالم الذي أنتم فيه صورة صادقة لها. فإن كانت أنا جليّة المعنى واضحة الدلالة كان عالمكم جليًّا وواضحًا. وإذ ذاك ما كان كلامكم يومًا شباكًا لكم، ولا كانت أعمالكم عشاش آلام وأحزان. وإن كانت «أنا» مبهمة المعنى ملتبسة الدلالة كان عالمكم مبهمًا وملتبسًا. وإذ ذاك كان كلامكم شراكًا لكم وكانت أعمالكم بيادر للأوجاع.

وإذا كانت «أنا» راهنة، ثابتة، كان عالمكم راهنًا، ثابتًا، فكنتم أقوى من الزمان وأوسع من المكان. أمّا إذا كانت متقلّبة، متنقّلة، كان عالمكم متقلّبًا ومتنقِّلًا. فكنتم خصلة من الدخان لا تتنفّس فيها الشمس حتّى تبدّدها.

وإذا كانت «أنا» واحدة، كان عالمكم واحدًا فكنتم في سلام أبديّ مع كلّ أجناد السماء وشركاء الأرض. أمّا إذا كانت كثر، كان عالمكم كثرةً فكنتم في نزاع سرمديّ مع أنفسكم وكلّ مخلوق في مملكة الله التي لا تُحَدّ.

«أنا» هي المحور الذي تدور عليه حياتكم والذي تشع منه سائر الأشياء التي منها يتألّف عالمكم. فإن يكن المحور ثابتًا كان عالمكم ثابتًا. وإذ ذاك عجزت قوات السموات والأرضين عن أن تميلكم ذات اليمين أو ذات اليسار. أمّا إذا كان المحور اليوم هنا، وغدًا هناك، وبعد غدٍ هنالك، كان عالمكم مترجرجًا، متقلّبًا، وكنتم إذ ذاك ورقة في مهبّ عاصفة غضوب.

وها هو عالمكم، إنّه لعالم ثابت، ولكن في عدم ثباته؛ وجليّ، ولكن في إبهامه؛ ودائم، ولكن بزواله؛ وواحد، ولكن بقلّة ما فيه من وحدة.

إنّ عالمكم لعالَمُ مُهود تتحوّل أبدًا إلى لحود، ولحود تنقلب مهودًا. وعالم أيّام تزدرد الليالي، وليال تتقيّأ الأيّام. وعالم سلم يشهر الحرب، وحرب تطلب السّلم. وعالم بسمات تعوم في بحر من الدموع، ودموع تشعّ بالبسمات.

إنّه لعالم أبدًا في حالة المخاض. أمّا القابلة بجانبه فالموت.

إنّه لعالم غرابيل ومناخل ليس بينها غربالان ولا منخلان متشابهان. وأنتم في ذلك العالم لاهون أبدًا بغربلة ما لا يغربعل ونخل ما لا يُنخل.

إنّه لعالَم منقسم على ذاته. لأنّ «أنا» فيكم منقسمة على ذاتها.

إنّه لعالم سياجات وسدود. لأنّ «أنا» فيكم مكتظّة بالسياجات والسدود. فهي أبدًا تسيّج حول ما تحسبه منها لتُبقي خارجًا ما تعتقده غريبًا عنها. وهي لا تفقه أنّ ما تحصره داخل السياج لا ينحصر ضمنه بل يخترق سبيله أبدًا إلى ما وراء السِّياج. وإنّ ما وراء السِّياج لا يبقى وراءه بل يعمل دائمًا على الانضمام إلى ما هو داخل السِّياج. وما ذاك إلا لأنّ الذي داخل السِّياج والذي خارجه هما توأمان لا ينفصلان لأمّ لا تتجزّأ. وتلك الأمّ هي «أنا».

إلّا أنّكم بدلًا من أن تُسرّوا باتحاد التوأمَين تعودون فتشدّوا أحقاءكم من جديد للعمل على فصلهما، غير عالمين أنّه عمل لا طائلة تحته. وبدلًا من أن تصرفوا همّكم إلى رأب الصدع بين شطرَيْ «أنا»، تنفقون العمر في بَرْي أيّامكم ولياليكم لتجعلوا منها أوتادًا تفصلون بها بين ما تحسبونه أنا وبين ما تتوهّمونه غير أنا.

لذلك كان كلام الناس مغموسًا بالسمّ. ولذلك كانت أيّامهم سكرى بالأحزان، ولياليهم حبلى بالأوجاع.

ما دامت «أنا» الإنسان شطرين دام ما ينطق به شِباكًا ودامت حياته حربًا.

والإنسان في الواقع لا يحارب إلّا نفسه. وهو إذ يحاربها يحارب كلّ مخلوق يتوهّمه غير نفسه.

وكيف لذاتين أن تعيشا في سلام ما دامت الواحدة تسيّج ذاتها لتُبقي الأخرى خارج السِّياج؟ كيف لاثنين أن يتفاهما يومًا من الأيام ما لم تكن أنا الواحد مثل أنا الآخر بالتمام؟

كيف لعالمكم أن يعرف التوازن ما دامت «أنا» فيكم أبدًا مختلّة التوازن؟

إنّ مرداد، أيّها الرهبان، سيرأب لكم الصدع الذي في «أنا» كيما تتمكّنوا من أن تعيشوا بسلام مع أنفسكم، ومع الناس، ومع المسكونة بأسرها.

ومرداد سيطهّر لكم «أنا» من كلّ ما فيها من سموم كيما تتذوّقوا حلاوة الفهم.

ومرداد سيعلِّمكم كيف تزِنون «أنا» كيما تعرفوا سرّ التوازن الكامل.

نروندا: وسكت المعلّم ثانية. وعادت السكينة فغمرت الجميع. وهذه المرّة كذلك كان ميكايّون أوّل من اندفع إلى الكلام إذ قال:

ميكايّون: إنّ في كلماتك لإغراء قويًّا يا مرداد. فهي تفتح أمامنا أبوابًا ولكنّها تتركنا على العتبة. أفلا اجتزت بنا إلى أبعد من العتبة، إلى الداخل؟

الفصل الثالث

في الثالوث الأقدس والتوازن الكامل.

مرداد: إنّكم، وإن تمركز كلّ منكم في أناهُ، تتمركزون جميعكم في «أنا» واحدة، شاملة، هي «أنا» الله.

و«أنا» الله، أيّها الرهبان، هي كلمة الله الوحيدة منذ الأزل. إذ أنّ فيها وحدها يتجلّى الله أو الضمير الأسمى. ولولاها لكان الله صمتًا مطلقًا. بها خلق الخالق نفسه. وبها اتخذ عديم الشكل مختلف الأشكال التي لا مناص للمخلوقات من التشكّل بها والنفوذ منها إلى اللاشكليّة. وبها نطق الله بذاته التي لا يستوعبها نطق.

ها هو السرّ الأكبر حيث يبدو غير المحسوس محسوسًا، والمحسوس غير محسوس، وحيث يتمّ ذلك القران السرّي بين الروح والمادّة فيغدو الاثنان واحدًا.

فالله، إذ يُحِسُّ ذاته، أو يفكّر بذاته، أو ينطق بذاته لا يحتاج إلى أكثر من قوله أنا. لذلك كانت «أنا» كلمته الوحيدة. لذلك كانت الكلمة.

إذا قال الله «أنا» فقد قال كلّ شيء. إذ ليس من عوالم منظورة وغير منظورة، ولا من أشياء مولودة وغير مولودة، ولا من زمان كرّ، أو يكرّ، أو سيكرّ، ليس من شيء على الإطلاق، حتّى ولا ذرّة من الرمل، إلّا كان محشورًا في هذه الكلمة. بها كانت الأشياء كلّها. وبها يحيا كلّ ما هو كائن.

لكنّما الكلمة، ما لم تكن ذات معنى، كانت كصدى في الخواء.

ولكنّما المعنى، ما لم يكن مفهومًا وغير قابل للتأويل، كان كالسّرطان في الحلق أو كالبثور على اللسان.

أمّا كلمة الله فما كانت يومًا صدى في الخواء، ولا سرطانًا في الحلق، ولا بثورًا على اللسان إلّا للذين حُرِموا الفهم. فالفهم هو الروح القدّوس الذي يحيي الكلمة ويمكّن الصلة بينها وبين الضمير الناطق بها. فهو بمثابة المنجم في ميزان كفّته الواحدة الضمير الأوّليّ وكفّته الثانية الكلمة.

الضمير الأوّليّ، فالكلمة، فروح الفهم: هاكم، أيّها الرهبان، ثالوث الوجود. هاكم الثلاثة التي ليست غير واحد والواحد الذي هو أبدًا ثلاثةٌ متوازنون في كلّ شيء، متكافؤون في الوجود والسرمديّة، عارفون ذواتهم بذواتهم، متمّمون واحدهم الآخر، غير قابلين للزيادة ولا للنقصان، ولا للتغيّر والتبدّل. وكائنون أبدًا في سلام سرمديّ. ذلك، أيّها الرهبان، هو التوازن الكامل.

لقد دعا الإنسان ذلك التوازن الله. أمّا في الواقع فهو أعجب بكثير من أن يسمّى. لكنّ الله، مع ذلك، اسم مقدّس. ومقدّس هو الفهم الذي يقدّسه.

والآن، من هو الإنسان إن لم يكن نسلًا من الله؟ ألعلّ في إمكانه أن يختلف عن الله؟ أليست السنديانة كلّها مقمّطة في البلّوطة التي هي ثمرتها؟ أليس الله ملتفًّا في الإنسان؟

إذن، فالإنسان كالله، ثالوث أقانيمه الضمير والكلمة والفهم. وإذن، فالإنسان كذلك خالق كإلهه. وخليقته هي أناهُ. فعلامَ لا توازن فيه مثل الله؟

إذا ما أحببتم أن تعرفوا الجواب على هذه الأحجيّة فاسمعوا جيّدًا ما سيعلنه لكم مرداد.

الفصل الرابع

الإنسان إله ما يزال في القمُط.

مرداد: إنّما الإنسان إله في القُمُط. فالزمان قماط. والمكان قماط. والبشرة قماط، ومثلها الحواس وكلّ ما تتناوله الحواس. الأمّ تعرف أنّ القمط هي غير الطفل المقمّط بها. أمّا الطفل فلا يفقه ذلك قطّ.

والإنسان ما يزال يُحسّ قمطه إحساسًا عميقًا. وإذ أنّ قمطه تتغيّر من يوم ليوم فحسّه لا يثبت على حال. لذلك كانت كلمته التي ليست غير حسّه المعبّر عنه بالنطق متقلّبة الدلالات والمعاني. ولذلك كان فهمه غامضًا ومشوّشًا. ولذلك فقد التوازن في حياته فكانت تشويشًا في تشويش.

وهكذا تسمعون الإنسان أبدًا يستغيث. وهو يستغيث بكلّ شيء إلّا بروح الفهم القدّوس الذي لا إغاثة إلّا منه.

وها هو صراخ الإنسان الذي يقطع نياط القلوب ما يبرح متردّدًا في أغوار الدهور. فالهواء مثقل بأنين الإنسان. والبحار مليحة بدموعه. والأرض مخدّدة بأجداثه. والسماء موقورة آذانها بابتهالاته. وكلّ ذلك لأنّه يجهل حتّى الآن معنى «أنا». فهي عنده القُمُط والطفل المقمّط بها معًا.

عندما يقول الإنسان أنا يشطر الكلمة إلى شطرين، أحدهما القُمط المقمّط بها وثانيهما ذات الله التي لا تموت. ويروح يشنّ حربًا على الذات الكونيّة متوهّمًا إيّاها غير ذاته أو عدوّةً لذاته.

وفي هذه الحرب المتفاوتة القوى يمزّق الإنسان لحمه إربًا إربًا، ويهرق دمه أنهارًا. بينا الله الذي هو الأب والأمّ يرقب كلّ ذلك بعطف ومحبّة. لأنّ الله يعرف حقّ المعرفة أنّ الإنسان بهرقه لدمه وبتمزيقه للحمه لا يهرق في الواقع غير العلقم، ولا يمزّق غير الحجب التي تعميه عن وحدته مع الواحد الصمد.

تلك هي قسمة الإنسان أن يناضل ويدمى ويغمى عليه ثمّ أن يستفيق في النهاية فيرأب صدع «أنا» بلحمه ويضمّده بدمه.

ذلك هو السبب، أيّها الرهبان، الذي من أجله حُظّر عليكم الإكثار من استعمال كلمة أنا. لأنكم ما دمتم تعنون بها القمط والطفل لا الطفل وحده. وما دامت لكم غربالًا لا بوتقة، دمتم تغربلون الباطل فلا تحصلون من غربلتكم إلّا على الموت وذرّيته بكلّ ما فيها من ألم مبرّح وغصّة لا تطاق.

الفصل الخامس

في البواتق والغرابيل. كلمة الله وكلمة الإنسان.

إنّ كلمة الله بوتقة تصهر كلّ ما تخلقه وتمزجه فتجعل منه وحدة كاملة. فلا تقبل شيئًا لأنّه ذو قيمة وترفض الآخر لأنّ لا قيمة له. وإذ أنّ لها روح الفهم فهي تعرف حقّ المعرفة أنّها وما تخلقه وحدة لا تتجزّأ. وأنّها إذا ما نبذت جزءًا من خليقتها فكأنّها نبذت ذاتها. لذلك كان دأبها أبدًا واحدًا وغايتها أبدًا واحدة.

أمّا كلمة الإنسان فغربال. فهي تقيم من بعض ما تخلقه نقيضًا للبعض الآخر. وتجعل الاثنين في عراك دائم. وهي ما تنفكّ تختار ممّا تخلق أشياء تحسبها موالية لها. وتطرح أخرى تتوهّمها معادية لها. فلا تلبث أن تقلب الآية فتعود وتختار من أعداء الأمس أصدقاء اليوم. وتنبذ من أصدقاء اليوم أعداء الغد.

وهكذا تبقى نار الحرب مشبوبة بين الإنسان ونفسه. وما أفظعها وأقساها من حرب! وما ذلك إلّا لأنّ الإنسان يفتقر إلى الروح القدّوس الذي بإمكانه وحده أن يُفهمه أنّه وخليقته وحدة لا تتجزّأ. وأنّه بطرحه منها ما يحسبه معاديًا له يطرح كذلك ما كان مواليًا. إذ أنّ كلتا الكلمتين من «صديق» و«عدو» ليست إلّا من خلق كلمته التي هي «أنا».

فلولا الواحدة لما كانت الأخرى. انبذوا الخليقة تنبذوا معها الخالق. وهذا ما يفعله الإنسان بالتمام، فهو لا ينفكّ يطرح «أنا» فيعود ويلتقطها من جديد.

إنّ ما ترون فيه شرًّا لكم فتكرهونه وتطرحونه خارجًا لا بدّ من أن يلتقطه غيركم من المخلوقات كخير له. فكيف لشيء أن يكون خيرًا وشرًّا في آنٍ معًا؟ إنّه ما كان خيرًا ولا شرًّا ولكنّ «أناكُم» جعلته شرًّا و«أنا» سواكم جعلته خيرًا.

ألم أقل إنّ من كان في وسعه أن يخلق كان في وسعه أن يمحو ما خلق؟ فمثلما تخلقون العداوة تستطيعون أن تمحوها، أو أن تعيدوا خلقها فتجعلوها صداقة. ولا بدّ لذلك من أن تكون «أناكُم» بوتقة لا غربالًا. ولا بدّ لكم إذ ذاك من روح الفهم.

من أجل ذلك أقول لكم: إذا ما صلّيتم على الإطلاق فاطلبوا روح الفهم أوّلًا وآخرًا.

إيّاكم والغربلة يا رفاقي. لأنّ كلمة الله هي الحياة. والحياة بوتقة، كلّ ما فيها وحدة لا تتجزّأ، وحدة متوازنة أبدًا وخليقة بالثالوث المقدّس مبدِعِها. أفليست خليقة بكم؟

إيّاكم والغربلة يا رفاقي. فمتى أقلعتم عنها وجدتموكم متغلغلين في كلّ شيء، ومحتضنين كلّ شيء، ورأيتموكم عمالقةً لا تسع الواحد منهم كلّ غرابيل الأرض.

إيّاكم والغربلة يا رفاقي. اطلبوا أوّلًا معرفة الكلمة كيما يتاح لكم أن تعرفوا كلمتكم. فأنتم إذا ما عرفتم كلمتكم ألقيتم بغرابيلكم في النار. لأنّ كلمتكم وكلمة الله واحدة. ولا فرق إلّا أنّ كلمة الله سافرة وكلمتكم ما تزال محجّبة.

ومرداد يريدكم أن تطرحوا الحجُب جانبًا.

إنّ كلمة الله هي الزمان ما قيس بزمان، والمكان ما حُدّ بمكان. فما لكلمتكم محصورة في حظيرة من الروزنامات والأميال؟ أكان زمان ما كنتم فيه مع الله؟ أهنالك مكان لستم فيه في الله؟ فما بالكم تقيّدون الأزليّة والأبديّة بسلاسل من الساعات والفصول، وتزربون الفضاء في زرائب من القراريط والأشبار؟

كلمة الله هي الحياة لم تولد ولذلك لا تموت، فما لكلمتكم تحاصرها الولادة من جانب والموت من جانب؟ أليس أنّكم تحيون بحياة الله لا غير؟ فكيف لمن لا يعرف الموت أن يكون ينبوع الموت؟

كلمة الله واحدة شاملة. لا سدود فيها ولا سياجات. فما لكلمتكم تمزّقها السدود والسياجات؟

حقًّا إنّكم لعاجزون، أيّها الرهبان، عن أن تقيموا سدًّا واحدًا ما بين أنفسكم وبين أقلّ المخلوقات. وإذا ما توهّمتم العكس خدعتم أنفسكم لا غير.

أقول لكم إنّ لحومكم وعظامكم ليست لحومكم وعظامكم وحدكم. فمن ذا بإمكانه أن يُحصيَ الأيدي التي تنغمس مع أيديكم في قِصَع السموات والأرضين حيث تتناولون لحومكم وعظامكم وإلى حيث تردّونها عاجلًا أو آجلًا؟

لا ولا النور الذي في عيونكم هو نوركم وحدكم. بل هو نور كلّ ما شارككم في الشمس من الكائنات. وماذا عسى لعينكم أن تبصر من وجهي لولا النور الذي على وجهي؟ إنّما النور الذي على وجهي يبصرني في عيونكم. وإنّما النور الذي على وجوهكم يبصركم في عينيّ. فلوكنت ظلمة دامسة لما كانت عيونكم، إذ تنظر إليّ، إلّا ظلمة دامسة.

لا ولا الأنفاس التي في صدوركم أنفاسكم وحدكم إنّما تتنفّس في صدوركم كلّ الكائنات التي تنفّست الهواء من قبل أو تتنفّسه في هذه الساعة. أليس أنّ نَفَس آدم ما يزال ينفخ رئاتكم، وقلب آدم ما يزال ينبض في قلوبكم؟

لا ولا الأفكار التي في رؤوسكم أفكاركم وحدكم. إن هي إلّا قطرات من بحر الفكر العالميّ. فلكلّ ذي فكر شركة في ما تفكّرون.

لا ولا الأحلام التي تحلمون أحلامكم وحدكم. إنّما المسكونة بأسرها تحلم في ما تحلمون.

لا ولا البيت الذي تسكنون بيتكم وحدكم. إنّما هو بيت ضيفكم كذلك، وبيت الذبابة، والفأرة، والهرّة، وغيرهنّ من المخلوقات التي تشاطركم سكناه.

فاحذروا، إذن، السياجات. لأنّكم إنّما تسيّجون الوهم والباطل. أمّا الحقيقة فتهملونها خارجًا. وعندما تفتّشون عن أنفسكم داخل السياج لا تجدون غير الموت، الذي ليس سوى اسم آخر للوهم.

غير منفصل هو الإنسان عن الله، أيّها الرهبان؛ وغير منفصل عن إخوانه الناس ولا عن أيّ مخلوق من المخلوقات المنبثقة من الكلمة.

وما أنتم سوى مقاطع في كلمة الله ذات المقطع الواحد. فلا حياة لكم إلّا منها.

إنّما الكلمة كالبحر وأنتم كالسحاب. أتكون السحابة سحابةً إلّا بما احتوته من البحر؟ فما أحمقها تنفق حياتها سدًى وهي تحاول أنّ تسمّر ذاتها في الجَلَد لتحتفظ بشكلها وذاتها إلى الأبد! وماذا عساها تجني من محاولتها الرعناء غير خيبة الأمل ومرارة الانحدار؟ وهي لو فكّرت يومًا لأدركت أنّها ما لم تخسر نفسها لن تجدها. فما لم تمت وتضمحلّ كسحابة لن تجد في ذاتها ذلك البحر الذي لا ذات لها إلّا منه.

وإنّما الإنسان سحابة تحمل الله. فما لم يُفرغ الإنسان ذاته لن يجد ذاته. فيا لفرح الفارغين من أنفسهم!

ما لم تضيّعوا ذواتكم في الكلمة لن تفهموا الكلمة التي هي أنتم، لن تفهموا قولكم «أنا». فيا لفرح الضائعين!

وها أنا أقول لكم ثانية: صلّوا ليكون لكم الفهم. فحالما يدخل الفهم القدّوس قلوبكم لا يبقى في فضاء الله الذي لا يُحَدّ ولا مخلوق لا يهتزّ بكم طربًا كلّما قلتم «أنا».

وعندئذٍ يصبح الموت نفسه سلاحًا في أيديكم تقهرون به الموت. وعندئذٍ تمنحكم الحياة مفتاح قلبها الفسيح، مفتاح المحبّة الذهبيّ.

ميكايّون: أيأتي ذلك الزمان يا مرداد؟

مرداد: الزمان لا يأتي ولا يروح يا ميكايّون. فهو ليس هنا ولا هناك. الغد لا يشرق على العائشين في الأمس. والأمس ميت للذين يرقبون مجيء الغد.

عندما يصبح في مستطاعك يا ميكايّون أن تقول «أنا» وتعني بها نروندا كذلك حينئذٍ تكون قد اقتربت جدًّا من محجّتك.

شمادم: ما حلمت قطّ أنّ مثل هذا القَدر من الحكمة يمكن عصره من خرقة تنظيف القِصَع ومن المكنسة (مشيرًا إلى رتبة مرداد كخادم).

مرداد: كلّ ما في الكون يفيض حكمةً للحكيم. أمّا الجاهل فيجعل الحكمة جهلًا.

شمادم: أنت ذو لسان ذرب ولا شكّ. ومن العجب أنّك لجمته حتّى الآن. لكنّ كلماتك ثقيلة على السمع.

مرداد: كلّماتي خفيفة يا شمادم. لكنّما الثقل في أذنيك. والويل لمن يسمعون فلا يسمعون. والويل لمن يبصرون فلا يبصرون.

شمادم: إنّي لأسمع وأبصر كلّ ما يُسمع ويُبصَر. لكنّني لا أريد أن أسمع صفاقةً تجعل مرداد مماثلًا لشمادم، أي تجعل السيّد والخادم سِيّين.

الفصل السادس

في الخادم والمخدوم. الرفاق يدلون بآرائهم في مرداد.

مرداد: ليس مرداد الخادم الأوحد لشمادم: أتستطيع يا شمادم أن تحصي خدّامك؟ أفي الكون نسر أم عقاب؛ أم أرزة أم سنديانة؛ أم طود أم كوكب؛ أم بحر أم محيط؛ أم ملاك أم مَلِك لا يخدمون شمادم؟ أليس العالم بأسره في خدمة شمادم؟

لا، وليس مرداد السيّد الأوحد لشمادم. أتستطيع يا شمادم أن تعدّ أسيادك؟

أهناك جُعَل أم قملة؛ أهناك بومة أم غراب؛ أهناك شوكة أم حسكة؛ أهناك حصباء أم صدَفة؛ أهناك بركة أم قطرة ندى؛ أهناك لصّ أم شحّاذ إلّا يخدمهم شمادم؛ أليس شمادم في خدمة كلّ ما في الكون؟

فالكون إذ يعمل عمله إنّما يتمّم عملك أيضًا. وأنت إذ تعمل عملك إّنما تتمّم عمل الكون كذلك.

أجل. إنّ الرأس لسيّد البطن. لكنّما البطن ليس بأقلّ سيادة على الرأس.

ليس في إمكان شيء أن يَخدُمَ من غير أن يُخدَم بخدمته. ولا أن يُخدمَ من غير أن يَخدِم ما يخدمه.

أقول لك يا شمادم وللكلّ، إنّ الخادم هو سيّد السيّد. وإنّ السيّد هو خادم الخادم. فليحذر الخادم من أن يطأطىء رأسه. وليحذر السيّد من أن يرفعه عاليًا. بل على السيّد أن يسحق ما فيه من كبرياء السيادة المميتة. وعلى الخادم أن يقتلع ما فيه من جذور الانسحاق الشائن.

اذكروا أنّ الكلمة واحدة. وأنّكم، كمقاطع في الكلمة، لستم في الواقع غير واحد. إذ ليس من مقطع أنبل من مقطع أو أكثر أهميّة منه. فما المقاطع بكثرتها إلّا مقطع واحد هو الكلمة. وأنتم لا بدّ لكم من أن تُصبحوا كلمات من مقطع واحد إذا ما شئتم أن تتذوّقوا النشوة التي تفوق كلّ نشوة. نشوة محبّة الذات التي هي محبّة لكلّ الناس ولكلّ شيء.

إنّ من كانت كلمته مقطعًا واحدًا تمكّن حقًّا من أن يكونّ سيّدًا. لأنّه سيِّد نفسه. ومن كان كذلك تنافست الأرض والسماء في قضاء رغباته. إلّا أنّ من كانت تلك سيادته لا يبصر ذاته يومًا سيّدًا.

وها أنا الآن أكلّمك يا شمادم لا مثلما يكلّم السيّد خادمة أو الخادمُ سيّده. بل مثلما يكلّم الأخ أخاه. فعلامَ اضطرابك من كلماتي؟

انكُرْني إذا شئت. أمّا أنا فلن أنكرك البتّة. أمَا قلت منذ هنيهة إنّ اللحم الذي على عظامي ليس غير اللحم الذي على عظامك؟ فكيف لي أن أطعنك من غير أن أدمي نفسي؟ لذلك أقول لك: اغمد لسانك إذا ما شئت أن تحقن دمك. وافتح لي قلبك إذا ما شئت أن توصده ضدّ الآلام بأنواعها.

خير للإنسان لو كان بغير لسان من أن يكون ذا لسان كلّ كلمة من كلماته أحبولة أو مسلّة. وكلمات الناس ستبقى أحابيل لهم ومسلّات إلى أن يُطهِّر الفهم ألسنتهم ويجعل من كلماتهم المتعدّدة المقاطع كلمةً ذات مقطع لا غير.

فتّشوا قلوبكم، أيّها الرهبان، واهدموا كلّ ما فيها من سدود وفواصل. وانزعوا القمط التي لا تزال «أناكُم» مقمّطة بها كيما تبصروها مقطعًا واحدًا مماثلًا لكلمة الله ومسالمًا لكلّ ما ينبثق منها من الكائنات.

هكذا علّمت نوحًا.

وهكذا أعلّمكم.

نروندا: وانقطع مرداد عن الكلام ثمّ انسحب إلى مخدعه تاركًا الرفاق في حيرة لا توصف. وبعد فترة من السكوت المرهق أخذ الرفاق يتفرّقون إلى مخادعهم وكلّ منهم يعطي خلاصة رأيه في مرداد.

شمادم: إنّه لمتسوّل يحلم بتاج الملك.

ميكايّون: هو التاسع المنتظر. ألم يقل: هكذا علّمت نوحًا؟

أبيمار: بَكْرَةٌ من الخيوط المعقّدة.

ميكاستر: كوكب من جَلَد غير جَلَدنا.

بنّون: إنّ فكره لجبّار، لكنّه ضائع في المتناقضات.

زَمُورا: قيثارة عجيبة مُدَوزَنَة بمفتاح لا علم لنا به.

هِمْبال: كلمة تائهة تفتّش عن أُذُنٍ صديقة.

الفصل السابع

ميكايّون ونروندا يتسلّلان ليلًا إلى مخدع مرداد ويستفسرانه عن نفسه. مرداد يلمّح لهما عن الطوفان المقبل ويدعوهما إلى اتّخاذ الأهبة لمجابهته.

نروندا: نحو الساعة الثانية من الهزيع الثالث من ذلك الليل سمعتُ بابي يُفتح، وإذا بميكايّون يخاطبني همسًا:

«هل أنت مستيقظ يا نروندا؟».

«إنّ النوم ما زار مخدعي في هذه الليلة يا ميكايّون.»

«ولا عشّش في أجفاني. وهو، أتظنّه نائمًا؟»

«أتعني المعلّم؟»

«أتدعوه معلّمًا منذ الآن؟ لعلّه كذلك. أمّا أنا فقد فقدت راحتي ولن أستعيدها حتّى أعرف من هو. فهيّا بنا إليه في هذه الدقيقة»

وانطلقنا نجسّ الأرض بأقدامنا جسًّا حتّى بلغنا مخدع مرداد. فألفينا الباب مفتوحًا. وإذ ولجناه ما أبصرنا غير فراش حقير ممدود بلباقة في وسط الغرفة وما من نائم عليه غير قبضة من أشعة القمر تسلّلت إليه من طاقة في أعلى الحائط. وكان جليًّا أنّ ذلك الفراش لم يأوِ إليه أحد في تلك الليلة. فوقعنا في أكبر حيرة من أمرنا. وشعرنا بخجل وخيبة عظيمين، وأوشكنا أن نرجع أدراجنا عندما طرق آذاننا بغتةً صوته اللطيف ورأينا طلعته البهيّة في الباب.

مرداد: لا تضطربا، واجلسا في سلام. ها هو الليل يذوب سراعًا في أجران الفجر. فما أحلاها ساعة للذوبان؟

ميكايّون: (مضطربًا متلعثمًا) اغفر لنا هذه القحة. فنحن ما عرفنا النوم كلّ هذا الليل.

مرداد: ما النوم إلّا جرعة ضئيلة، وضئيلة جدًّا، من نسيان النفس. وخيرٌ لكما أن تغرقا في الذهول عن النفس وأنتما في اليقظة، من أن تَحْسواه حسوًا بأقماع من النوم. ماذا عساكما تبتغيان من مرداد؟

ميكايّون: جئناك لنعرف مَن أنت.

مرداد: أنا مع الناس إله. ومع الله إنسان. هل عرفت الآن مَنْ أنا يا ميكايّون؟

ميكايّون: إنّ في كلامك لتجديفًا على الله.

مرداد: قد يكون تجديفًا على إله ميكايّون. أمّا على إله مرداد فلا.

ميكايّون: ألعلّ الله كثرة، وعدد الآلهة كعدد الناس، حتّى تتكلّم عن إله لميكايّون وإله لمرداد؟

مرداد: ليس الله كثرة يا ميكايّون، إنّما الله واحد. لكنّ ظلال الناس ما تزال كثرة متفاوتة الأشكال والأنواع. فما دام الإنسان يطرح ظلًا على الأرض دام إلهه موازيًا لظلّه. من كان نورًا صافيًا كان بغير ظلّ. ذلك وحده يعرف الإله الأوحد، لأنّ الله نور. وليس يعرف النور إلّا النور.

ميكايّون: لا تكلّمنا بالأحاجي. ففهمنا ما يزال ضعيفًا جدًّا.

مرداد: كلّ ما في الكون أحجية للإنسان الذي يجرّ خلفه ظلًا. لأنّ ذلك الإنسان يسير في ضوء مستعار. ولذلك يتعثّر بظلّه. أمّا الإنسان الملتهب بنار الفهم فلا ظلّ له على الإطلاق.

عمّا قريب سيجمع مرداد ظلالكم ويحرقها في الشمس. وعندها ينبلج عليكم نور الحقّ فتبدو لكم كلّ الأحاجي حقائق ساطعة لا تحتاج إلى برهان.

ميكايّون: ألا كشفت لنا عن نفسك وأخبرتنا من أنت؟ فلعلّنا، إذا ما عرفناك باسمك الحقيقيّ، وعرفنا ابن من أنت ومن أيّ البلاد، تمكّنّا من أن نفهمك من غير أن نلاقي ما نلاقيه الآن من العناء في فهمك.

مرداد: آه، ميكايّون، ميكايّون! إنّه لأيسر لك أن تزجّ نسرًا في قشرة البيضة التي نقف منها من أن تكبّل مرداد بسلاسل الناس وتحجبه بحجبهم. فأيّ اسم عساه يستطيع أن يدلّ على إنسان لم يبقَ بعدُ «في القشرة»؟ وأيّ بلد عساه أن يسع الإنسان الذي يسع مسكونةً؟ وأيّ نسب لإنسان لا ينتسب إلّا إلى الله؟

إذا ما شئت يا ميكايّون أن تعرفني حقّ المعرفة فاعرف أوّلًا ميكايّون.

ميكايّون: لعلّك شبح من الأساطير في شكل إنسان.

مرداد: أجل. سيأتي يوم يقول فيه الناس إنّ مرداد ما كان غير أسطورة من الأساطير. لكنّكم ستعرفون قريبًا أنّ هذه الأسطورة لأصدق من كلّ حقيقة محسوسة عرفها الناس.

إنّ العالم لا يفكّر اليوم بمرداد. أمّا مرداد فيفكّر أبدًا بالعالم. وقريبًا سينصرف العالم بأفكاره إلى مرداد.

ميكايّون: ألعلّك تاسع الرفاق الذي اندسّ خلسةً في الفلك؟

مرداد: إنّي لأندسّ في كلّ فُلك تناضل ضدّ طغيان الأوهام. وإنّي لأنجد كلّ ربّان يستنجدني فآخذ الدفّة من يده. ولكَم سمعت قلوبكم تصرخ إليّ عن غير معرفة منكم. فها أنذا! لقد جاءكم مرداد ليقودكم إلى السلامة كيما يكون لكم أن تقودوا العالم إلى السلامة من أعظم طوفان شهدت به ذاكرة الأرض.

ميكايّون: أطوفان آخر؟

مرداد: لا ليجرف الأرض بالمياه، بل ليكشف عن السماء في الأرض. ولا ليمحو آثار الإنسان، بل ليظهر الله في الإنسان.

ميكايّون: ولكنّنا شهدنا قوس قزح في السماء منذ أيام قليلة. فكيف تكلّمنا عن طوفان آخر؟

مرداد: إنّ الطوفان الذي أحدّثكم عنه، والذي بدت طلائعه على الأرض، لأشدُّ هولًا بما لا يقاس من طوفان نوح.

فأرضٌ مغمورةٌ بالمياه لأرض حبلى ببشائر الربيع. ولكنّ أرضًا تُقلى بدمائها الفائرة لأرض رُدَّ كيدها إلى نحرها.

ميكايّون: أننتظر النهاية إذن؟ فكُتُبُنا وتقاليدنا تعلّمنا أنّ مجيء التاسع يكون نذيرًا بالنهاية.

مرداد: لا تجزعوا على الأرض من الاندثار. فهي ما تزال في ميعة الشباب، وضرعها ما يزال فيّاضًا. وهي ستُرضع بعدُ أجيالًا أكثر مما بإمكانكم عدّه. لا ولا تجزعوا على الإنسان من الفناء. فهو سيّد الأرض ولن يفنى.

أجل. لن يمّحي الإنسان. فهو ينبوع لا ينضب. وهو سيدخل المصهر إنسانًا ليخرج منه إلهًا.

كونوا على حذر واستعدّوا. وافرضوا الصوم على أعينكم وآذانكم وألسنتكم كيما تعرف قلوبُكُم ذلك الجوع المقدّس الذي إذا ما أشبعتموه يومًا بقيتم شباعًا إلى الأبد.

عليكم أن تكونوا أبدًا شباعًا كيما يتاح لكم أن تُشبعوا الجياع.

وعليكم أن تكونوا أبدًا أقوياء كيما تسندوا الضعفاء والمتقلقلين.

وعليكم أن تتّخذوا العدّة الكاملة لمجابهة العاصفة كيما تكونوا ملجًأ للذين شتّتتهم العواصف.

وعليكم أن تكونوا أبدًا نيّرين كيما يستنير بكم السائرون في الظلام.

الضعيف عبء للضعيف. أمّا القوي فيحمل الضعيف كما يحمل الجبلُ الحصباءَ والبحرُ الساقيةَ. لذلك فتّشوا عن الضعفاء. فمِنْ ضعفهم قوّتكم.

والمعوز لا يزيد المعوز إلّا إعوازًا. أمّا للملآن خيرًا فليس المعوز غير منفذٍ جميل لما فاض من خيره. لذلك فتّشوا عن المعوزين. فمن ضنَكِهم رخاؤكم.

والأعمى حجر عثرة للأعمى. أمّا للمبصر فهو المَعْلَم. لذلك فتّشوا عن العميان. فمن ظلمتهم نوركم.

نروندا: عندها نفخ زمورا بالبوق يدعو الرفاق إلى صلاة الفجر فقال مرداد:

مرداد: ها هو بوق زمورا يعلن نهارًا جديدًا، بل عجيبة جديدة. ونصيبها منكم لن يكون خيرًا من نصيب أسلافها. فأنتم ستقتلونها بالتثاؤب ما بين نهوضكم وجلوسكم، وبين حشوِ أمعائكم وتفريغها، وإرهاق ألسنتكم بالكلام البطّال، وعملكم أعمالًا كثيرة كان خيرًا ألّا تُعمل، وإهمالكم أخرى كان من الواجب أن تُعمل.

ميكايّون: أتنهانا إذن عن الذهاب إلى الصلاة؟

مرداد: بل اذهبوا! صلّوا كما عُلّمتم أن تصلّوا. صلّوا كيفما كان ومن أجل أيّ شيء كان. اذهبوا! واعملوا كلّ ما أُمرتم أن تعملوه ريثما تصبحون معلّمين لأنفسكم وأسيادًا لها. وريثما تتعلّمون أن تجعلوا من كلّ كلمة صلاة ومن كلّ عمل ذبيحة. اذهبوا بسلام. فعلى مرداد أن يهتمّ الآن بفطوركم كيما يكون طيّبًا ووافرًا.

الفصل الثامن

السبعة يجتمعون بمرداد في وكر النسور
حيث ينهاهم عن التستّر بالظلام.

نروندا: في ذلك الصباح تخلّفتُ وميكايّون عن الصلاة. فما خفي ذلك عن شمادم. ولا خفي عنه أمر زيارتنا في الليل لمرداد. فامتعض أشدّ الامتعاض، إلّا أنّه ستر امتعاضه عن الجميع إلى أن يُتاح له ظرف آخر.

أمّا بقيّة الرفاق فما أخفوا دهشتهم لصنيعنا ولا رغبتهم في الوقوف على الأسباب التي حملتنا عليه. فظنّ البعض أنّ المعلّم هو الذي نهانا عن الصلاة. وتحزّر البعض عمّن عساه أن يكون، قائلين إنّه دعانا إليه في سكينة الليل ليعلن نفسه لنا وحدنا. وما منهم من صدّق أنّ مرداد هو التاسع المنتظر. إلّا أنّ كلّ واحد منهم كان يشتهي أن يراه وأن يسأله عن أمور كثيرة.

وكان من عادة المعلّم، عندما يفرغ من قضاء واجباته في الفلك، أن يمضي ساعاته في الكهف الذي على شفير الهاوية والذي كان معروفًا فيما بيننا باسم «وكر النسور». فطلبناه هناك بعد ظهيرة ذلك اليوم، كلّنا ما خلا شمادم، ووجدناه غارقًا في بحر من التأمّل. وكان وجهه مشرقًا بنور سماويّ فازداد إشراقًا عندما رفع عينيه إلينا وخاطبنا قائلًا:

مرداد: سرعان ما اهتديتم إلى وكركم! إنّ مرداد لَفَرح من أجلكم.

أبيمار: إنّما الفلك وكرنا. فكيف تقول إنّ هذا الكهفَ هو وكرنا؟

مرداد: لقد كانت الفلك وكر نسور فيما مضى.

أبيمار: واليوم؟

مرداد: أمّا اليوم فهي، ويا للأسف، نفق للمناجذ.

أبيمار: لثمانية من المناجذ تاسعها مرداد!

مرداد: ما أسهل أن يسخر الإنسان بما لا يفهم وما أصعب أن يفهم! لكنّما السخرية ما سخرت يومًا بغير السّاخر. فَعَلامَ تروّض لسانك بالباطل يا أبيمار؟

أبيمار: إنّما تسخر أنت بنا عندما تدعونا مناجذ. فماذا رأيت منّا لتنعتنا بمثل هذا النعْت؟ أليس أنّنا حفظنا نار نوح من الانطفاء؟ أليس أنّنا جعلنا من هذه الفلك – وما كانت في سالف الحقب غير مغارة تأوي إليها حفنة من الشحّاذين – أليس أنّنا جعلنا منها قصرًا أغنى من أيّ قصر لأيّ ملك؟ ألم نطوّل المسافات ما بين حدودها فإذا بها مملكة مهابة الجانب مترامية الأطراف؟ إن نكن مناجذ ففضلنا، في الأقلّ، أنّنا نجيد الحفر.

مرداد: أجل. إنّ نار نوح لتشتعل حتّى اليوم. ولكن على المذبح لا غير. فما نفعكم منها ما لم تكونوا المذبح وقلوبكم الزيت والوقود؟

أجل. إنّ الفلك لمثقلة اليوم بكثير الفضة والذهب. ولكنّها تئنّ من ثقلها وتصطفق أمعاؤها فتوشك أن تغرق. بينا الفلك الأمّ ما كانت مثقلة إلّا بالحياة، ولا كانت تحمل أثقالًا لا خير في حملها. ولذلك عجزت اللجّة عن أن تنالها بأذى.

احذروا الأثقال التي لا خير في حملها يا رفاقي. ولا خير في أيّ ثقل للإنسان الذي يؤمن إيمانًا وطيدًا بألوهيّته. لأنّه يحمل العالم كلّه في ذاته من غير أن يحمل أثقاله.

أقول لكم إنّكم ما لم تطرحوا بذهبكم وفضّتكم في البحر، جرّاكم معهما إلى القاع. لأنّ الإنسان مملوك ما يملك. فإن شئتم ألّا تكونوا مملوكين فأعتقوا ما في قبضتكم لتنعتقوا من قبضته.

لا تقيموا ثمنًا لشيء. فأحقر الأشياء أثمن من أن يثمّن. وها أنتم تجعلون للرغيف من الخبز ثمنًا فما بالكم لا تجعلون ثمنًا للشمس والهواء والبحر والتراب، ولعرق الإنسان وفطنته التي لولاها لما كان الرغيف؟

لا تقيموا ثمنًا لشيء لئلّا تقيموا بذلك ثمنًا لحياتكم. وحياة الإنسان ليست بأغلى لديه من الأشياء التي يعتبرها غالية. فاحذروا من أن تجعلوا حياتكم رخيصة كالذهب.

ولقد بعّدتم المسافات ما بين حدود الفلك. ولو أنّكم جعلتم حدود الأرض حدودكم لبقيتم، مع ذلك، في عزلة السجون. أمّا مرداد فيريدكم أن تمنطقوا اللانهاية.

إنّما البحر قطرة من الماء تحضنها الأرض. ولكنّها قطرة تمنطق الأرض. وأين البحر من الإنسان، ذلك المحيط الذي لا شواطىء له؟ فلا تكونوا أغبياء إلى حدّ أن تقيسوه من رأسه إلى أخمصيه وتقولوا إنّكم قد وجدتم حدوده.

قد يكون أنّكم تجيدون الحفر، كما قال أبيمار. ولكن كما تجيده المناجذ التي لا تنفكّ تدأب في الظلام. فهي كلّما تعدّدت أنفاقها وتشعّبت مسالكها ابتعدت بوجوهها عن الشمس.

إنّي لأعرف أنفاقكم يا أبيمار. فما أنتم، على حدّ قولك، إلّا حفنة من الرجال المنقطعين، في الظاهر، عن كلّ ملذّات العالم وتجاربه، والمكرَّسين لله. لكنّ الشعاب التي تصلكم بالعالم لَشِعاب ملتوية، مظلمة. وما أكثرها! أتظن أنّي لا أسمع فحيح شهواتكم في ثوراتها؟ أم تظنّ أنّي لا أُبصر أجسادكم تدبّ وتتلوّى حتّى على مذبح الإله الذي تعبدون؟

قد لا تكونون إلّا حفنة. ولكن يا لها من حفنة حوت جيوشًا جرّارة!

لو كنتم تجيدون الحفر حقًّا، لثقبتم إلى الآن طريقًا لكم ليس من خلال الأرض فحسب، بل من خلال الشمس وكلّ كوكب من الكواكب الهائمة في الفضاء.

دعوا المناجذ تحفر أنفاقها في الظلام بالمخالب والقواضم. أمّا أنتم فلا تحتاجون حتّى إلى رفّة جفن لتجدوا طريقكم الملكيّة. فما عليكم، وأنتم جلوس في هذا الوكر، إلّا أن ترسلوا الخيال أمامكم. فهو دليلكم الربّانيّ إلى الكنوز العجيبة المخبوءة في الكيان اللامتناهي الذي هو ملكوتكم. ألا اتبعوا دليلكم بقلوب صامدة لا تعرف الوجل. وحيثما عثرتم على آثار قدميه، وإن في أقاصي الأفلاك، فلتكن برهانًا قاطعًا لكم بأنّ جذوركم ممتدّة هنالك. لأنّكم يتعذّر عليكم أن تتخيّلوا ما ليس فيكم أو ليس بعضًا منكم.

لا تستطيع الشجرة أن تمتدّ بأغصانها أبعد من مدى جذورها. أمّا الإنسان فيمتدّ إلى اللانهاية لأنّ جذوره في الأزليّة والأبديّة.

لا تقيموا لأنفسكم تخومًا. بل تمدّدوا إلى أن لا يبقى في الكون من أرجاء لستم فيها. تمدّدوا إلى أن يصبح العالم كلّه حيثما يتّفق لكم أن تكونوا. تمدّدوا إلى أن تلاقوا الله حيثما لاقيتم أنفسكم. تمدّدوا! تمدّدوا!

لا تعملوا في الظلام اعتقادًا منكم أنّ الظلمة ستار لا ينفذ البصر من خلاله. فأنتم إن لم تخجلوا من الناس الذين تسلبهم الظلمة أبصارهم فاخجلوا، في الأقّل، من الحباحب والخفّاش.

ليس من ظلمة خالصة يا رفاقي. بل هناك درجات من النور. فلكلّ صنف من المخلوقات درجة تفي بحاجاته، إن زادت عنها أعمته، أو نقصت أعمته كذلك. فرابعة النهار عندكم ليست غير فجر للفينقس. ونصف الليل عندكم كرابعة النهار للضفدع. فكيف للظلمة أن تكون غطاءً لشيء وهي ذاتها في حاجة إلى غطاء؟

احذروا من أن تُغطّوا شيئًا من الأشياء أو عملًا من الأعمال. لأنّه إن لم يَبُح أحدٌ بأسراركم باح بها غطاؤها. أليس أنّ غطاء القدر يعرف ما في القدر؟ فيا لويل القدور الملأى ديدانًا وأفاعي عندما تُرفع عنها الأغطية!

أقول لكم إنّ نَفَسًا لا يبرح صدوركم إلّا ويذيع للهواء كلّ خفيّة في صدوركم. وإنّ نظرة ما انطلقت من عيونكم إلّا حملت كلّ ما في عيونكم من شهوات ومخاوف، ومن عبرات وابتسامات.

وإنّ حلمًا ما طرق بابكم إلا طرق كلّ باب.

لذلك اهتمّوا لأنفاسكم بماذا تشحنونها، ولنظراتكم ماذا تحمّلونها، ولأبوابكم في وجه أيّ الأحلام توصدونها ولأيّها تفتحونها. أمّا إذا شئتم أن تحيوا بغير همّ ولا ألم، فمرداد يدلّكم على الطريق.

الفصل التاسع

طريق الخلاص من الألم. الرفاق يودّون أن يعرفوا ما إذا كان مرداد هو التاسع المنتظر.

ميكاستر: أرنا الطريق.

مرداد: هذا هو طريق الخلاص من الهمّ والألم:

فكّروا كما لو كانت أفكاركم منقوشة بأحرف من نار على صفيحة الجَلَد حيث تبصرها وتقرأها جميع الكائنات. وإنّها في الواقع لكذلك.

وتكلّموا كما لو كان العالم كلّه أُذنًا واحدة مصغية إلى ما تقولون. وإنّه في الواقع لكذلك.

واعملوا كما لو كان كلّ عمل من أعمالكم سيرتدّ بنتيجته إليكم. وإنّه في الواقع لكذلك.

وتمنّوا كما لو كنتم الأمنيّة التي تتمنّون. وإنّكم في الواقع لكذلك.

واحيوا كما لو كان ربّكم في حاجة إلى حياتكم ليحيا هو حياته. وإنّه في الواقع لكذلك.

هِمْبال: حتّى مَ تتستّر عنّا وتزيد في حيرتنا؟ فأنت تكلّمنا بما لم يكلّمنا بمثله رجل أو كتاب من قبلك.

بنّون: أعلن نفسك لنعرف بأيّة أذن يتوجّب علينا أن نسمعك. إن تكن التاسع المنتظر فأعطنا آية لنؤمن.

مرداد: أحسنت يا بنّون إذ قلتَ إنّ لكم آذانًا كثيرة. ولذلك لا تسمعون. فلو كنتم بأُذن واحدة تسمع وتعي ما تسمع، لما كنتم في حاجة إلى آية.

بنّون: إنّ التاسع المنتظر، حسبما تعلّمنا تقاليدنا، سيأتي ليدين العالم، ونحن، رفاق الفلك، سنجلس معه على منصّة الدينونة. أنبدأ منذ الآن بإعداد العدّة ليوم الدّين؟

الفصل العاشر

في الدينونة ويوم الدين.

مرداد: لا دينونة في فمي. بل في فمي فهم مقدّس. فأنا ما جئت لأدين العالم، بل بالأحرى لأرفع عنه الدينونة، إذ أنّ الجهل وحده فَخور بِجُبّة القضاء وَوَلوع بشرح القانون وإنزال العقوبات بالناس. والجهل يدين ذاته بذاته. وليس أقسى من الجهل ديّانًا للجهل.

ألا اعلموا أن ليس هنالك إله وإنسان. بل هنالك الإله/الإنسان والإنسان/الإله. هنالك الواحد الذي مهما تكرّر أو تجزّأ بقي أبدًا واحدًا.

واحد هو الله، ووحدته هي الناموس الأزليّ الأبديّ الذي لا ناموس إلّاه. وهو ناموس يتمّم ذاته بذاته فلا يحتاج إلى محاكم، ولا إلى قضاة، لإعلانه وللذود عن هيبته. فما المسكونة بكلّ ما فيها من منظور وغير منظور سوى فمٍ واحد يشهد به لكلّ من له آذان سامعة.

أليس البحر بكلّ ما فيه من مدى، قطرة واحدة؟ أليست الأرض، على اتّساعها، جرمًا واحدًا؟ أليست الأجرام كلّها، على كثرتها، مسكونة واحدة؟ كذلك ليست الإنسانيّة، رغم كثرة أفرادها، غير إنسان واحد، وكذلك ليس الإنسان بكلّ ما فيه من عوالم سوى وحدة كاملة.

إنّ وحدة الله يا رفاقي هي ناموس البقاء الأوحد. واسمها الآخر هو المحبّة. من عرف ذلك الناموس وعاش به عاش للحياة. ومن جهله وعاش بغيره، عاش لعدم الوجود أو الموت.

الحياة جمع، والموت تفرقة. والحياة ربط، والموت حلّ. لذلك كان الإنسان المزدوج معلّقًا بين الاثنين. فهو لا يجمع حتّى يفرّق. ولا يربط إلا يَحلّ. وهو بما يجمعه ويربطه يعيش ضمن الناموس. فتكون الحياة ثوابه، وهو بما يفرّقه ويحلّه يعيش مخالفًا للناموس. فيكون الموت جزاءَه الأمَرّ.

وها أنتم، وقد حكمتم على أنفسكم بالموت، لا تتورّعون من أن تجلسوا على منصّة القضاء لتدينوا الذين قد حكموا على أنفسهم بالموت نظيركم. فيا لفظاعة الحكم والحكّام!

إنّه لأقلّ فظاعةً لاثنين معلّقين على مشنقة واحدة أن يحاكم كلّ منهما رفيقه فيحكم عليه بالشّنق. أو لثورين تحت نير واحد أن يقول واحدهما للآخر: إنّي أحكم عليك بالنير. أو لجيفتين في قبر واحد أن تحكم كلّ منهما على جارتها بالقبر. أو لأعميين سائرين في طريق واحدة أن يفقأ كلّ منهما عينيّ رفيقه.

اجتنبوا التربّع في دسوت الحكم يا رفاقي. لأنّكم إذا ما شئتم أن تعدلوا في أيّ حكم على أيّ إنسان أو شيء كان لزامًا عليكم لا أن تعرفوا الناموس وتعيشوا بمقتضاه فحسب، بل أن تفتّشوا عن البيّنة وتمحّصوها. فمن أو ماذا عساكم أن تطلبوا للشهادة في قضيّة مطروحة بين أيديكم؟

ألعلّكم ترسلون مذكّرة جلب إلى الهواء؟ والهواء شريك في كلّ ما يجري تحت قبّة السماء. فإن لم تسمعوا شهادته كان حكمكم باطلًا. أم لعلّكم تنزلون الكواكب من فضائها وتسوقونها إلى المحكمة؟ وللكواكب يدٌ في كلّ ما يحدث في العالم. أم ترسلون قواكم المسلّحة لجلب الموتى من آدم حتّى اليوم؟ فلكل ميت صلة وثيقة بكلّ حيّ.

ليست الشهادة شهادة وافية صادقة ما لم تكن مستقاة من كلّ مصادرها. ومصدر كلّ شهادة هو الكون بأسره. إذن فادعوه إلى محكمتكم كيما تعدلوا في أحكامكم. لكنّكم يوم يصبح في أمكانكم أن تجلبوا الكون كلّه للشهادة، تنزلون عن منصّة الحكم من تلقاء أنفسكم لتجلسوا عليها الشاهد.

إنّكم يومَ تعرفون كلّ ما يعرفه الكون، تعدلون عن إصدار حكمكم على أيّ شيء في الكون. ويوم يصبح في إمكانكم أن تجمعوا العوالم، تحجمون من تلقاء أنفسكم عن أن تدينوا حتّى الذين دأبهم التفرقة. وبدلًا من أن تدينوا الذين قد قضوا على أنفسهم بالموت، تسعون جهدكم لإنقاذهم من الدينونة.

أما ترون الإنسان يرزح تحت الأعباء التي خلقها لنفسه؟ أما ترون طريقه ما أشقّه وما أكثر تعاريجه؟ فاعلموا أنّ كلّ حكم يصدره إنسان على إنسان هو عبءٌ جديد للحاكم وللمحكوم عليه بالسواء. فإن شئتم أن تخفّفوا من أعبائكم، احذروا من أن تدينوا أحدًا. أو شئتم أن تتلاشى أثقالكم فتلاشوا أنتم كذلك في الكلمة. ليكن الفهم قائدًا لخطاكم إذا ما شئتم أن يكون طريقكم سهلًا ومستقيمًا.

ما جئتكم بالدينونة في فمي بل جئتكم بالفهم المقدّس.

بنّون: وماذا تقول في يوم الدين؟

مرداد: كلّ يوم يا بنّون هو يوم دين. فلكلّ كائن حسابه. وهو يحاسب ذاته في كلّ لحظة من وجوده. والذي هو فيه الآن هو صافي حسابه منذ الأزل حتّى الآن. فلا يضيع منه شيء. ولا يبقى شيء بغير وزن.

ليس من فكر، أو عمل، أو أمنية إلا يسجّلها المفكّر والعامل والمتمنّي في ذاته. ولا من فكر أو عمل أو أمنية عاقرٍ في العالم. بل كلّها يحبل ويلد من جنسه. فما كان منها مجاريًا للناموس ضَمّه الناموس إلى الحياة. وما كان مُغايرًا ضُمّ إلى الموت.

إنّ أيّامك يا بنّون، وإن تشابهت، ليست سواء. فبعضها صافٍ وصفاؤه هو حصاد الساعات التي عشتها وفقًا للناموس.

وبعضها يكتنفه الضباب والسحاب. فهو هديّة ساعاتٍ نصفها غافل في الموت ونصفها مستيقظ في الحياة. بَيْدَ أنّ البعض الآخر يُغِير عليك على صهوة عاصفة هوجاء، حاملًا البرق في عينيه، والصاعقة في منخريه. فيصفعك من فوق، ويلفحك بالسوط من أسفل، ويرشق بك ذات اليمين وذات اليسار، ثمّ يطرحك على الحضيض ويجعلك تعضّ التراب وتشتهي لو لم تولد. وهذا البعض من أيّامك هو ثمرة الساعات التي أنفقتها في معاندة الناموس عن معرفة وتصميم.

ومَثَلك بأيّامك مثل العالم بأيّامه. فالخيالات السود المارحة اليوم في رحاب السماء ليست بأقلّ هولًا من تلك التي جلبت الطوفان على الأرض فيما مضى. ألا افتحوا أعينكم وانظروا.

ألستم تقولون إنّ المطر قريب عندما تبصرون الغيوم السود مسرعة نحو الشمال على متون رياح الجنوب؟ فيا ليتكم كنتم حكماء في فهم مجاري الرياح البشريّة مثلما أنتم في فهم رياح الفَلَك! ألعلّكم لا تبصرون ولا تشعرون إلى أيّ حدّ قد تعرقل الناس في شباكهم؟

أمّا يوم التخلّص من العراقيل فقد دنا. ويا لهوله من يوم! فالناس ما فتئوا يحوكون شباكهم منذ أجيال لا تكاد تحصى. وهم يحوكونها من شرايين القلب والنفس. فلا بدّ لهم للخلاص منها من أن يقطّعوا نياط قلوبهم، ويسحقوا عظامهم بأيديهم.

يومَ تُرفَع الأغطية عن القدور – ولا بُدّ من أن تُرفَع؛ ويومَ تعطي القدور ما فيها – ولا بدّ من أن تعطيه، يومذاك أين يخبّئ الناس رجاستهم، وأنّى عساهم يهربون؟

في ذلك اليوم يحسد الأحياءُ الأمواتَ، ويلعن الأمواتُ الأحياءَ. ويلتصقُ كلام الناس بحناجرهم، ويتجمّد النور على أجفانهم. وتخرج من قلوبهم ثعابين وعقارب فيصرخون من ذعرهم: «من أين هذه العقارب والثعابين؟»، ناسين أنّهم آووها وربّوها في قلوبهم.

ألا افتحوا أعينكم وأبصروا. ففي الفلك التي أقامها الصدّيقون في سالف الأزمان منارةً للعالم المتخبّط في الظلمة، في هذه الفلك عينها أوصال يتعذّر عليكم اليوم قطعها. إن تكن المنارة قد أصبحت شركًا، فما عسى أن تكون حال المسافرين في البحر؟

لكنّ مرداد سيبني لكم فلكًا جديدة. وهذه الفلك ستكون بحقّ، منارةً من يفتّش عن حرّية الناموس السرمديّ الذي هو ناموس الله. وأنتم ستطيرون من هذا الوكر إلى العالم حاملين إليه لا أغصان زيتون، بل حياةً لا تنضب. ولذلك كان لا بدّ لكم من معرفة الناموس والسير بمقتضاه.

زَمورا: وكيف لنا أن نعرف ناموس الله ونسير به؟

الفصل الحادي عشر

المحبّة هي ناموس الله. مرداد يرنّم نشيد الفلك الجديد.

مرداد: المحبّة ناموس الله.

فأنتم ما حييتم إلّا لتعرفوا المحبّة. وأنتم ما أحببتم إلّا لتعرفوا الحياة. تلك هي الأمثولة التي عليكم أن تحفظوها، والتي إذا ما حفظتموها كنتم في غنى عن كلّ أمثولة سواها.

وهل المحبّة إلّا أن يندمج المحبّ بمحبوبه فيصبح الاثنان واحدًا؟

ومَن أو ماذا عساه ينبغي لكم أن تحبّوا؟ أيكفيكم محبّةً أنّ تختاروا ورقةً واحدة على شجرة الحياة ثمّ أن تهرقوا عليها كلّ ما في قلوبكم من دماء؟ إذن كيف بالغصن الذي يحمل تلك الورقة؟ وكيف بالجذع الذي يحمل ذلك الغصن؟ أم كيف بالقشرة التي يتدرّع بها ذلك الجذع؟ أم بالجذور التي تغذّي القشرة والجذوع والأغصان والأوراق؟ أم بالتربة التي تحتضن الجذور؟ بل كيف بالشمس والبحر والهواء التي تلقّح التربة بلقاح الحياة؟

إن تكن وريقَةٌ واحدة على الشجرة جديرةً بمحبّتكم فأحرِ بالشجرة كلّها أن تكون جديرة بها.

إنّ محبّةً تنحصر في جزء من الكلّ لمحبّة تحكم على ذاتها بالعذاب المؤبّد.

تقولون: «ولكنّما الأوراق على الشجرة الواحدة تختلف بعضها عن بعض أعظم الاختلاف. فهنالك الورقة الصحيحة والورقة المريضة. وهنالك الجميلة والقبيحة. وهنالك الورقة العملاقة والورقة القزمة. فكيف لنا إلّا نختار ونفضّل؟».

أقول لكم إنّ نضارة الصحيح ليست إلّا من شحوب المريض. وأقول لكم إنّ الشناعة ليست غير مرود الجمال ولوحة أدهانه والفرشة التي يدهن بها ألوانه. وإنّ القزم ما كان قزمًا لو لم يُقرض العملاقَ من قامته.

أنتم شجرة الحياة. فاحذروا من أن تجزّئوا أنفسكم. احذروا من أن تقيموا ثمرة ضدّ ثمرة، أو ورقة ضدّ ورقة، أو غصنًا ضدّ غصن، أو أن تقيموا الجذع ضدّ الجذور أو الشجرة ضدّ التربة الأمّ. وذلك ما تفعلونه بالتمام عندما تحبّون البعض أكثر من البعض الآخر، أو تحبّون البعض وتهملون ما بقي.

أنتم شجرة الحياة جذوركم في كلّ زمان ومكان. وأغصانكم وأوراقكم في كلّ زمان ومكان. وثماركم في كلّ فم. ومهما تكن ثمار تلك الشجرة؛ مهما تكن أغصانها وأوراقها؛ مهما تكن جذورها فهي ثماركم، وهي أوراقكم وأغصانكم، وهي جذوركم. فإن شئتم أن تحمل شجرتكم ثمارًا شهيّة وعطرة؛ أو شئتم أن تبقى أبدًا قويّة ونضرة، فاصرفوا همّكم أوّلًا وآخرًا إلى العصير الذي به تغذّون جذورها.

المحبّة عصير الحياة. والبغضاء صديد الموت. لكنّما المحبّة لا تعيش ما لم تجرِ عصارتها في العروق طليقة من كلّ قيد. فما أشبهها من هذا القبيل بالدم. فأنتم حيثما حقنتم مجرى من مجاري الدم حوّلتموه إلى خطر أكيد ووباء قتّال. وهل البغضاء غير المحبّة محقونة أو مردودة عن مجراها تحوّلت إلى سمّ زعاف للمبغِض والمُبغَض بالسواء؟

إنّ ورقة صفراء على شجرة حياتكم ما كانت لتصفرّ لو لم تفطموها عن ثدي محبّتكم. فلا تلوموا الورقة الصفراء.

وإنّ غصنًا ذاويًا ما كان ليذوي لو لم تحبسوا عنه غذاء المحبّة. فلا تلوموا الغصن الذاوي.

وإنّ ثمرة عفنة ما كانت لتتعفّن لو لم ترضعوها من صديد بغضائكم. فلا تلوموا الثمرة العفنة. بل الأحرى بكم أن تلوموا قلوبكم العمياء والشحيحة التي تؤثر أن توزّع عصير الحياة بالتقتير على القليل وتحجبه عن الكثير غير عالمة أنّها تحجبه بذلك عن نفسها.

ما من محبّة مستطاعة إلّا محبّة الذات. وما من ذات حقّة إلا ذات الله، التي هي الوجود بكامله. لذلك كان الله محبّة صافيةً لأنّه يحبّ ذاته.

ما دام لكم في المحبّة عذاب دمتم بعيدين عن ذاتكم الحقّة وعن مفتاح المحبّة الذهبيّ. فأنتم ما آلمتكم المحبّة إلّا لأنّكم تحبّون ذاتًا موهومة تتغيّر وتتنقّل كالظلّ. فمحبّتكم موهومة وهي كذلك تتغيّر وتتنقّل كالظلّ.

إنّ محبّة الرجل للمرأة والمرأة للرجل ليست بمحبّة. إن هي إلا رمز بعيد إليها. كذلك ليست محبّة الوالدين للولد إلّا العتبة لهيكل المحبّة الأقدس. فإلى أن يصبح كلّ رجل حبيب كلّ امرأة والعكس بالعكس، وإلى أن يصبح كلّ ولدٍ ولدًا لكلّ والد والعكس بالعكس، دعوا الرجال والنساء يتبجّحون بانجذاب اللحم إلى اللحم والتصاق العظم بالعظم، من غير أن يتلفّظوا باسم المحبّة

القدّوس. لأنّ في ذلك تجديفًا وكفرًا. من كان له عدوّ واحد كان بلا صديق واحد. إذ كيف للقلب الذي تسكنه العداوة أن يكون ميناءً أمينًا للصداقة؟

كيف لمن في قلبه بغضاء أن يعرف نشوة المحبّة؟ فلو كان لكم أن تغذّوا جميع المخلوقات بعصير المحبّة ما خلا دويدة واحدة حقيرة لكان لكم في تلك الدويدة وحدها ما ينغّص عليكم حياتكم على قدر كرهكم لتلك الدويدة. لأنّكم ما أحببتم إنسانًا أو شيئًا إلّا أحببتم فيه ذواتكم. ولا كرهتم إنسانًا أو شيئًا إلا كرهتم فيه ذواتكم. كلّ ما تحبّون مرتبط بكلّ ما تكرهون ارتباطًا أوثق من ارتباط صدوركم بظهوركم. فلو صدقتم مع أنفسكم لكان عليكم أن تحبّوا ما تكرهون وما يكرهكم قبل أن تحبّوا ما تحبّون ويحبّكم.

ليست المحبّة بفضيلة. إنّها لضرورة أشدّ من ضرورة الخبز والماء والنور والهواء. فحذار أن يفخر أحد بمحبّته. بل عليكم أن تتنفّسوا المحبّة غير مفكّرين بها، وبمثل السهولة التي تتنفّسون بها الهواء. إذ ليست المحبّة في حاجة إلى من يشيد بها ويرفعها. فهي ترفع القلب الذي تجده أهلًا لها. لا تطلبوا ثوابًا للمحبّة. ففي المحبّة ثواب المحبّة. مثلما في البغض عقاب للبغض.

ولا تطلبوا حسابًا من المحبّة، فالمحبّة لا تحاسب غير ذاتها. وهي لا تُدين ولا تستدين. ولا تشتري ولا تبيع. لكنّها إذا ما أعطت، فكلّ ما لها. وإذا ما أخذت، فكلّ ما لها. فأخذها إعطاء، وإعطاؤها أخذ. لذلك لا تزيد ولا تنقص بل تبقى كاملة اليوم وغدًا وإلى آخر الدهر.

ومثلما يُفرغ النهر العظيم ذاته في البحر فيعود البحر ويملأه هكذا أفرغوا أنفسكم في بحر المحبّة كيما تظلوا مترعين بالمحبّة. إنّ حوضًا يستأثر بِهِبَةِ البحر يغدو حوضًا آسنًا.

ليس في المحبّة من «أكثر» ولا من «أقلّ». فساعة يخطر ببالكم أن تزِنوا المحبّة أو تقيسوها تتسلّل من قلوبكم تاركة وراءها ذكريات مُرّةً لا غير.

لا، وليس في المحبّة «الآن» و«عندئذٍ» ولا «هنا» أو «هناك». فكلّ الفصول فصول للمحبّة وكلّ الأماكن مساكن لائقة بها.

لا تعرف المحبّة تخومًا وحواجز. فالمحبّة التي تقف حائرة أمَام أيّ تخم أو حواجز ليست جديرة بعد باسم المحبّة.

لكَم سمعتكم تقولون إنّ المحبّة عمياء. وأنتم تعنون أنّها لا ترى عيبًا في المحبوب. إنّ عمى كذلك العمى لهو أسمى درجات البصر. ألا ليتكم عميانًا إلى حدّ أن لا تبصروا عيبًا في شيء!!

كلّا. ليست المحبّة بالعمياء. بل إنّ لها عينًا تخترق كلّ الحُجُب. ولذلك لا تبصر من عيوب على الإطلاق. وأنتم عندما تطهّر المحبّة أبصاركم لن تستطيعوا أن تروا شيئًا غير جدير بمحبّتكم. إنّما تبصر العيبَ عينٌ محرومة من المحبّة وملأى بالعيوب. وما العيوب التي تبصرها غير عيوبها.

المحبّة تجمع. والبغض يفرّق. إنّ هذه الكمّيّة الهائلة من الصخر والتراب المعروفة بقمّة المذبح لو لم تكن ممسوكة معًا بيد المحبّة لتطايرت شظايا في الفضاء. حتّى أجسادكم، على وهنها، ما كانت لتتفكّك لو كان لكم أن تحبّوا كلّ خليّة من خلاياها محبّة متوازية، قويّة، خالصة.

المحبّة سلام نشوان بألحان الحياة. والبغضاء حرب صاخبة بصرخات الموت. فأيّ الاثنين تختارون: أأن تحبّوا فتكونوا في سلام دائم؟ أم أن تبغضوا فتكونوا في حرب أبديّة؟

إنّما الأرض كلّها تحيا فيكم. إنّما السموات وكلّ أجنادها حيّة فيكم. فأحبّوا الأرض وكلّ الراضعين من ثديها إن أنتم شئتم أن تحبّوا أنفسكم. وأحبّوا السموات وكلّ أجنادها إن أنتم شئتم أن تكون لكم حياة.

علام تبغض نروندا يا أبيمار؟

نروندا: ذهل الكلّ لهذا التغيّر الفجائيّ في صوت المعلّم ومجرى أفكاره. وصعقت أنا وأبيمار لسؤاله عن نفور بيننا كان كلانا يحرص أشدّ الحرص في كتمه عن الآخرين ولم يكن ما يحملنا على الاعتقاد أنّ أحدًا من الرّفاق تنسّم عنه أقلّ خبر.

فاتّجهت كلّ الأبصار إلينا ولبث الجميع يرقبون شفتي أبيمار ليسمعوا بماذا عساه يجيب.

أبيمار: (ملتفتًا إليّ التفاتة كلّها تأنيب) ألعلّك يا نروندا أخبرت المعلّم؟

نروندا: عندما قال أبيمار «المعلّم» كاد قلبي يذوب فرحًا في داخلي. لأنّ هذه الكلمة كانت محور الخلاف بيني وبينه قبل أن يعلن مرداد نفسه. إذ قلت إنّ مرداد معلّم جاء ليهدي العالم. بينا أبيمار ما كان ليرى فيه غير رجل عاديّ.

مرداد: لا تنظر شزرًا إلى نروندا يا أبيمار. فهو براء من لومك.

أبيمار: إذن من أطلعك على ما بيننا؟ ألعلّك تقرأ ما في أفكار النّاس كذلك؟

مرداد: ليس مرداد في حاجة إلى من يترجم له أفكار الناس أو من يتجسّس أخبارهم. فلو أنّك تحبّ مرداد بمثل محبّته لك لكان في مكنتك لا أن تقرأ أفكاره فحسب بل أن تبصر ما في قلبه كذلك.

أبيمار: ألا أصفح يا معلّم لرجل أعمى وأطرش. وافتح عينيّ وأُذنيّ، لأنّي أشتاق أن أبصر وأسمع.

مرداد: ليس من صانع عجائب إلّا المحبّة. إن شئت أن تبصر فلتكن المحبّة في إنسان عينك. أو شئت أن تسمع فلتكن المحبّة في طبلة أذنك.

أبيمار: لكنّني لا أكره أحدًا. حتّى ولا نروندا.

مرداد: عدم الكره ليس محبّة يا أبيمار. فالمحبّة قوة إيجابية فعّالة. وما لم تكن قائدة لخطاك ضللتَ طريقك. وما لم تملأ كلّ رغبة من رغباتك وكلّ خاطرة من خواطرك كانت رغباتك قتادًا

في أحلامك، وكانت خواطرك مراثي لأيّامك.

ها قلبي الآن قيثار ونفسي توّاقة إلى الإنشاد. أين قيثارك يا زمورا؟

زمورا: أأذهب وآتي بها يا معلّم؟

مرداد: اذهب يا زمورا.

نروندا: وللحال انطلق زمورا في طلب القيثار. بينا الآخرون يتبادلون نظرات الدهشة والحيرة ولا يجسر أحدهم أن يحرك شفة.

وعندما عاد زمورا بالقيثار تناولها المعلّم بلطف من يده ثم انحنى فوقها برقّة فائقة، ومن بعد أن دوزن أوتارها بكلّ دقّة راح يداعبها بأنامله وينشد:

مرداد:

ربّانُكِ اللهُ، سيري، فُلكَ مردادِ!
سيري، وإن ثار قلبُ الدهرِ بالحُمَمِ
فصارت الأرض بحرًا من لظًى ودمِ
ومسّت القبّةَ الزرقا يدُ العَدَمِ
فالكون أنقاضُ آزال وآبادِ..
ربّانكِ الله، سيري، فُلكَ مردادِ!

الحبّ صاريكِ، طوفي، فُلكَ مردادِ!
طوفي بلا وجلٍ، فالموجُ مطواعُ
لحامل الحبّ، والأرياح مذياعُ
وزوّدي بكنوزِ الحُبّ مَنّ جاعوا
إلى فتائتَ لا تغني عن الزادِ..
الحبّ صاريكِ، طوفي، فُلكَ مردادِ!

مرساتك الحقّ، قِرّي، فلكَ مرداد!
إنّ الزعازع مزمار وألحانُ
لمن مراسيه أشواقٌ وإيمانٌ
وإنّ هدهدة الأنسام بركانُ
لمن مراسيه من شكّ وإلحادِ..
مرساتك الحقّ، قِرّي، فلكَ مرداد!

نروندا: ووقف المعلّم عن الترنيم ثمّ انحنى على القيثار كما تنحني أمّ أسكرتها المحبّة على رضيع لاصق بصدرها. وارتاحت الأوتار من الارتعاش إلّا أنّ القيثار ما فتئت تردّد «ربّانكِ الله، سيري، فلك مردادِ». وتلاصقت شفتا المعلّم في صمت عميق، إلّا أنّ نبرات صوته ما برحت تتجاوب بين جدران وكر النّسور ثم تتدفّق من هناك موجة تلو موجة إلى القمم الجرداء من حولنا، وإلى التلال والأودية تحتنا، وإلى البحر القلق البعيد، وإلى القبّة الزرقاء من فوق.

لقد كان في ذلك الصوت شآبيب من الشهب وأقواس قزح، وأعاصير هاصرة ترافقها نسيمات عليلات وأغاريد بلابل ثملى بالألحان. وكان فيه بحار زاخرة مجلببة بضباب شفّاف ينضح ندى. وكأنّ الخليقة بأسرها كانت تصغي إليه شاكرة جذلة.

وقد تراءى لي كما لو أنّ سلسلة جبال الآس واللُّبان، وقمّة المذبح في وسطها، قد انفصلت بغتة عن الأرض وراحت تمخر عباب الفضاء واثقة من سبيلها، رائعة في جلالها، مطمئنّة في جبروتها.

لثلاثة أيّام تلت ذلك ما كلّم المعلّم أحدًا بكلمة.

الفصل الثاني عشر

في السّكينة المولّدة. أصدق الكلام كذب بريء.

نروندا: عند نهاية الأيّام الثلاثة اجتمع السبعة عن غير اتّفاق سابق فيما بينهم وكأنّ قدرة لا تعانَد كانت تسوقهم إلى وكر النسور فما دروا إلّا وهم وقوف في الباب. فاستقبلهم المعلّم بلطفه المعتاد وكأنّه كان يتوقّع قدومهم.

مرداد: ها أنا أؤهّل ثانية بعودتكم إلى وكركم يا فراخي. ليعلن كلّ منكم ما يبدو له وما يشتهيه من مرداد.

ميكايّون: لا فكر عندنا ولا رغبة لنا إلّا أن نكون قريبين من مرداد كيما نحسّ ونسمع حقيقته لعلّنا ننعتق من ظلالنا مثله. إلّا أنّ سكوته هذه الأيّام الثلاثة يروعنا جميعًا. ألعلّنا أسأنا إليه بشيء؟

مرداد: ما سكتُّ هذه الأيام الثلاثة لأقصيكم عنّي بل لأقرّبكم منّي. أمّا أن تكونوا قد أسأتم إليّ بشيء فمن عرف طمأنينة الصمت التي يعرفها مرداد عرف أنّها أمنع من أن تسيء أو أن يُساء إليها.

ميكايّون: ألعلّ الصّمت أفضل من الكلام؟

مرداد: خير الكلام كذب بريء. وشرّ الصمت صدق عريان.

أبيمار: أنستنتج من هذا أنّ كلام مرداد كذلك كذب بريء؟

مرداد: أجل، حتّى كلام مرداد كذب لكلّ من كانت «أناهُ» غير «أنا» مرداد. وأنتم ما لم يكن كلامكم مقطوعًا من مقلع واحد، ورغباتكم مستقاة من بئر واحدة، كان كلامكم، وإن صدقتم، كذبًا بريئًا.

أمّا عندما تصبح «أناكُم» و«أناي» واحدة مثلما «أناي» و«أنا» الله واحدة، عندئذٍ نستغني عن الكلام ونتفاهم بالصّمت الصّادق.

ولأنّ «أناكُم» ما تزال غير «أناي» فأنا مكره أن أشنّ عليكم حربًا وأقهركم بسلاحكم كيما أقودكم في النهاية إلى مقلعي وإلى بئري.

وعندها يصبح في مستطاعكم أن تُغيروا على العالم فتقهروه وتخضعوه نظير ما سأقهركم وأخضعكم. وعندها تصبحون أهلًا لأن تقودوا العالم إلى صمت الضمير الأسمى. إلى مقلع الكلمة وبئر روح الفهم القدّوس.

إلى أن يقهركم مرداد لن تكونوا من المناعة حيث تتمكّنون من أن تقهروا العالم. ولن يغسل العالم عنه عار الانكسار الدّائم إلّا من بعد أن تكسروه.

فشدّوا أحقاءكم للمعركة. اصقلوا تروسكم ودروعكم، واشحذوا سيوفكم ورماحكم. دعوا الصّمت يقرع الطبل ويحمل العَلَم كذلك.

بنّون: أيّ الصمت هذا الذي عليه أن يكون الطبّال وحاملَ العلَم في وقت واحد؟

مرداد: إنّ الصمت الذي أودّ أن أدخلكم إليه هو تلك الفسحة غير المحدودة حيث يتحوّل اللاوجود إلى وجود، والوجود إلى لا وجود. هو ذلك الفراغ الرهيب حيث يولد كلّ صوت ثمّ يخفت، وكلّ شكل ثمّ يُسحق، وكلّ كلمة ثمّ تمحى. حيث لا شيء إلّاه.

وأنتم ما لم تجتازوا تلك الفسحة وذاك الفراغ في التأمّل الصامت استحال أن تعرفوا حقيقة وجودكم ووهم عدم وجودكم. أو أن تعرفوا إلى أيّ حدٍّ ترتبط حقيقة وجودكم بحقيقة كلّ الوجود.

ذاك هو الصمت الذي أودّكم أن تجوبوا أرجاءه كيما تنزعوا عنكم في النهاية جلدكم القديم الضيّق وتنطلقوا في رحابٍ لا حدودَ فيها ولا قيود.

إلى هناك أريدكم أن تسوقوا همومكم ومخاوفكم، وشهواتكم ورغباتكم، وأحقادكم وأحسادكم كيما تبصروها تتلاشى الواحدة تلو الواحدة. وهكذا تستريح آذانكم من صراخكم الذي لا يهدأ، وتأمن ضلوعكم وخز مهاميزها التي لا تُطاق.

هناك أريدكم أن تطرحوا بقسيّ هذا العالم وسهامه التي ترجون أن تقتنصوا بها الراحة والفرح لأنفسكم والتي لا ينالكم منها في الواقع غير الحزن والقلق.

هناك أريدكم أن تتسلّلوا من سجون أصداف الذات المحصورة وظلماتها، إلى نور الذات الحقَّة وفضائها المشرق الفسيح.

ذلك هو الصمت الذي أوصيكم به، وهو غير الراحة المؤقّتة من الكلام للسان أعياه الكلام.

بصمت الأرض المثمر أوصيكم لا بصمت المجرم والمكّار.

بالصمت الصبور المؤمن أوصيكم، صمت الدجاجة تحضن البيض، لا بقوقأة رفيقتها إذ تضع بيضة. فالأولى تقف صامتة على البيض واحدًا وعشرين يومًا واثقة من أنّ اليد السحريّة ستجترح

عجيبة تحت صدرها الناعم وجناحيها الدافئين. بينا تنبري الثانية من قنّها كالمجنونة معلنة بأعلى صوتها للملإ أنّها قد وضعت بيضة.

إياكم والفضيلة القوقاءة يا رفاقي. فنظير ما تخجلون بخزيكم فتلجمونه، هكذا الجموا شرفكم كذلك. لأنّ حسنةً تعلن ذاتها لأسوأ من سيئة صامتة. وفضيلة صخّابة لأقبح من رذيلة خرساء.

احترسوا من كثرة الكلام. فمن ألف كلمة ينطقها الناس قد تكون واحدة لا أكثر جديرة بأن تُنطَق. أمّا ما بقي فضباب في الفكر، ووقر في الأذن، وتعب للّسان، وعمى للقلب.

ما أصعب النطق بالكلمة الجديرة حقًّا بأن تُنطَق!

ومن ألف كلمة يكتبها الناس قد تكون واحدة لا أكثر حَريَّة بأن تكتب. أمّا ما بقي فمداد مهدور وقرطاس متلف، ودقائق مثقلة بالرصاص بدلًا من أن تكون محمولة على أجنحة من نور.

ما أصعب كتابة الكلمة الجديرة حقًّا بأن تُكتَب!

بنّون: ماذا تقول إذن في الصلاة يا معلّم؟

ففي الصلاة يُفرض علينا أن نفوه بكلمات كثيرة وأن نطلب أشياء كثيرة. ويندر، مع ذلك، أن ننال ولو بعض ما نطلب.

الفصل الثالث عشر

في الصلاة.

مرداد: عبثًا تصلّون ما دمتم تتوجّهون بصلواتكم إلى آلهة غير أنفسكم.

ففيكم القوّة الجاذبة. وفيكم القوّة الدافعة. مثلما فيكم كلّ ما تبتغون جذبه إليكم. وكلّ ما تبتغون دفعه عنكم. فما كانت لكم القدرة على اقتبال شيء إلّا كانت لكم القدرة على منحه.

حيثما الجوع هنالك الغذاء. وحيثما الغذاء هنالك الجوع حتمًا. فالمقدرة على تحمّل آلام الجوع كفيلة بوجود نعمة التّمتّع ببركات الشبع.

أجل، إنّ في الحاجة ذاتها لمؤونة للحاجة. أليس المفتاح وثيقة بوجود القفل؟ ومن ثمّ أليس القفل والمفتاح وثيقة بوجود الباب؟

لا تسرعوا إلى الحدّاد وتضايقوه بشكاويكم كلّما أضعتم مفتاحًا أو نسيتم أين وضعتموه. فالحدّاد قد أتمّ عمله، وأتمّه على أدقّ صورة وأكمل وجه. فلا يجمل بكم أن تسألوه أن يعمل عمله ثانية وثالثة. اعملوا أنتم عملكم ودعوا الحدّاد وشأنه. فهو، وقد قام بما عليه نحوكم، يهتمّ بشغل غير شغلكم. نظّفوا ذاكرتكم ممّا تلبّد فيها من الأقذار والرّوائح الكرهة تجدوا بلا شكّ المفتاح الذي أضعتموه.

عندما نطق بكم الله الذي لا يُنطق به، عندئذٍ نطق بذاته كاملة، صافية. فكنتم أنتم كذلك من الجلال والقدرة حيث لا يُنطق بكم.

إنّ الله ما أودعكم بعضًا من ذاته. فهو لا يتجزّأ. بل أودعكم ألوهته بكاملها، غير مجزّأة وغير منقادة إلى وصف أو تحديد. فأيّ ميراث عساكم تبتغون أعظم من ذلك الميراث؟ ومن أو ماذا في استطاعته أن يصدّكم عن التمتّع بميراثكم إلّا جبنكم وعماكم؟

لكنّ بعض الناس – ويا لهم من جاحدي الجميل – بدلًا من أن يفتّشوا عن ميراثهم والطريق المؤدّية إليه، يؤثرون أن يجعلوا من الله شبه بؤرة يحملون إليها أوجاع أضراسهم وبطونهم، وخساراتهم في متاجرهم، وخصوماتهم مع الناس، وثؤورهم، ولياليهم الساهدة في أسرّة الأرق.

بينا لا يأنف البعض الآخر من أن يجعل من الله خزانة خاصّة يأمل أن يتناول منها ساعة يشاء من زخارف العالم وزركشاته.

وهناك قومٌ لا يتورّعون عن استخدام الله ماسكًا لدفاترهم الخاصّة. فهم يتوقّعون منه لا أن يضبط ما لهم وما عليهم فحسب، بل أن يكون جابيًا لديونهم، وأن يكفل لهم رصيدًا كبيرًا عند تصفية الحساب.

أجل، كثيرة ومتنوّعة هي الواجبات التي يلقيها الناس على عاتق الله. وقليل منهم من فكّر يومًا أنّه لو كانت واجبات الله كثيرة حقًّا لكان الله قادرًا أن يقوم بها وحده ومن تلقاء ذاته، من غير أن يحثّه عليها أحد أو يذكّره بها إنسان.

أتذكّرون الله بالشمس متى يُطلعها وبالقمر متى يغيبه؟ أم تذكّرونه بحبّة القمح متى ينهض بها إلى الحياة في هذا الحقل أو ذاك؟ أم تذكّرونه بهاته العنكبوت تنسج ملجأها العجيب؟ أم بالفراخ في عشّ تلك القبّرة المرفرفة هنالك؟ أم بأيٍّ منّا الأشياء المالئة المسكونة والتي لا يحصيها عدد؟

إذن ما بالكم تلحّون على ذاكرته بكلّ ما عندكم من أغراض طفيفة وشهوات تافهة؟ ألعلّكم أقلّ حظوة في عينيه من العناكب والعصافير وحبّات القمح؟ فعلامَ لا تقتبلون مثلها ما أعطي لكم وتنصرفون كلّ إلى عمله من غير ضجّة، ولا حني ركب، ولا مدّ أذرع، ومن غير أن تلوصوا بلهفة من خلال ستائر الغد؟

وأين هو الله حتّى تصرخوا في أذنه مختلف أهوائكم وأباطيلكم، وتسابيحكم وشكاويكم؟ أليس الله فيكم وحواليكم؟ أليست أذنه أقرب إلى فمكم من لسانكم إلى حلقكم؟

يكفي الله ألوهته التي أنتم نواة منها.

إذا كان من واجب الله، وقد أعطاكم نواة ألوهته، أن يتعهّد النواة بدلًا منكم فأيّ الفضل فضلكم؟ وما هو العمل الذي أُعطيتم الحياة من أجله؟ وإذا كان على الله أن يعمل عملكم فما معنى حياتكم إذن وما قيمتها؟ بل ما نفعكم من كلّ ما تُصلّون؟

لا تحملوا إلى الله مشاكلكم ومتاعبكم التي لا تُعدّ. ولا تتضرّعوا إليه أن يفتح لكم الأبواب من بعد أن أعطاكم مفاتيحها. ولكن فتّشوا رحاب قلوبكم. ففي رحاب القلب مفتاح لكلّ باب. وفي رحاب القلب كلّ ما أنتم جياع وعطاش إليه، إن من خير وإن من شرّ.

إنّ تحت إمرتكم لجيشًا جرّارًا مغوارًا ومرهونًا بتنفيذ أقلّ أمر يصدر منكم. وهذا الجيش إذا ما اكتملت عدّته، وتمّ تدريبه بحنكة وحكمة، ثمّ أوتي قيادة لا تعرف الوجل، كان في مستطاعه أن

يقتحم الآباد وأن يجرف كلّ عقبة في سبيله إلى غايته. لكنّه إذا ما كان فقير العدّة، ناقص التدريب، وكانت قيادته في يد يشلّها الخوف والتردّد، راح يدور على ذاته أو ينهزم لدى أقلّ صدمة أو عقبة جارًّا خلفه ذيول الانحدار الأسود.

أمّا ذَلِكُم الجيش الجرّار، أيّها الرهبان، فما هو إلّا تلكم القطرات الحمر التي تجري الآن صامتة في عروقكم، وكلّ واحدة منها معجزة من القوّة، وسجلّ كامل صادق لحياتكم حتّى أدقّ أوصافها وحوادثها.

في القلب يجتمع هذا الجيش، ومن القلب تدرج فصائله، لذلك كان للقلب مقامه المرموق وشهرته الواسعة. فمنه تنفجر دموعكم وأفراحكم. وإليه تنساب مخاوفكم من الموت والحياة.

أمّا عدّة ذلك الجيش فأهواؤكم ورغباتكم. وأمّا المدرّب ففكركم. وأمّا القائد فإرادتكم.

فإذا ما وُفِّقتم إلى تجهيز جيشكم برغبة تسلطن على كلّ رغباتكم، وإلى تدريبه بفكر يسيطر على كلّ أفكاركم، وإلى قيادته بإرادة تهيمن على كلّ إرادة لكم، كان وصولكم إلى ما ترغبون، أكيدًا وسريعًا.

كيف يبلغ رجل صالح صلاحه إلّا بتطهيره مجاري دمه من كلّ شهوة وفكرة تناقضان الصلاح، ومن ثمّ بتوجيه دمه بإرادة صلبة إلى غاية لا تقبل الشرك، غاية الوصول إلى الصلاح؟

أقول لكم إنّ كلّ رغبة صالحة، وكلّ فكرة صالحة، وكلّ إرادة صالحة من آدم حتّى اليوم، تهرع لتساعد الإنسان المنكبّ على الوصول إلى الصلاح. فمنذ تأسيس العالم والمياه، أينما كانت، تفتّش عن البحر، وأشعّة النور تسعى للالتحاق بالشمس.

أم كيف يفلح قاتل بتنفيذ جريمته إلا بتوليده عطشًا جنونيًّا في دمه إلى القتل، ثمّ بِجَلْدِه كريات دمه وتنظيمها في صفوف متراصّة، بسوط فكرةٍ سلطن عليها القتل، ثم بحمله تلك الصفوف بإرادة لا تنثني على توجيه الطعنة القاضية؟

أقول لكم إنّ كلّ قاتل من قايين حتّى اليوم يهرول من تلقاء نفسه ليعضد ساعد الرجل السكران بشهوة القتل. فمنذ كان العالم والغربان تأنس بالغربان، والضباع بالضباع.

فالصلاة، إذن، هي تسليطكم على الدّم شهوة رئيسيّة واحدة، وفكرة رئيسيّة واحدة، وإرادة رئيسيّة واحدة. هي أن تدوزنوا النفس لتأتلف أتمّ الائتلاف مع ما تُصلّون من أجله.

واعلموا أنّ جوّ هذه السيّارة التي أنتم عليها ينعكس بكلّ ما فيه على صفائح قلوبكم؛ وأنّه يموج بذكريات كلّ ما شهده منذ تكوينه. فما من كلمة أو عمل، ولا من رغبة أو تنهّدة، ولا من فكرة تائهة أو حلم عابر، ولا من نفَس إنسان أو حيوان؛ ما من ظلّ ولا من وهم إلّا تمخر كلّها عباب هذا الجوّ وستظلّ تمخره إلى آخر الدهر. فدوزنوا قلوبكم لأيّ منها تأتِكم سراعًا لتنقر على الأوتار.

إنّكم لفي غنًى عن شفة أو لسان للصّلاة. ولكنّكم في حاجة إلى قلب صامت مستيقظ، وإلى رغبة متسلطنة، وفكرة متسلطنة، والأهمّ من ذلك كلّه إلى إرادة متسلطنة لا تعرف الشكّ ولا التردّد. فلا نفع لكم من الكلام ما لم يكن القلب مستيقظًا وحاضرًا في كلّ مقطع من كلّ كلمة. ومتى استيقظ القلب وحضر كان من الأفضل للّسان أن ينام أو أن يختبئ وراء شفاه مختومة.

لا، ولستم في حاجة إلى هياكل تصلّون فيها. فمن لم يجد هيكلًا في قلبه لن يجد قلبه في أيّ هيكل.

لكنّي أقول هذا لكم ولمن كان مثلكم. ولا أقوله لكلّ الناس. إذ أنّ أكثر الناس ما يزالون قاصرين. فلا يستطيعون أن يصلّوا إلّا بالكلام، ولا يجدون كلامًا للصلاة إلّا ما يضعه الغير في أفواههم. وهم إذا ما حاولوا أن يجوبوا في رحاب قلوبهم تاهوا واستولى عليهم الرعب. أمّا بين جدران المعابد أو بين قطعان من جنسهم، فيسرّى عنهم ويستأنسون. دعوهم يشيدون معابدهم. دعوهم يرنّمون صلواتهم.

لكنّني أدعوكم وأدعو كلّ إنسان إلى الصلاة من أجل الفهم. فمن جاع لغير ذلك لم يشبع إلى الأبد.

اذكروا أنّ مفتاح الحياة هو الكلمة المبدعة. وأنّ مفتاح الكلمة المبدعة هو المحبّة. وأنّ مفتاح المحبّة هو الفهم. املأوا قلوبكم من هذه وأريحوا ألسنتكم من تعب الكلام الكثير، وانزعوا عن أفكاركم أعباء كثرة الصلوات، واعتقوا قلوبكم من العبوديّة لكلّ الأرباب الذين دأبهم استعبادكم بهبة؛ والذين يلاطفونكم بيد ليصفعوكم بالأخرى؛ والذين يسرّهم التسبيح والتمجيد ويغيظهم اللوم والتثريب؛ والذين لا يسمعونكم إلّا إذا ناديتموهم، ولا يعطونكم إلّا إذا استعطيتموهم، والذين بخورهم دموعكم وعزّهم هوانكم.

أجل، اعتقوا قلوبكم من كلّ هؤلاء الأرباب كيما تجدوا فيها الربّ الأوحد الذي إذا ملأكم مرّة بذاته، بقيتم ملآنين إلى الأبد.

بنّون: تارة تكلّمنا عن الإنسان كما لو كان قديرًا على كلّ شيء. وطورًا تصوره قاصرًا عاجزًا عن أقلّ شيء. وهكذا توقعنا في حيرة وتتركنا وكأنّنا في ضباب.

الفصل الرابع عشر

الحوار بين رئيسَي الملائكة والحوار بين رئيسَي الأبالسة عندما ولد الإنسان في الأزل.

مرداد: عندما وُلد الإنسان في الأزل كان رئيسا ملائكةٍ جالسَين على قطب المسكونة الأعلى فدار بينهما الحوار الآتي:

قال رئيس الملائكة الأوّل:

لقد وُلدَ للأرض مولود عجيب. فالأرض تتلألأ بالضياء.

فقال رئيس الملائكة الثاني:

لقد وُلد للسماء ملك مجيد. فالسماء تخفق بالحبور.

الأوّل: إنّه لثمرة القران ما بين السماء والأرض.

الثاني: إنّه القران الأبديّ. فهو الأب والأمّ والمولود في آنٍ معًا.

الأوّل: به تمجّدت الأرض.

الثاني: به تبرّرت السماء.

الأوّل: النهار يهجع في عينيه.

الثاني: الليل يقظان في فؤاده.

الأوّل: صدره وكر للعواصف.

الثاني: حنجرته سلّم ألحان.

الأوّل: ذراعاه تطوّقان الجبال.

الثاني: أصابعه تقطف الكواكب.

الأوّل: في عظامه تهدر البحار.

الثاني: في عروقه تجري الشّموس.

الأوّل: فمه مصهر ومسكب.

الثاني: لسانه مطرقة وسندان.

الأوّل: حول رجليه قيود الغد.

الثاني: في قلبه مفاتيح القيود.

الأوّل: لكنّه مهده التراب.

الثاني: ولكنّه مقمّط بالدهور.

الأوّل: هو كالله عالم بغوامض الأعداد. وهو كالله يفقه أسرار الكلم.

الثاني: إنّه ليعرف سائر الأعداد ما خلا العدد المقدّس الذي هو الأوّل والآخر. وإنه ليفقه أسرار الكَلِم ما خلا سرّ الكلمة المبدعة التي هي الأولى والأخيرة.

الأوّل: لكنّه سيعرف العدد وسيفقه الكلمة.

الثاني: لن يكون له ذلك حتّى يبري قدميه مشيًا في مجاهل المكان، وحتّى يفقد عينيه محملقًا في خواء قبّة الزمان.

الأوّل: عجيب، وعجيب جدًّا، هذا المولود الذي وضعته الأرض.

الثاني: مجيد، ومجيد جدًّا، هذا الملِك الذي وضعته السماء.

الأوّل: لقد سمّاه إنسانًا ذلك الذي لا اسم له.

الثاني: وهو قد سمّى الذي لا اسم له الله.

الأوّل: الإنسان كلمة الله.

الثاني: والله كلمة الإنسان.

الأوّل: المجد لمن كلمته الإنسان.

الثاني: المجد لمن كلمته الله.

الأوّل: الآن وإلى الأبد.

الثاني: ههنا وفي كلّ مكان.

هكذا تكلّم رئيسا الملائكة على قطب المسكونة الأعلى عندما وُلد الإنسان في الأزل.

وفي الوقت عينه كان رئيسَا أبالسة على قطب المسكونة الأسفل يتحاوران بما يلي:

قال رئيس الأبالسة الأوّل:

لقد انضمّ إلى صفوفنا فارس صنديد. وبعونه سنغلب.

فقالّ رئيس الأبالسة الثاني:

أحرِ بك أن تقول: جبان رعديد. فالخيانة معسكرة على جبينه.

لكنّ في جبنه أهوالًا.

الأوّل: عينه ضارية لا تعرف الخوف.

الثاني: أمّا قلبه فدامع، داجن. لكنّه رهيب بدموعه ودجونه.

الأوّل: فكره حادّ وملحاح.

الثاني: أمّا أذنه فكسولة وثقيلة. لكنّه خطِرٌ في كسله وتثاقله.

الأوّل: يده سريعة ومحكمة الحركة.

الثاني: أمّا قدمه فبليدة ومتردّدة. لكنّه هائل في بلادته ومخوف في تردّده.

الأوّل: سيكون خبزنا فولاذًا لعضلاته. وخمرنا نارًا لدمه.

الثاني: سيأكل خبزنا ثمّ يرجمنا بمعاجننا. وسيشرب خمرنا ثمّ يحطّم خوابينا على رؤوسنا.

الأوّل: إنّ في جوعه إلى خبزنا وعطشه إلى خمرنا لمركبة له لا تُرَدّ عند النزال.

الثاني: لكنّ جوعه الذي لن يشبع وعطشه الذي لن يرتوي سيجعلانه أمنع من أن يُقهر. وهو سيرفع راية العصيان في معسكرنا.

الأوّل: ولكنّ الموت سيكون قائدًا لمركبته.

الثاني: وهكذا يصبح من الخالدين.

الأوّل: ألعلّ الموت يقوده إلّا إلى الموت؟

الثاني: أجل، سيتبرّم الموت به وبدموعه وشكاويه الدائمة إلى حدّ أنّه سيدفع به في النهاية إلى معسكر الحياة.

الأوّل: أيخون الموتُ الموتَ؟

الثاني: كلّا، بل تكون الحياة أمينة للحياة.

الأوّل: سنغري حلقه بأندر الثمار وأشهاها.

الثاني: إلّا أنّه سيبقى يشتاق ثمارًا لا تنبت على قطبنا هذا.

الأوّل: وسنستهوي عينه بأجمل الأزهار، وأنفه بأزكى العطور.

الثاني: وستبقى عينه، مع ذلك، تفتّش عن أزهار غير أزهارنا، وأنفه عن عطور غير عطورنا.

الأوّل: وسنحاصر أذنيه بألحان شجيّة وبعيدة.

الثاني: وستبقى أذنه، مع ذلك، مصغية إلى أجواق غير جوقنا.

الأوّل: سنستعبده بالخوف.

الثاني: لكنّ الأمل سيحميه من الخوف.

الأوّل: سنخضعه بالألم.

الثاني: لكنّ الإيمان سيخلّصه من الألم.

الأوّل: سنملأ نومه بأحاجي الأحلام ونفرش يقظته بالأشباح المبهمة.

الثاني: لكنّ خياله سيحلّ الأحاجي ويبدّد الأشباح.

الأوّل: سنحسبه واحدًا منّا كيفما كان الأمر.

الثاني: احسبه منّا إذا شئت. ولكن احسبه ضدّنا كذلك.

الأوّل: أيكون معنا وعلينا في آنٍ واحد؟

الثاني: إنّه ليشنّ وحده حربًا شعواء ولا خصم له في الميدان غير ظلّه. فأنّى كان الظّل كانت المعركة. إن يكن ظلّه أمامه حارب معنا. أو يكن ظلّه خلفه حارب ضدّنا.

الأوّل: إذن لنجعلنّ ظهره أبدًا للشمس.

الثاني: ولكن أنّى لنا أنّ نجعل الشمس أبدًا لظهره؟

الأوّل: إنّ هذا الفارس لأحجية.

الثاني: إنّ ظلّ هذا الفارس لأحجية.

الأوّل: المجد للفارس الذي لا رفيق له.

الثاني: المجد للظلّ الذي لا رفيق له.

الأوّل: المجد له وهو معنا.

الثاني: المجد له وهو علينا.

الأوّل: الآن وإلى الأبد.

الثاني: ههنا وفي كلّ مكان.

هكذا تكلّم رئيسا الأبالسةِ على قطب المسكونة الأسفل عندما وُلد الإنسان في الأزل.

الفصل الخامس عشر

شمادم يحاول طرد مرداد من الفلك.
مرداد يحدّث عن الإهانة والرصانة
وعن استيعاب العالم في الفهم المقدّس.

نروندا: ما كاد المعلّم ينهي كلامه حتّى بانت في مدخل وكر النسور جثّة المتقدّم الضخمة فكادت تحجب عنّا النور والهواء. فتراءى لي في الحال أنّ الواقف بالباب لم يكن شمادم بل أحد رئيسي الأبالسة اللّذين تكلم عنهما المعلّم.

وكانت عين المتقدّم تقدح شرارًا ولحيته ترتجف عندما تقدّم من المعلّم وقبض على يده محاولًا، على ما ظهر لنا، أن يجرّه إلى خارج الوكر جرًّا.

شمادم: أما كفاك هذيانًا يا هذا؟ لقد سمعتُ الآن ما تقيأ به دماغك القذر من الأوساخ.

إنّ فمك لفوّارة من السمّ. وإنّ وجودك بيننا لشؤم ما بعده شؤم. فأنا بالسلطة المعطاة لي آمرك بالانصراف عنّا في هذه اللحظة.

نروندا: لكنّ المعلّم، وإن يكن نحيف البنية نسبةً إلى شمادم، ما تزحزح من مكانه فبدا كأنّه العملاق وبدا شمادم كأنّه الطّفل بين يديه. فما كان أروع الطمأنينة التي في عينيه عندما رفعهما إلى شمادم وقال:

مرداد: من كان له السلطان أن يأمر بالدخول كان له وحده السلطان أن يأمر بالخروج. ألعلّك أنت جئت بي إلى هنا يا شمادم؟

شمادم: إنّ ما رأيته من زريك وسوء حالك حنّن قلبي عليك فسمحت لك بالدخول.

مرداد: الأصدق يا شمادم أنّ محبّتي رقّت لزريك وسوء حالك. لذلك جئت وجاءت معي محبّتي. أمّا أنت فلا أنت بالآتي ولا أنت بالذّاهب. ولا أنت هاهنا ولا أنت هنالك. وليس إلّا ظلّك يتنقّل من مكان إلى مكان. وها أنا جئت لأجمع كلّ الظلال وأحرقها في الشمس.

شمادم: كنتُ المتقدّم في هذه الفُلك قبل أن بدأتَ تفسد الهواء بأنفاسك النجسة. فكيف للسانك القذر أن يقول إنّني لست هاهنا؟

مرداد: كنتُ قبل أن تكون هذه الجبال يا شمادم، وسأبقى من بعد أن تتحوّل هباءً منثورًا.

أنا الفلك والمذبح والنار. وأنت ما لم تجعلني مأوى لك بقيتَ فريسة للعواصف. وأنت ما لم تقدّم نفسك ذبيحة لي، لن تجد لك مهربًا من شفار قصّابي الموت الذين لا يحصيهم عدّ، وأنت ما لم تلتهمك ناري الحنون ستكون بلا شكّ وقيدًا لنار جهنّم.

شمادم: أسمعتم كلّكم؟ أوَما سمعتم؟ إليّ أيّها الرفاق. ولنطرح هذا المشعوذ المجدّف إلى الهاوية.

نروندا: وهجم شمادم ثانية على المعلّم وأخذه من يده محاولًا جرّه إلى خارج. لكنّ المعلّم ما رفّ بجفن ولا تزحزح من حيث كان. لا ولا تحرّك أحد من الرفاق من مكانه. وعقبت ذلك فترة من السكون الموجع لشمادم. وإذا برأسه ينحني إلى صدره؛ وإذا به ينسحب بانكسار شائن من وكر النسور متمتمًا: «أنا رئيس هذه الفلك. ولن أتخلّى عن السلطان المُعطى لي من الله».

أمّا المعلّم فغرق في تأمّل عميق وطويل وما فاه بكلمة. لكنّ سكوته أرهق زمورا فما عتّم أن قال:

زمورا: لقد أهان شمادم معلّمنا. فماذا يريدنا أن نفعل به؟ مُرْنا بما شئت يا معلّم ننفّذه في الحال.

مرداد: صلّوا من أجل شمادم يا رفاقي. ذاك ما آمركم أن تفعلوه به لا أكثر. صلّوا من أجله لكي تماط الحجب عن عينيه ويرتفع عنه ظلّه. ليس اجتذاب الخير بأصعب من اجتذاب الشرّ. ولا التدوزن للمحبّة بأصعب من التدوزن للبغضاء.

مِن أرجاء الفضاء التي لا تُحدّ ومن رحاب قلوبكم استنزلوا البركات على العالم. فكلّ ما كان بركة للعالم كان بركةً لكم كذلك.

صلّوا من أجل خير جميع المخلوقات. فكلّ ما كان خيرًا لأيّ المخلوقات كان خيرًا لكم كذلك. وكلّ ما كان شرًّا لأيّ المخلوقات كان شرًّا لكم كذلك.

ألستم كلُّكم درجات متحرّكة في سلّم الوجود اللامتناهي؟ فمن شاء أن يرقى إلى فضاء الحرّية المقدّسة كان لا بدّ له من أن يرقى على أكتاف غيره. وكان لا بدّ له من أن يجعل كتفيه مرقاة لغيره.

وما هو شمادم إن لم يكن درجة في سلّم وجودكم؟ ألستم تؤثرون لسلّمكم أن تكون قويّة وأمينة؟ إذن اهتموا بكلّ درجة من درجاتها كيما تكون قويّة وأمينة.

بل ما هو شمادم إن لم يكن حجرًا في أساس البنيان الذي هو وجودكم. وما أنتم إن لم تكونوا حجارة في بنيان حياته وحياة كلّ مخلوق؟ اهتمّوا إذن أن تجعلوا من شمادم حجرًا نقيًّا من كلّ عيب إن أنتم أردتم أن يكون بنيان حياتكم خاليًا من كلّ عيب. كونوا أنتم بلا عيب كيما تكون الأبنية التي يشيدها سواكم والتي أنتم حجارة فيها بلا عيب كذلك.

أيظن كلّ منكم أنّه مسلّح بعينين لا أكثر؟ أقول لكم إنّ كلّ عين مبصرة، إن على الأرض أو فوقها أو تحتها، ليست سوى وصلة لعينكم. فعلى قدر ما يكون بصر جاركم جليًّا يكون بصركم جليًّا. وعلى قدر ما يكون بصر جاركم مظلمًا يكون بصركم مظلمًا.

ما حُرم ضرير نور عينيه إلّا حُرمتم معه نورًا مساعدًا للنور في عيونكم. فاحرصوا على بصر جاركم كيما يكون بصركم أجلى وأقوى. ثمّ احرصوا على أبصاركم لئلّا يعثر جاركم ويَقَع على عتبتكم. فقد يسدّ عليكم حتّى بابكم.

يتوهّم زمورا أنّ شمادم قد أهانني. فكيف لجهل شمادم أن يعكّر فهم مرداد؟

إنّ جدولًا عكرًا ليستطيع أن يعكر جدولًا آخر. ولكن أنّى لجدول عكر أن يعكّر البحر؟ إنّ البحر ليقتبله ضاحكًا. فيأخذ أوحاله ويفرشها في قاعه ثم يعطيه ماءً زلالًا بدلًا منها.

قد تستطيعون أن تنجّسوا أو تعقّموا ذراعًا مربّعًا، بل ميلًا مربّعًا، من التراب. ولكن من ذا يستطيع أن ينجّس أو يعقّم الأرض، إنّ الأرض لتقتبل بفرح كلّ أوساخ الإنسان والحيوان وتعطيهما عوضًا عنها ثمارًا طيّبة، وأزهارًا عطرة، وأعشابًا نديّة، وحبوبًا محيية. وذلك بغير حساب.

من الأكيد أنّ السيف يستطيع أن يجرح الجسم. ولكن أيستطيع سيف أن يجرح الهواء مهما أرهف حدّه واشتدّ ساعد ضاربه؟

إنّها الكبرياء يا رفاقي، كبرياء الذات الحقيرة الضيّقة، المولودة من الجهل الأعمى وشهواته الخرقاء هي التي بإمكانها أن تهين أو تُهان. وهي التي تستطيب الأخذ بالثأر فتردّ الإهانة إهانات وتغسل الأوساخ بأوسخ منها.

إنّ العالم المستسلم لكبريائه والنشوان بالذات الموهومة سيصبّ جامات سخطه وإهاناته على رؤوسكم، وسيطلق عليكم كلابه العطشى إلى الدّم التي تحرس شرائعه الرثّة، وعقائده العفنة، ومفاخره المتبخترة في أسمالها. وسيعلنكم أعداء للنظام ورسلًا للفوضى والدمار، وسيملأ طرقكم فخاخًا ويفرش أسرّتكم شوكًا. وسيزرع اللعنات في آذانكم ويبصق الاحتقار على وجوهكم.

فلا تضطربنّ قلوبكم. بل كونوا كالبحر سعةً وغورًا. وأعطوا بركة حتّى للذين لا يعطونكم غير اللعنة.

وكونوا كالأرض جودًا وسكينة. وحوّلوا الأقذار التي في قلوب الناس عافية وجمالًا للناس.

وكونوا كالهواء طلاقة ومرونة. فالسيف الذي يطمع بأن يجرحكم يصدأ في النهاية ويكمدّ. واليد التي ترمي إلى أذيّتكم تكلّ في النهاية وتجمد.

ما دام العالم يجهلكم استحال عليه أن يسعكم. أمّا أنتم ففي مستطاعكم أن تسَعوا العالم لأنّكم تفهمونه. لذلك عليكم أن تخفّفوا من سخطه بلطفكم، وأن تُغرقوا شتيمته في فهمكم المشبع بالمحبّة. والغلبة للفهم أوّلًا وآخرًا.

هكذا علّمت نوحًا.

وهكذا أُعلّمكم.

نروندا: عندئذٍ تفرّق السبعة صامتين. إذ قد أصبح مفهومًا بيننا أنّ كلمات المعلّم «هكذا علّمت نوحًا» هي بمثابة تنبيه لنا أنّه قد اختتم حديثه وأنّه يطلب الصمت والانفراد.

الفصل السادس عشر

في الدائن والمدين. ما هو المال؟
رستيديون يعفى من دينه للفلك.

نروندا: ذات يوم إذ كان السبعة، والمعلّم معهم، عائدين من وكر النسور إلى الفلك أبصروا شمادم واقفًا بالباب وفي يده ورقة يلوّح بها في وجه رجل جاثٍ أمامه على الأرض، وسمعوه يخاطبه بصوت غضوب: «لقد عيل صبري من مماطلتك. ولم يبقَ في الإمكان أن أترفّق بك أكثر مما ترفّقت. إدفع الآن أو فأنتِن في السجن».

تأمّلنا الرجل فإذا به شريك من شركاء الفلك اسمه رسْتيديون تعاونت السنون والأطمار في حني ظهره. وقد كان مدينًا للفلك بمبلغ من المال وكان يتوسّل إلى المتقدّم أن يمنحه مهلة لدفع ما استحقّ عليه من الرّبا معتذرًا لذلك بأنّه فقد ابنه الوحيد وبقرته الوحيدة في أسبوع واحد منذ عهد قريب، وأنّ زوجه الطّاعنة في السنّ أصيبت من جراء ذلك بالفالج فهي طريحة الفراش. لكنّ قلب شمادم ما كان يرقّ له.

فمشى المعلّم نحو رستيديون وأخذه بلطفٍ من يده قائلًا له:

مرداد: انهض يا رستيديون. فأنت كذلك صورة الله. ولا يليق بصورة الله أن تتمرّغَ أمَام أيّ ظلّ.

(ثم إلى شمادم):

أرني صكّ الدَّيْن.

نروندا: ولشدّ ما ذهلنا عندما رأينا شمادم، وقد كان منذ هنيهة أسدًا هائجًا، ينقلب بغتةً حملًا وديعًا ويناول المعلّم الورقة التي في يده من غير أقلّ تردّد أو اعتراض. فأخذ المعلّم الورقة وتفحّصها مليًّا وشمادم ينظر إليه ولا يبدي حركة كأنّه مسحور.

مرداد: ما كان مؤسّس هذه الفلك مرابيًا. ألعلّه أوصى لكم بمال تُديّنونه للغير بالرّبا؟ أم لعلّه أوصى لكم بأمتعة تتاجرون بها وأراضٍ تؤجّرونها لتخزنوا خيراتها؟ أم لعلّه أوصى لكم بعرق إخوانكم ودمائهم ثمّ بالسجون للذين تعصرون آخر نقطة من عرَقهم وتمتصّون آخر قطرة من دمائهم؟

إنّه ما أوصى لكم إلّا بفلك ومذبح ونار، ليس أكثر. بالفلك التي هي جسده الحي. وبالمذبح الذي هو قلبه الباسل. وبالنار التي هي إيمانه المتوقّد. وهذه قد أوصاكم أن تحفظوها سليمة وطاهرة في وسط عالم يرقص لزمّارات الموت ويتخبّط، إذ يرقص، في مستنقعات الإثم لقلّة إيمانه.

ولئلّا تلهيكم مطالب الجسد عن مشاغل الروح، أُبيحَ لكم أن تعيشوا من إحسان المؤمنين. ومنذ تأسيس الفلك، ما شكوتم يومًا قلّة الإحسان.

فماذا كان منكم؟ لقد حوّلتم الإحسان إلى لعنة سواء لأنفسكم وللمحسنين. فها أنتم بعطايا الناس تستعبدون الناس.

ها أنتم تجلدونهم بسياط تحبكونها من الخيوط التي يغزلونها لكم. وتعرّونهم بعين الأنسجة التي ينسجونها ثيابًا لكم. وتميتونهم جوعًا بقوّة الخبز الذي يخبزونه لكم. وتنجّرون لهم أنيارًا وتوابيت من الأخشاب التي يجمعونها لتجميل مساكنكم وتدفئتها. ثمّ تعودون فتُديّنونهم، حتّى عرقَهم ودماءَهم، بالرّبا.

إذ ما هو المال؟ إنّما المال عرق الناس ودماؤهم يسكّها الدهاة دراهمَ ودنانير ليكبّلوا بها الناس. وما هو الغنى؟ إنّما الغنى عرق الناس ودماؤهم يختزنها أقلّ الناس عرقًا ونزيفَ دمٍ ليرهقوا بها ظهور من كانوا أكثر الناس عرقًا ونزيفَ دم.

الويل ثمّ الويل للذين يحرقون أفكارهم وقلوبهم وينحرون أيّامهم ولياليهم في سبيل خزن المال، فهم لا يعرفون ماذا يخزنون.

إنّهم ليخزنون عرق المومس والقاتل والسارق، وعرق المصدور والمجذوم والمشلول، وعرق الضرير والكسيح والمشوّه مع عرق الحرّاث وثوره، والراعي ونعجته، والحاصد وجامع اللقاطة. هذا وكثير من جنسه ما يخزنه خازنو الأموال.

إنّهم ليخزنون دم اليتيم والشقيّ، ودم الطاغية والشهيد، ودم الشرّير والصالح مع دم السالب والمسلوب، ودم السيّاف ومن يفري عنقه بسيفه، ودم المكّار وفريسة مكره، وهاتك العرض ومهتوكه، هذا وكثير من نوعه ما يخزنه خازنو الأموال.

بلى. الويل ثمّ الويل للذين ثروتهم وبضاعتهم عرق الناس ودماؤهم. إذ لا بدّ للعرق والدم من أن يطالبا بثمنهما في النهاية. ويا للثّمن ما أبهظه، وللمطالبة ما أقساها!

أدينٌ وبالرّبا؟ إنّه لكفر بالنعمة خالع العذار إلى حدّ أنّ الصفح عنه كفر.

إذ ماذا عساكم تملكون لتديّنوا؟ أليست ذات حياتكم عطيّة؟ ولو أنّ الله شاء يومًا أن يفرض عليكم ربا عن أقلّ هباته لكم وأصغرها فبماذا عساكم تدفعون؟

أليس هذا العالم خزانة مشتركة يودعها كلّ إنسان وكلّ شيء ما عنده لإعالة الجميع؟

أتُديّنكم القبّرة أغاريدها، والينبوع مياهه الرقراقة؟

أتقرضكم السنديانة فيئها الناعم، والنّخلة ثمرها المعسول؟

أيعطيكم الكبش صوفه والبقر لبنها لقاء ربا معلوم؟

أم تبيعكم المزن غيثها، والشمس حرارتها ونورها؟

ولولا هذه الأشياء وربوات سواها من أين كان لكم أن تحيوا؟ ومن منكم في إمكانه أن يقول عن أيّ إنسان، أو أيّ شيء، إنّه وضع الأكثر أو الأقلّ في خزانة العالم المشتركة؟

أفي إمكانك يا شمادم أن تحصي كلّ ما أسداه رستيديون إلى خزانة الفلك؟ وها أنت، رغم ذلك، تُديّنه عطاياه، أو قسمًا ضئيلًا منها، وتفرض عليه الرّبا علاوة. بل ها أنت لا تحجم عن أن تبعث به إلى السجن لينتن فيه!

أيّ ربًا عساك تطلب من رستيديون؟ ألا ترى ما كان أعظم نفعه من دَينك؟ وماذا تريده أن يدفع لك أكثر من وحيده الميت، وبقرته الميتة، وزوجه المفلوجة؟ وبأيّ ربًا عساه يأتيك أوفى من هذه الأسمال على ظهر محدودب كظهره؟

آه لك يا شمادم! ألا أفركْ عينيك. ألا استيقظ قبل أن تُطالَب أنت كذلك بإيفاء ما عليك مع الرّبا، فلا تجد ما تدفعه، فتُجَرَّ إلى السجن وتُترك هناك حتّى تنتن.

إنّ ما أقوله لشمادم أقوله لجميع الرفاق: افركوا أعينكم واستيقظوا.

اعطوا بسخاء ما أمكنكم الإعطاء. ولكن إيّاكم أن تُديّنوا مخافة أن يصبح كلّ ما لكم، حتّى حياتكم، دينًا عليكم، وأن يستحقّ الدين في الحال، وإذ تعجزون عن الإيفاء يُشهر إفلاسكم وتُساقون إلى السجن وتُتركون هناك حتّى تنتنوا.

نروندا: قال المعلم ذلك والتفت ثانية إلى الورقة في يده ثم أخذ يمزّقها بتأنّ نتفًا نتفًا ويذروها في الهواء. وعندها اتّجه إلى همبال الذي كان أمين صندوق الفلك وقال له:

مرداد: اعطِ رستيديون من المال ما يكفيه لشراء بقرتين ولإعالة زوجه ونفسه حتّى آخر حياتهما.

أمّا أنت يا رستيديون فقد أُعفيت من دينك، فانطلق بسلام. وإيّاك أن تصبح في يوم من الأيّام دائنًا. فديْنُ من يُديّن لأفدح بكثير من دين من يستدين.

الفصل السابع عشر

شمادم يلجأ إلى الرشوة في حربه ضدّ مرداد.

نروندا: لأيّام عديدة تلت ذلك بقيت حكاية رستيديون أهمّ موضوع للرفاق في أحاديثهم. فكان ميكايّون وميكاستر وزمورا يطرون صنيع المعلّم بحدّة وحماسة. لا سيّما زمورا الذي كان يقول إنّه يكره حتّى أن يلمس المال بيده. أمّا بنّون وأبيمار فما تطرّفا لا في المدح ولا في الذمّ. بينا همبال كان يلوم المعلّم جهرًا قائلًا أن لا حياة للعالم بدون المال، وإنّ الغنى ليس سوى مكافأة من الله لذوي الجدّ والاقتصاد، وإنّ الفقر قصاص عادل من الله لأهل الكسل والتبذير، وإنّه حتّى نهاية الزمان سيبقى في الناس الدائنون والمدينون.

وكان شمادم في تلك الأثناء منصرفًا إلى رأب ما تصدّع من نفوذ رئاسته وسلطانها. فقد دعاني مرّةً إليه وفي عزلة مخدعه خاطبني هكذا:

«أنت كاتب الفلك ومؤرّخها. وأنت ابن رجل فقير. فأبوك لا يملك أرضًا. وعنده سبعة أولاد وزوج وعليه أن يكدح لسدّ عوزهم. فلا تدوّن ولا كلمة من هذا الحديث المشؤوم لئلّا يطّلع عليها الآتون من بعدنا فيجعلوا من شمادم مضحكة. اهجر هذا المشعوذ وأنا أجعل أباك ملّاكًا بدلًا من أن يكون شريكًا، وأملأ أهراءه بالحبوب وخزائنه بالمال».

فأجبته على ذلك بقولي إنّ الله أقدر من شمادم على إعالة والدي وعيلته. وأمّا بشأن مرداد فأنا أعترف به معلّمًا ومخلِّصًا وأؤثر أن أهجر حياتي قبل أن أهجره. وأمّا بشأن سجلّ الفلك فقد قطعت على نفسي عهدًا بأن أحفظه سليمًا من كلّ غشّ ومحاباة ولن أنكث عهدي.

وقد علمت فيما بعد أنّ شمادم عرض على كلّ واحد من الرفاق مثيل ما عرضه عليّ. لكنّني ما دريت إلى أيّ حدّ نجحت مساعيه. والذي لحظته هو أنّ همبال أخذ يتخلّف أحيانًا عن حضور اجتماعاتنا في وكر النسور.

الفصل الثامن عشر

مرداد بعلمه الغيب يذيع وفاة والد همبال وظروفها ثم يكلّمنا في الموت. الزمان أكبر المشعوذين. دولاب الزمان وإطاره ومحوره.

كانت قد انحدرت مياه كثيرة من أعالي الجبال وانسابت إلى البحر يوم كلّ الرفاق، ما خلا همبال، مجتمعين حول المعلّم في وكر النسور.

وكان المعلّم يحدّثنا عن «الإرادة الكلّية». وبغتة توقّف عن الحديث ثم قال:

مرداد: همبال في ضيق ويودّ أن يأتي إلينا طلبًا للفرج. لكنّ رجليه تخجلان من أن تحملاه إلينا. فاذهب يا أبيمار وأسعفه إلى هنا.

نروندا: فانطلق أبيمار وعمّا قليل عاد ومعه همبال. وكان همبال يبكي كالطفل ووجهه كأنّه التعاسة بعينها.

مرداد: اقترب منّي ياهمبال. همبال، همبال! واأسفي عليك! ألأنَّ أباك مات تأذن للحزن بأن ينهش قلبك نهشًا ويحوّل دمه دمعًا؟ فماذا عساك تفعل عندما تموت أسرتك كلّها؟ ماذا عساك تفعل عندما ينسحب كلّ آباء العالم وأمّهاته، وإخوانه وأخواته، إلى حيث لا تصل يدك ولا ينفذ بصرك؟

همبال: أجل يا معلّم. إنّ أبي قد مات ميتة فظيعة. فالثور الذي كان قد ابتاعه منذ أيّام انقضّ عليه مساء أمس فبقر جوفه وحطّم جمجمته. وقد أبلغني الرسول هذا الخبر منذ دقائق لا غير فمن أين عرفته أنت؟ ويحي ويحي أنا المنكود الطالع!

مرداد: ويلوح أنّ أباك فارق الحياة في الحين الذي أوشكَتْ فيه سعود العالم أن تفترّ له عن ثغورها الفتّانة.

همبال: إنّه لكذلك يا معلّم. إنّه لكذلك بالتمام.

مرداد: ويلوح أنّ موته يؤلمك زيادة لأنّه ابتاع الثور الذي بقره بالمال المرسل منك إليه.

همبال: إنّه لكذلك يا معلّم. إنّه لكذلك بالتمام. فكأنّك عليم بكلّ شيء.

مرداد: وذلك المال كان ثمن محبّتك لمرداد.

نروندا: عندها اختنق همبال بدموعه فلم يبق في إمكانه أن يحرّك لسانه.

مرداد: ما مات والدك يا همبال. ولا مات بعدُ شكله وظلّه. وإنّما حواسّك أمست ميتة تجاه التغيُّر الطارئ على شكل والدك وظلّه. فهناك أشكال نحيفة وظلال خفيفة إلى حدّ أنّ عين الإنسان الخشنة لا تستطيع تمييزها.

إنّ ظلّ أرزة في الغابة ليس كظلّ تلك الأرزة عينها وقد أصبحت صارية على مركب، أو عمودًا في هيكل، أو دعامة لمشنقة. لا ولا ظلّ تلك الأرزة في الشمس كظلّها في ضوء القمر أو النجوم أو عند ابتلاج الفجر.

لكنّ تلك الأرزة مهما تبدّلت أحوالها، تبقى أرزة وإن أنكرتها أخواتها اللواتي كانت وإياهنّ في الغابة.

أتعرف دودة القزّ التي ترعى ورقة التوت، أن اليرقة في الفيلجة بجانبها كانت فيما مضى أختًا لها؟ أم تعرف اليرقة في الفيلجة أنّ الفراشة المرفرفة بقربها كانت أختًا لها منذ هنيهة؟

أتعرف حبّة قمح في التراب، القربى التي بينها وبين سنبلة فوق التراب؟

أتعرف الأبخرة التي في الهواء، والمياه التي في البحار، صلة الرحم التي تربطها بعناقيد الجليد المدلّاة من شقوق الكهوف في الجبال؟

أتعرف الأرض أنّ في النيزك المنقضّ عليها من مجاهل الفضاء، نجمة شقيقة لها؟ أتبصر السنديانة نفسها في بلّوطتها؟ ولأنّ والدك اليوم في نور ما تعوّدته عيناك، وفي شكل لا تستطيع أن تميّزه، تقول إنّ أباك غير موجود. لكنّ ذات الإنسان المحسوسة، مهما تبدّلت أشكالها، وكيفما تقلّبت أحوالها، لا بدّ لها من أن تطرح ظلًّا. وستبقى كذلك إلى أن تتلاشى في ذات الإنسان الإلهيّة.

إنّ قطعة من الخشب، أكانت جذعًا نضرًا لشجرة، أم وتدًا يابسًا في حائط، تبقى خشبة معرّضة للتحوّل إلى أن تلتهمها النار التي في جوفها. كذلك الإنسان يظلّ إنسانًا، حيًّا كان أم ميتًا، إلى أن يلتهمه الإله الكامن في قلبه، أي إلى أن يفهم وحدته مع الواحد الأحد. لكنّ ذلك لا يتمّ له في تلك اللمحة من الزمان التي تعوّد الناس أن يدعوها عمرًا.

إنّ كل الزمان لعمر واحد، يا رفاقي.

ما من وقفات في الزمان ولا ثبات. ولا فيه فنادق تستريح فيها القوافل من عناء السفر وتتناول المرطّبات والمنعشات.

إنّما الزمان دوام يلتوي على ذاته. فمقدّمته مقطورة أبدًا بمؤخّرته. فليس فيه ما ينتهي ويندثر. ولا فيه ما يبتدىء وينتهي.

إنّما الزمان دولاب خلقته الحواسّ ثمّ أطلقته يدور في مفاوز الفضاء.

أنتم تحسّون تقلّب الفصول المدهش ولذلك تعتقدون أنّ كلّ شيء عرضة للتقلّب. إلّا أنّكم، رغم ذلك، تعترفون بأنّ القدرة التي تنشر الفصول وتطويها هي أبدًا هي.

وأنتم تحسّون نموّ الأشياء وانحلالها، ولذلك يسطو عليكم اليأس فتعلنون أنّ الانحلال هو نهاية كلّ ما ينمو تحت الشمس. إلّا أنكم، رغم ذلك، تقرّون بأنّ القدرة التي تعمل على النموّ والانحلال هي ذاتها لا تنمو ولا تنحلّ.

وأنتم تحسّون سرعة الريح بالنسبة إلى النسيم. فتقولون إنّ الريح أسرع من النسيم بما لا يقاس. إلّا أنّكم، رغم ذلك، تسلّمون بأنّ محرّك الرّيح والنسيم واحد، وأنّه لا يعدو مع الريح ولا يحبو مع النسيم.

يا لسذاجتكم ما أسرع انخداعها بكلّ ما تجترحه حواسّكم الخدّاعة من شعوذات ومكائد! ألا أين خيالكم؟ فبه وحده تعرفون أنّ كلّ ما تبصرونه من تقلّب الأشياء وتغيّرها ليس سوى خفّة يد وخديعة.

كيف للرّيح أن تسبق النسيم؟ أليس أنّ النسيم يلد الرّيح؟ أليس أنّ الريح تحمل النسيم أنّى اتّجهت؟

أيّها الماشون على الأرض، كيف لكم أن تقيسوا ما تقطعونه من المسافات بالخطوات والفراسخ؟ فسواء أمشيتم الهوينا أم عدوتم عدوًا، ألستم محمولين بسرعة الأرض إلى الأجواء والأرجاء المسوقة إليها الأرض؟ أليست مشية الأرض، إذن، مشيتكم؟ أليست الأرض ذاتها محمولة بسرعة سائر الأجرام، فلا أسرعهنّ بأسرع منها، ولا أبطأهنّ بأبطأ منها؟

حقًّا إنّ البطيء هو والد السريع. والسريع هو حامل البطيء. والسريع والبطيء لا ينفكّان معًا في كلّ لمحة من الزمان ونقطة من المكان.

كيف تقولون إنّ النموّ نموّ، والانحلال انحلال، وإنّ الواحد عدوّ الآخر؟ أتعرفون شيئًا نما إلّا من شيء انحلّ؟ أم تعرفون شيئًا انحلّ إلّا من شيء كان ينمو؟

ألستم تنمون إذ تنحلّون، وتنحلّون إذ تنمون؟ أليس الأموات تربة الأحياء، والأحياء أهراء الأموات؟ إن يكن النموّ وليد الانحلال، والانحلال وليد النموّ؛ أو تكن الحياة أمّا للموت، والموت أمًّا للحياة، إذن كان الاثنان واحدًا في كلّ لمحة من الزمان وكلّ نقطة من المكان؛ وإذن كان فرحكم للحياة والنموّ سخافة نظير ما هو حزنكم للموت والانحلال.

كيف تقولون إنّ الخريف وحده من بين كلّ الفصول هو فصل العنب؟ أقول لكم إنّ العنقود لناضج في الشتاء كذلك حين لا يكون غير عصارة لا تبصَر، تتململ في أحشاء الكرمة وتحلم أحلامها. وهو ناضج كذلك في الربيع عندما يبرز حبيبات من الزمرّد؛ وكذلك في الصيف عندما تنتفخ الحبيبات وتتلوّن خدودها بقبلات الشمس الذهبيّة. إن يكن كلّ فصل حاملًا في قلبه الفصول الثلاثة الأخرى، إذن كانت الفصول كلّها فصلًا واحدًا في كلّ لمحة من الزمان وكلّ نقطة من المكان.

أجل، إنّ الزمان لأعظم مشعوذ، وإنّ الإنسان لأعظم غرّير.

ما أشبه الإنسان بالسنجاب في دولاب. فالسنجاب، إذ يحاول الفرار من الدولاب، يدفعه إلى الدوران بسرعة فائقة، فينسى أنّه الدافع على الحركة ويعزوها إلى الدولاب. ثمّ هو يبقى مكانه، ويظنّ، مع ذلك، أنّه يتحرّك بسرعة الدولاب. وهكذا الإنسان يدفع دولاب الزمان على الدوران فينسحر بسرعة الحركة إلى حدّ أن ينسى أنّه مولّدها، وإلى حدّ أنّه لا يجد من وقته متّسعًا لوقف دوران الوقت.

بل ما أشبه الإنسان بالهرّ يلحس المبرد فيتلمّظ بالدم السائل من لسانه ظانًّا أنّه يسيل من المبرد. فالإنسان يلحس دمه السائل على إطار دولاب الزمان ويمضغ لحمه الممزّق بشعاع دولاب الزمان ظانًّا أنّهما دم الزمان ولحمه.

إنّ دولاب الزمان لا ينفكّ عن الدوران في مجاهل الفضاء وقد علقت بإطاره كلّ الأشياء التي في استطاعة الحواسّ أن تتناولها، تلكُمُ الحواسّ التي لا تتناول من الأشياء إلّا ما كان ضمن زمان ومكان. وهكذا تبدو الأشياء للحواسّ ثم تغيب. فما غاب منها عنكم في هذه الآونة وهذا المكان، أطلّ على غيركم في ذات هذه الآونة ولكن في غير هذا المكان. إنّ ما هو فوقكم هاهنا هو تحت سواكم هنالك. وإنّ نهاركم هذا لليل لسواكم. وذلك بحسب مركزكم ومركز سواكم في الزمان والمكان.

واحد هو سبيل الموت والحياة على إطار دولاب الزمان أيّها الرهبان. لأنّ الحركة في دائرة لن تبلغ يومًا منتهاها أو تصرف قواها، وكلّ ما في العالم من حركات ليس سوى حركات في دوائر.

أيستحيل، إذن، على الإنسان أن يُفلت من دائرة الزمان المسحورة؟ أقول لكم إنّه سيفلت لأنّه وارث الحرّية المقدّسة التي هي حرّية الله.

إنّ دولاب الزمان ليدور، أمّا محوره فهادئ أبدًا.

الله هو المحور في دولاب الزمان الذي تدور عليه سائر الأشياء في الزمان والمكان أمّا هو فلا يدور ولا يعرف زمانًا أو مكانًا. من كلمته تنبثق الأشياء كلّها وكلمته، مع ذلك مثله، لا تدور ولا تعرف زمانًا أو مكانًا.

في المحور سكينة أبديّة. وعلى الإطار حركة صاخبة. فأين تؤثرون أن تكونوا؟ أقول لكم ازحلوا من إطار الزمان إلى محوره وأريحوا أنفسكم من غثيان الحركة. دعوا الزمان يدور عليكم فلا تدوروا على الزمان.

الفصل التاسع عشر

في المنطق والإيمان. نكران الذات هو تثبيت الذات.
كيف نقف دولاب الزمان عن الدوران.
في البكاء والضحك.

بنّون: ليغفر لي المعلّم قولي إنّ منطقه يحيّرني أشدّ الحيرة بقلّة ما فيه من منطق.

مرداد: لا عجب إن لُقّبت بالقاضي يا بنّون.

فأنت تصرّ على المنطق في الدّعوى المعروضة عليك قبل أن تعطي حكمك فيها. أعالجت القضاء طيلة هذه السنين فما عرفت حتّى الآن أن لا نفع للإنسان من المنطق إلّا ليخلص منه إلى الإيمان المؤدّي إلى الفهم؟

إنّما المنطق فكر ما بلغ أشدّه. فما يزال يحوك شباكًا من الخَيْتَعُور آملًا أن يصطاد بها بَهْموت المعرفة. لكنّه لا يبلغ أشدّه حتّى يخنق نفسه بشباكه وإذ ذاك يتحوّل إيمانًا. والإيمان معرفة صرف. المنطق عكّاز للمُقعد. ولكنّه عبءٌ على العدّاء. وعبءٌ أفدح من ذلك على ذي الجناح. وأنت يا بنّون، من بعد أن يبلغ فكرك أشدّه – ولا بدّ له من ذلك – لن تذكر المنطق بلسانك.

بنّون: أما قلت إنّه الأفضل للإنسان أن ينزلج من إطار الزمان إلى محوره، من الحركة إلى السكون؟ ومعنى ذلك أنّ على الإنسان أن ينكر نفسه؛ أيستطيع أحدٌ أن ينكر وجوده؟

مرداد: أجل. لا بدّ لكم، إن شئتم الوصول إلى المحور، من نكران الذات التي هي ألعوبة في يد الزمان، وتثبيت الذات التي لا تطالها شعوذات الزمان.

بنّون: أيكون نكران الذات تثبيتًا للذات؟

مرداد: بلى. فما نكران الذات المحدودة إلّا تثبيت الذات التي لا تُحدّ. فمتى مات الإنسان للتّحوّل وُلد لعدم التحوُّل. إنّ معظم الناس يحيون ليموتوا. طوبى لمن يموتون ليحيوا.

بنّون: ولكنّ ذات الإنسان جدُّ عزيزة لديه. فكيف له أن يغرق في الله من غير أن يفقد شعوره بذاته؟

مرداد: ألعلّها خسارة للجدول أن يُضيع ذاته في البحر فيصبح البحر ذاته؟ وضياع الإنسان في الله ليس بأكثر من ضياعه ظلّه ليجد كنه وجوده الذي لا ظلّ له.

ميكاستر: كيف للإنسان، وهو خليقة الزمان، أن يتملّص من قيود الزمان؟

مرداد: مثلما ستنعتقون من الموت بالموت، ومن الحياة بالحياة، هكذا ستتحرّرون من الزمان بالزمان.

فالإنسان سيملّ التغيّر والتحوّل إلى حدّ أن يتوق بكلّ جوارحه، ويتوق بغير انقطاع، إلى ما هو أقوى وأمنع من التغيّر والتحوّل. وذلك سيجده في نفسه من غير شكّ.

ألا بشّروا التوّاقين أنّهم قد بلغوا عتبة الحرّية. فعنهم أفتّش، ومن أجلهم أعلّم. ألَم أخترْكم لأنّني سمعت نداء أشواقكم؟

أمّا الذين يدورون مع الزمان دوراته مفتّشين فيها عن راحتهم وانعتاقهم فالويل لهم. أولئك ما ابتسموا يومًا للولادة إلّا أُكرهوا على البكاء للموت. ولا شبعوا يومًا حتّى جاعوا. ولا اقتنصوا يومًا حمامة السلام إلّا انقلبت في أيديهم غُدافًا للحرب. ولا ازدادوا معرفة موهومة إلّا ازدادوا جهلًا أكيدًا. ولا تقدموا خطوة إلّا تقهقروا خطوات. ولا ارتفعوا فترًا إلّا انخفضوا أذرعًا.

أولئك لن يحفلوا بكلام مرداد. بل يكون كلامه همسًا مبهمًا ومزعجًا لآذانهم، ويكون كالصلاة في بيت المجانين، وكالمشاعل الموقدة أمام العميان. وهم لن يفتحوا آذانهم لمرداد حتّى تتوق أرواحهم كذلك إلى الحرّية.

همبال: (باكيًا) لقد فتحت يا معلّم لا عينيّ فحسب بل وقلبي أيضًا. فاصفح عن همبال الذي ما كان أمس غير أطرش وأعمى.

مرداد: كفكف دموعك يا همبال. فلا تليق الدموع بعين تفتّش عن آفاق أبعد من آفاق الزمان والمكان.

دع الذين يضحكون عندما تدغدغهم أصابع الزمان يبكون عندما تمزّق أظافره جلودهم.

دع الذين يرقصون ويغنّون لبهجة الشباب يرتجفون ويئنّون لتجاعيد الشيخوخة.

دع الهازجين في أعياد الزمان يعفّرون جباههم ويذرّون الرماد على رؤوسهم في مآتمه.

أمّا أنت فكن هادئًا أبدًا. وفتّش في تغيّرات الزمان عن الذي لا يتغيّر.

ليس في الزمان ما هو جدير بدمعة. مثلما ليس فيه ما هو جدير ببسمة. إنّما الوجه الضاحك والوجه الباكي لمتساويان في البشاعة والتشويه.

أتودّون أن تتحاشوا حرقة الدمع؟ إذن تحاشوا سكرة الضحك.

يتبخّر الدمع فيغدو ضحكًا. ويتكاثف الضحك فيمسي دمعًا.

أمّا أنتم فلا تتبخّرنّ قلوبكم بالفرح، ولا تتكمّشنّ بالحزن. بل كونوا في طمأنينة معصومة عن الاثنين.

الفصل العشرون

أين نمضي بعد الموت؟ في التوبة.

ميكاستر: أين نمضي يا معلّم بعد الموت؟

مرداد: أين أنت الآن يا ميكاستر؟

ميكاستر: في وكر النسور.

مرداد: أتظنّ وكر النسور من السعة بحيث يستطيع أن يسعك؟ أتظنّ أن لا مسكن إلّا الأرض؟

إنّ أجسادكم، وإن تكن ضمن إطار من الزمان والمكان، لمركّبة من كلّ ما في المكان والزمان. فما كان منها مأخوذًا من الشمس عاش في الشمس. وما كان مأخوذًا من الأرض عاش في الأرض. وهكذا ما كان مأخوذًا من سائر الأجرام وما بينها من الفراغ.

إنّما الجاهل وحده يظنّ أن لا مسكن للإنسان إلّا الأرض، وأنّ ربوات الأجرام السابحة في الفضاء ليست سوى زينة لمسكن الإنسان وأُلهوّة لعينيه.

ما سكن الإنسان الأرض إلّا سكن معها نجمة الصبح والمجرّة والثريّا. فهذه ما لمست عينيه بشعاع من أشعّتها إلّا رفعته إليها. وهو ما مشى تحتها إلّا اجتذبها إليه.

كلّ ما في الكون متداخل بعضه في بعض. فالكون كلّه في الإنسان. وكلّ الإنسان في الكون. ثمّ إنّ الكون جسد واحد. فما لمستم أقلّ أجزائه إلا لمستموه بكامله.

ومثلما تموتون موتًا مستمرًّا وأنتم أحياء، كذلك تحيون حياة مستمرّة وأنتم أموات، إن لم يكن في هذا الجسد، ففي جسد شكله غير شكل هذا. لكنّكم لا تنفكّون تحيون في جسد ما إلى أن تتلاشوا في الله. وبكلمة أخرى، إلى أن تتغلّبوا على كلّ تغيّر وتحوُّل.

ميكاستر: أنعود إلى هذه الأرض إبّان تنقّلنا من حالة إلى حالة؟

مرداد: التكرار هو سنّة الزمان. فلا بدّ لما حدث مرّةً في الزمان من أن يعود فيحدث غير مرّة.

أمّا طول الفترات وقصرها ما بين العودة والعودة فموقوف، فيما اختصّ بالإنسان، على إرادة كلّ إنسان وشدّة رغبته في التكرار.

فعندما تخرجون من الدورة المدعوّة حياة إلى الدورة المدعوّة موتًا حاملين معكم عطشًا إلى الأرض لمّا يرتوِ وجوعًا لمّا يشبع، حينئذٍ تعود الأرض فتجذبكم إلى صدرها من جديد. وهكذا تعود الأرض ترضعكم، والزمان يفطمكم حياةً تلو حياة وموتًا بعد موت إلى أن تفطموا أنفسكم الفطام الأخير بملء إرادتكم ومن تلقاء نفوسكم.

أبيمار: أَلِلأرض سلطان عليك كذلك، يا معلّم؟ فها أنت تبدو كما لو كنت واحدًا منا.

مرداد: إنّي أجيء حين أشاء. وأذهب حين أشاء. وأنا أجيء لأعتق شركاء الأرض من عبوديّتهم للأرض.

ميكايّون: أريد أنّ أفطم نفسي إلى الأبد عن ثدي الأرض. فكيف السبيل إلى ذلك، يا معلّم؟

مرداد: السبيل هو أن تحبّ الأرض وكلّ ما ترضعه الأرض. فعندما لا يبقى من رصيد حساب بينك وبين الأرض غير المحبّة، حينئذٍ تعتقك الأرض من كلِّ دَين لها في ذمّتك.

ميكايّون: لكنّما المحبّة رباط، والرباط قيد وعبوديّة.

مرداد: كلّا. بل المحبّة انعتاق من كلّ رباط. فأنت عندما تحبّ كلّ شيء لا تبقى مرتبطًا بشيء.

زمورا: ما منّا من ليس يخطىء ضدّ المحبّة. أفي استطاعتنا أن نغسل بالمحبّة خطايانا ضدّ المحبّة كيما نخلص من تكرارها حياة بعد حياة وهكذا نقف دولاب الزمان عن الدوران؟

مرداد: ذلك تدركونه بالتّوبة. إنّ لعنة تقذف بها شفاهُكم تدور دورتها ثمّ تعود حتمًا إلى شفاهكم. لكنّها إذا ما وجدت شفاهكم مغسولة بالبركات راحت تفتّش لها عن شفاه تستقرّ عليها غير شافهكم. وهكذا تقف المحبّة تكرار تلك اللعنة.

وإنّ نظرة فاسقة تنطلق من عيونكم تدور دورتها ثمّ تعود حتمًا إلى عيونكم. لكنّها إذا ما وجدت العين التي انطلقت منها طافحة بنظرات المحبّة راحت تفتّش لها عن عين فاسقة تلجأ إليها. وهكذا تقف المحبّة حاجزًا في وجه عودة تلك النظرة الفاسقة.

وإنّ أمنية شرّيرة تطير من قلب شرّير تدور دورتها ثمّ تعود حتمًا إلى القلب الذي طارت منه. لكنّها إذا ما وجدته مرصوفًا بأماني المحبّة راحت تفتّش لها عن وكر آخر تبيض فيه وتنفُر. وهكذا تعرقل المحبّة تجديد تلك الشهوة.

تلك هي التوبة.

لا يستطيع الزمان أن يكرّر لكم إلّا المحبّة عندما لا يبقى لكم من رصيد حساب غير المحبّة. ومتى كان ما يكرّره الزمان واحدًا لا يتبدّل في الزمان والمكان ملأ ذلك الواحد الزمان والمكان، وهكذا محا الاثنين.

همبال: لكنّ هناك سؤالًا واحدًا يا معلّم ما يزال يعذّب قلبي ويشوّش أفكاري وهو هذا: لماذا مات والدي تلك الميتة لا سواها؟

الفصل الحادي والعشرون

في الإرادة الكلّيّة المقدّسة. لماذا تحدث الأحداث في الحالات والظروف التي تحدث فيها؟

مرداد: إنّه لمن الغرابة بمكان أنّكم، وأنتم أبناء المكان والزمان ما عرفتم بعد أنّ الزمان هو الذاكرة الكليّة المحفورة على ألواح المكان. فإن كنتم، وأنتم مقيّدون بالحواس، تذكرون بعض ما يمرّ بكم بين الولادة والموت، فكيف بالزمان الذي كان من قبل أن تولدوا ويبقى من بعد أن تموتوا؟

أقول لكم إنّ الزمان يذكر كلّ شيء على الإطلاق. فهو لا يذكر ما تذكرونه فحسب، بل يذكر كلّ ما سهوتم عنه كذلك. إذ لا سهو في الزمان ولا نسيان. فهو لا ينسى أقلّ حركة، أو نفَس، أو هوًى عابر. وكلّ ما تخزنه ذاكرة الزمان محفورٌ في كلّ شيء يحتويه المكان. فلو كانت لكم المقدرة على القراءة وعلى فهم ما تقرأون لقرأتم في الأديم الذي تطأونه، والهواء الذي تتنفّسونه، والبيوت التي تسكنونها سجلّات صادقة لحياتكم في أدقّ تفاصيلها، ما فات منها وما سيأتي.

ما مرّت بكم لحظة واحدة، لا في الحياة ولا في الموت، كنتم في عزلة فيها عن سائر المخلوقات. فأنتم في اتّصال دائم مع الكائنات التي لها حصّة في حياتكم وموتكم نظير ما لكم حصّة في موتها وحياتها. فمثلما تأخذون منها تأخذ منكم. ومثلما تفتّشون عنها تفتّش عنكم.

ما كان للإنسان إرادة في كلّ شيء إلّا كان لكلّ شيء إرادة في الإنسان. فالتبادل مستمرّ ما استمرّ الزمان والمكان. لكنّما ذاكرة الإنسان عرضة للسهو والنسيان فلا تتمكّن من ضبط حساباتها. على عكس ذاكرة الزمان التي تضبط بأقصى الدقّة كلّ الحسابات الناتجة عن علائق الإنسان بإخوانه الناس وبكلّ الكائنات، ثمّ تجبره على تصفية حساباته في كلّ طرفة عين، حياةً تلو حياة، وموتًا بعد موت.

صدّقوا أنّه ما انقضّت صاعقة على بيت فهدّته إلّا لأنّ البيت جذبها إليه. فالبيت ليس بأقلّ مسؤوليّة عن هدّه من الصاعقة.

وما بقَرَ ثورٌ رَجُلًا إلّا لأنّ ذلك الرجل دعا الثور ليبقره. فالرجل مطالَب بدمه أكثر من الثور.

ولا طعن رجل رجلًا بمدية فأرداه إلّا من بعد أن شحذ القتيلُ مدية القاتل وساعده في توجيه طعنته النجلاء.

ولا سلب لصّ رجلًا إلّا من بعد أن درّب المسلوب خطى السالب فكان شريكه في السلب.

أجل. إنّ الإنسان ليدعو إليه رزاياه ثمّ يتبرّم بضيوفه ناسيًا الأحوال، وظروف الزمان والمكان التي فيها حبّر دعوته وأرسلها في سبيلها. أمّا الزمان فما نسي ولن ينسى. فهو يبلّغ كلّ مدعوّ دعوته في حينها. ثمّ يقوده إلى بيت الوليمة.

استقبلوا ضيوفكم، مهما تكن أخلاقهم وهيئاتهم، بأقصى ما تقضي به الضيافة من اللطف والإيناس. فما هم في الواقع غير دائنيكم وقد جاؤوا يستوفون حقّهم. أعطوا من كان أشرسهم خلقًا فوق ما يستحقّ كيما ينصرف عنكم شاكرًا وراضيًا. حتّى إذا ما زاركم مرّة ثانية كانت زيارته زيارة صديق لا زيارة دائن.

ألا أحسنوا الضيافة وأكرموا وفادة كلّ مدعوٍ من مدعوّيكم كما لو كان ضيف الشرف. فلعلّكم بذلك تكسبون ثقته فيبوح لكم بما خفي عنكم من دواعي زيارته. اقتبلوا التعاسة كما لو كانت سعادة. فالتعاسة إذا ما فهمتموها انقلبت حالًا إلى سعادة. والسعادة إذا ما أسأتم فهمها انقلبت إلى تعاسة.

إنّكم تختارون ولادتكم مثلما تختارون وفاتكم، وتختارون أحوال الاثنتين وظروف زمانهما ومكانهما. وذلك رغم ما ينتاب ذاكرتكم من السهو، تلكم الذاكرة التي ليست سوى شبكة واسعة الثقوب من الأكاذيب والأباطيل. يقول لكم أدعياء المعرفة أن لا يد للإنسان على الإطلاق في ولادته وموته. أمّا الكسالى الذين يلوصون على الزمان والمكان من خلال وقب العين الضيّق فيغريهم القول بأنّ أكثر ما يحدث في الزمان والمكان ليس سوى مصادفات عمياء. ألا حذار يا رفاقي من غرورهم وخداعهم، حذار.

ما من مصادفات في الزمان والمكان. بل كلّ ما هنالك منسّق ومنظّم أتمّ التنظيم بالإرادة الكلّيّة التي لا تخطىء في شيء ولا تسهو عن شيء.

ونظير ما تتجمّع قطرات الغيث فتغدو ينابيع؛ وتنساب الينابيع جداول وسواقي؛ وتنصبُّ الجداول والسواقي في الأنهر الكبيرة؛ وتحمل الأنهر الكبيرة مياهها إلى البحر؛ وتتّصل البحار فتؤلّف المحيط الأكبر، هكذا تنسكب إرادة كلّ مخلوق، حيوانًا كان أم جمادًا أم إنسانًا، في محيط الإرادة الكلّيّة.

أقول لكم إنّ لكلّ شيء إرادة. حتّى الحجر الأصمّ الأبكم، الذي لا حياة له في الظاهر، ليس بغير إرادة. فلو لم تكن له إرادة لما كان. ولما أثّر وجوده في شيء ولا تأثّر بشيء. أمّا وهو يؤثّر ويتأثر فهو ذو إرادة من غير شك. وما الفرق بين حسّه بإرادته ووجوده وبين حسّ الإنسان بإرادته ووجوده إلّا في الكمّيّة لا في الجوهر.

ماذا عساكم تعون من حياة يوم واحد من أيّامكم؟ إنّكم لا تعون منها إلّا اليسير اليسير. أمّا ما بقي فأعمق من وعيكم وأبعد. فإن كنتم، وأنتم مجهّزون بدماغ وذاكرة وبأساليب تساعدكم على تدوين أفكاركم ومشاعركم، لا تعون القسم الأكبر من حياة يوم واحد، فما بالكم تعجبون للحجر لا يبدي وعيًا لما فيه من حياة وإرادة؟

ومثلما تحيون وتتحرّكون من غير أن تعوا أكثر ما في حياتكم وحركاتكم، هكذا تريدون أمورًا كثيرة من غير أن تعوا كلّ ما تريدون. أمّا الإرادة الكلّيّة فتعي ما لا تعون من إرادتكم وما لا تعيه سائر الكائنات من إرادتها.

وإذ تعود الإرادة الكلّيّة فتوزّع ذاتها جريًا على عادتها في كلّ لمحة من الزمان وكلّ نقطة من المكان، تردّ لكلّ إنسان وكلّ شيء ما أراده ذلك الإنسان وذلك الشيء واعيًا أو غير واعٍ، وتردّه من غير زيادة أو نقصان. إلّا أنّ الناس يجهلون نظام الإرادة الكلّيّة، فيهولهم ما ينزل عليهم من كشكولها الحاوي كلّ شيء. ثمّ يعترضون عليه يائسين ويعزون هولهم ويأسهم إلى القدر الطائش.

ليس الطيش في القدَر أيّها الرهبان. فما القدر غير اسم آخر من أسماء الإرادة الكليّة. إنّما الطيش في إرادة الإنسان الهوجاء، السائرة على غير هدى. فهي تقفز اليوم إلى الشرق وغدًا إلى الغرب. وهي تسِمُ هذا الأمر بسِمة الخير هاهنا، وبسمة الشرّ هنالك. وهي لا تقتبل الآن هذا الإنسان صديقًا إلّا لتحاربه فيما بعد عدوًّا.

أمّا أنتم فلا ينبغي لإرادتكم أن تكون طائشة، هوجاء. بل ينبغي لكم أن تعرفوا أنّ كلّ علائقكم بالناس والأشياء تتحدّد بما تريدونه منهم ويريدونه منكم. وما تريدونه من الناس والأشياء يُحدّد ما يريدونه منكم.

لذلك حذّرتكم قبل وأحذّركم الآن. انتبهوا لصدوركم بماذا تتنفّس، ولشفاهكم بماذا تنطق، ولقلوبكم ماذا تشتهي، ولأفكاركم بماذا تفكّر، ولأيديكم ماذا تعمل. لأنّ إرادتكم مكنونة في كلّ نفس من أنفاسكم، وكلمة من كلامكم، وشهوة من شهواتكم، وفكرة من أفكاركم، وعمل من أعمالكم. وما كان مكنونًا عنكم كان ظاهرًا للإرادة الكلّيّة.

لا تريدوا من أيّ إنسانٍ ما يلذّكم ويؤلمه، لئلّا تؤلمكم لذّتكم أكثر من ألمه. ولا تريدوا من أيّ شيء ما كان خيرًا لكم وشرًّا له، لَئلّا تريدوا بذلك الشرّ لأنفسكم. بل أريدوا من كلّ الناس والأشياء

محبّتهم. إذ بالمحبّة وحدها تُماطُ ا لحُجُب عن أبصاركم، ويشرق الفهم في قلوبكم. والفهم وحده يكشف لإرادتكم كلّ ما في الإرادة الكلّيّة من عجائب الأسرار.

إلى أن يحيط وعيكم بكلّ الكائنات لن تعوا كلّ ما تريده منكم وتريدونه منها.

وإلى أن تعوا كلّ ما تريدونه من كلّ شيء وما يريده كلّ شيء منكم لن تعرفوا أسرار الإرادة الكليّة.

وإلى أن تعرفوا أسرار الإرادة الكلّيّة حذار من أن تقيموا من إرادتكم خصمًا لها. لأنّكم خاسرون لا محالة. فستخرجون من كلّ معركة تخوضونها مثخنين بالجراح وسكارى بالعلقم. وستحاولون الأخذ بالثأر فلا ينالكم من ذلك إلّا جراح جديدة فوق القديمة وكؤوس جديدة طافحة بالعلقم البكر.

أقول لكم: اقبلوا الإرادة الكلّيّة إذا ما شئتم أن تحوّلوا الانكسار إلى غلبة. اقتبلوا بغير تذمّر كلّ ما ينهال عليكم من كشكولها السرّيّ؛ اقتبلوه شاكرين ومؤمنين بأنّه ما كان إلّا حصّتكم من الإرادة الكلّيّة وقد استحقّ دفعها. اقتبلوه بإرادة تصرّ على معرفة معناه وقيمته. حتّى إذا ما فهمتم سبل إرادتكم فهمتم سبل الإرادة الكلّيّة.

اقتبلوا ما تجهلون كيما يساعدكم على فهمه. عاندوه، يبقَ لغزًا مبهمًا ومؤلمًا.

لتكن إرادتكم جارية للإرادة الكلّيّة إلى أن يجعل الفهم المقدّس الإرادة الكلّيّة جاريةً لإرادتكم.

هكذا علّمت نوحًا. وهكذا أعلّمكم.

الفصل الثاني والعشرون

مرداد يريح زمورا من سرّه ويحدّث عن الذكر والأنثى وعن الزواج والتبتّل وعن الإنسان المتغلّب.

مرداد: إيه نروندا، يا ذاكرتي التي لا تخون! ماذا تقول لك هذه الزنابق؟

نروندا: لا شيء يمكنني سماعه يا معلّم.

مرداد: أمّا أنا فأسمعها تقول: «إنّا نحبّ نروندا ويسرّنا أن نقدّم إليه قلوبنا العطرة عربونًا لمحبّتنا».

إيه نروندا، يا قلبي الثابت في أمانته، ماذا تقول لك المياه في هذا الحوض؟

نروندا: لا شيء يمكنني سماعه يا معلّم.

مرداد: أمّا أنا فأسمعها تقول: «إنّا نحبّ نروندا، لذلك نروي عطشه وعطش زنابقه المحبوبة».

إيه نروندا، يا عيني اليقظى! ماذا يقول لك هذا النهار بكلّ ما يجترح من العجائب في ذراعيه المغمورتين بنور الشمس؟

نروندا: لا شيء يمكنني سماعه يا معلّم.

مرداد: أمّا أنا فأسمعه يقول: «إنّي أحبّ نروندا. ولذلك أؤرجحه بلطف في ذراعيّ المغمورتين بنور الشمس أسوةً بسواه من عيالي المحبوبة».

ما دامت لنروندا كلّ هذه الأشياء ليُحبّها ويكون محبوبًا منها أليست حياته ملأى إلى حدّ أن لا تتّسع للأحلام والأفكار الباطلة لكي تعشّش فيها وتبيض وتنقف؟

حقًّا، إنّ الإنسان لابن المسكونة المدلّل. فكلّ ما فيها يتنافس في ترفيهه وتغنيجه. ولكن قلّ من الناس من لا يفسدهم مثل هذا الدلال. وأقلّ من القليل أولئك الذين لا يعضّون اليد التي ترفّههم.

من لم يفسده الدلال يرى في لسعة الحيّة قبلة محبّة. أمّا الذين أفسدهم الدلال فيرون حتّى في قبلة المحبّة لسعةَ حيّة.

أحقّ ما أقول يا زمورا؟

نروندا: هكذا كان المعلّم يتكلّم عصر ذات نهار بينا هو وزمورا وأنا نسقي بعض الأزهار في حديقة الفلك. وكان زمورا في كلّ ذلك الوقت مشرّد الفكر. تائه البصر، كئيب الطلعة. وكأنّه استفاق من غيبوبة إذ فاجأه المعلّم بسؤاله، فأجفل وأجاب عن غير وعي:

زمورا: ما يقول المعلّم إنّه حقّ، ينبغي أن يكون حقًّا.

مرداد: ألا يصحّ ذلك فيك يا زمورا؟ أليس أنّك تسمّمت بقبلات كثيرة من شفاه الحبْ؟ ألست تتألّم الآن بذكرى حبّك المسموم؟

زمورا: (منطرحًا على قدمي المعلّم والدموع تنهمر من عينيه) تبًّا لجهلي يا معلّم، وجهل أيِّ إنسان يظنّ في إمكانه أن يخفي سرًّا عن عينيك حتّى في أعمق أعماق قلبه!

مرداد: (رافعًا زمورا إليه) بل تبًّا لجهل مَنْ يحاول أن يخفي سرًّا حتّى عن هذه الزنابق!

زمورا: أعرف أنّ قلبي ليس نظيفًا بعد لأنّ الحلم الذي حلمته في الليلة البارحة ما كان نظيفًا.

اليوم أريد أن أطهّر قلبي. أريد أن أتعرّى أمامك يا معلّمي، وأمام هاته الزنابق والديدان التي تدبّ حول جذورها في ظلمة التراب. أريد أن أطرح عن نفسي وقر السرّ الذي يكاد يسحقها سحقًا، فليحمله هذا النسيم الناعس إلى كلّ مخلوق في الكون:

أحببت في شبابي صبيّة كانت أجمل من كوكب الصبح. وكان اسمها أعذب لشفتيّ من النوم لعينيّ. وإخالني كنت أوّل من فهم كلامك واستلذّ ترياقه الشافي يوم كلّمتنا عن الصلاة وعن جيش الدم الجرّار. فلقد كان حُبّ حُجْلَة – ذلك هو اسم الصبيّة – قائدًا لدمي. ولقد عرفتُ حينئذٍ ما يستطيع الدم أن يأتيه من العجائب إذا ما توحّدت الإرادة التي تقوده.

بحب حُجْلة ملكت الأبديّة بل رحت ألبسها كخاتم في خنصري، ورحت أرتدي الموت درعًا. فكنت أشعر أنّي أقدَم من أوّل أمسٍ عبر، وأفتى من آخر غدٍ سيولد. ذراعاي كانتا تدعمان السماء، ورجلاي تديران الأرض. أمّا في قلبي فكانت تستعر شموس كثيرة.

لكنّ حُجلة ماتت وبموتها تحوّل زمورا، الذي كان فِينِقْسًا ملتهبًا، إلى كومة من رماد بارد خالٍ من الحياة، لا أمل بأن ينهض منها فِينِقْسٌ جديد. زمورا الذي كان عمودًا للسماء أصبح كومة أنقاض محزنة في بركة من المياه الآسنة. حينذاك جمعت ما أمكنني من بقايا زمورا وأسرعت إلى هذه الفلك راجيًا أن أدفن نفسي حيًّا بين ما علق بجدرانها من خيالات الطوفان وذكرياته، ولحسن طالعي وصلتها على أثر وفاة رفيق من رفاقها. فقُبلت في الحال.

مرّت خمس عشرة سنة والرفاق في هذه الفلك يرون زمورا ويسمعونه. أمّا سرّ زمورا فما رآه ولا سمعه منهم أحد. قد يكون أنّ جدران الفلك الدهريّة وسراديبها القاتمة لا تجهله؛ وأنّ الأشجار والأطيار في هذه الحديقة تعرف عنه شيئًا. لكنّ ما لا ريبة فيه هو أنّ أوتار قيثاري، يا معلّم، تستطيع أن تخبرك عن حُجلتي أكثر ممّا أستطيع.

وفي الوقت الذي بدأت فيه كلماتك تدفىء رماد زمورا وتنفخ فيه الحياة فتكاد تبعثه مخلوقًا جديدًا، في ذلك الوقت عينه خطر لحجلة أن تزور أحلامي. فكان من زيارتها أنّها ألهبت دمي حتّى الفوران. ثمّ طرحت بي من شاهق غبطتي الموهومة إلى حقيقة هذا النهار بكلّ ما فيها من حراب حادّة ونواتىء مسنّنة. وإذا بي مشعل مُطفَأ، ونشوة جهيضة، وكومة رماد عقيم.

آه، حُجلة، يا حُجْلة! اغفر لي يا معلّمي. فلا قدرة لي على وقف دموعي. أتكون الطبيعة البشريّة إلا طبيعة بشريّة؟ اشفق على لحمي ودمي. أشفق على زمورا.

مرداد: إنّ الشفقة ذاتها في حاجة إلى شفقة. لا شفقة عند مرداد. بل عنده محبّة فيّاضة لكلّ شيء حتّى للّحم والدم. وبالأكثر للروح الذي يتّخذ شكل اللحم والدم الخشن ليعود فيذيبه في لاشكليّته. ومحبّة مرداد ستنهض بزمورا من رماده وتجعل منه إنسانًا متغلّبًا.

إنّي أبشّر بالإنسان المتغلّب، الإنسان الموحَّد والمالك نفسه.

أمّا الرجل المستأسر لحبّ امرأة، والمرأة المستأسرة لحبّ رجل، فكلاهما ليس أهلًا لتاج الحريّة النفيس.

إنّي أبشّر بالإنسان المتغلّب، الإنسان/الفينقس المنعتق إلى حدّ ألّا يكون ذكرًا، والمتسامي إلى حدّ إلّا يكون أنثى. فمثلما الذكر والأنثى واحد في أسفل درجات الحياة وأكثفها، كذلك هما واحد في أسمى أجواء الحياة وأصفاها. وما الفسحة بين المرتبتين سوى قطعة من دائرة الأبديّة تسيطر عليها الثنائيّة. وهذه القطعة من الأبديّة تبدو للذين لا يبصرون ما قبل وما بعد كما لو كانت هي الأبديّة. فتبدو لهم الثنائيّة وكأنّها من الحياة لبّها وكنهها، جاهلين أنّ ناموس الحياة هو الأحديّة.

ليست الثنائيّة إلّا مرحلة في الزمان تبتدىء في الأحديّة وتنتهي إليها. فمن أسرع في اجتيازها أسرع في الاتّصال بحرّيته.

إنّما الرجل والمرأة، الإنسان الواحد ما كان واعيًا لوحدته. فانشطر إلى شطرين وأُكره على شرب علقم الثنائيّة كيما يعود فيتوق إلى رحيق الأحديّة. وإذ يتوق إليه يفتّش عنه بإرادة لا تُقهر. وإذ يفتّش عنه يجده ويحرص عليه بكلّ قوّته واعيًا ما فيه من حرّيّة لا توصف.

دعوا الجواد يصهل للفرس، والظبية تستغوي الظبي. إنّ الطبيعة نفسها تدفعهما على ذلك وتبارك ما يفعلان وتصفّق له. فهما لا يشعران بعد بغاية من وجودهما أسمى من التبذير وتجديد

النسل. كذلك دعوا الرجال والنساء الذين ما يزالون قريبين من الجواد والفرس والظبي والظبية، يفتّشون بعضهم عن بعض في عزلة اللحم والدم المظلمة.

دعوهم يموّهون دعارة المخادع الزوجيّة برخصة الزواج، دعوهم يفرحون بخصب ظهورهم وأرحامهم. دعوهم يجدّدون النسل. فالطبيعة ذاتها تفرح بأن تكون لهم إشبينة وقابلة. والطبيعة تفرش لهم أسِرّةً من الورود. لكنّها لا تنسى الأشواك.

أمّا الرجال والنساء التوّاقون إلى الانعتاق فعليهم أن يدركوا وحدتهم حتّى وهم في حالة اللحم والدم. لا بتزاوج اللحم والدم، بل بإرادة الانعتاق من سلطان اللحم والدم وكلّ العقبات التي يبثّانها في طريقهم إلى الوحدة الكاملة والفهم المقدّس.

كثيرًا ما تسمعون الناس يتكلّمون عن «الطبيعة البشريّة» كما لو كانت عنصرًا ثابتًا، تمّ لهم وزنه وقياسه، ودرسُ كلّ ما فيه، ثمّ تحديده من جهاته الأربع بما يدعونه «العاطفة الجنسيّة». فمن طبيعة البشر إرضاء الشهوة الجنسيّة. أمّا أن يلجم الإنسان شهوته الجنسيّة ويستعين بثوراتها الصاخبة على التخلّص من ثوراتها فذاك منافٍ للطبيعة البشريّة كلّ المنافاة، وعقباه وخيمة. هكذا يهرأون. فإيّاكم أن تعيروهم آذانكم.

الإنسان أكبر من أن يُحَدّ، وطبيعته أوسع من أن يحصرها وزن، ومواهبه أكثر من أن تحصى، وقواه أغزر من أن تنضب. فاحذروا الذين يحاولون أن يقيموا له تخومًا.

لا شكّ في أنّ طبيعة الإنسان الحيوانيّة تفرض عليه جزية ثقيلة. لكنّه يدفعها إلى حين. ومن منكم يرضى أن يدفع جزية إلى الأبد؟ أيّ رقيق إقطاعيّ لا يحلم بالتخلّص من نير أميره ودفع الجزية له؟ أيّ إنسان لا يطمح إلى الانفلات من سلطة الحيوان؟

ما وُلد الإنسان ليكون رقيقًا حتّى لناسوته. وهو أبدًا يحلم بالانعتاق من كلّ أنواع الرقّ. وستكون الحرّية نصيبه في النهاية.

ما هي صلة الرحم لمن يريد أن يتغلّب؟ إنّها لرباط ينبغي قطعه بإرادة لا تلتوي. فالمتغلّب يعرف أنّ دمه يرتبط بكلّ دم. لذلك لا يشعر برباط على الإطلاق.

دعوا غير التوّاقين يجدّدون النسل. أمّا التوّاقون فعليهم أن يخلقوا نسلًا آخر، نسل المتغلِّبين.

ونسل المتغلِّبين لا ينحدر من الظهر والرحم بل يصعد من القلوب المتبتّلة التي تقودُ دماءها إرادة التغلّب.

إنّي لأعرف أنّكم وكثيرًا مثلكم في العالم قد نذرتم العفّة على أنفسكم. ولكنّكم ما تزالون جدّ بعيدين عنها كما يشهد حلم زمورا في الليلة البارحة.

ليس عفيفًا كلّ من لبس ثوب راهب أو راهبة واحتجب عن الناس خلف جدران كثيفة وبوّابات حديديّة ضخمة. فما أكثر الرهبان والراهبات الذين هم أفظع فسقًا من أفسق الفاسقين حتّى وإن

أقسمت لحومهم، وأقسمت صادقةً، أنّها ما لاصقت يومًا لحمًا آخر لغاية فاجرة. أمّا الأعفّاء هم الذين عفّت قلوبهم وأفكارهم، أكانوا في ديرٍ أم في سوقٍ عمومية.

كرّموا المرأة يا رفاقي وقدّسوها. كرّموها لا أمًّا للنسل، ولا حليلةً، ولا حبيبةً، بل كرّموها لأنّها توأم الرجل وشريكته حصّة بحصّة في جهاد الحياة الثنائيّة الطويل وآلامها المبرّحة. فبدونها لا يستطيع الرجل أن يجتاز فسحة الثنائيّة. أمّا بها فسيجد وحدته، مثلما ستجد به خلاصها من الثنائيّة. والتوأمان سيتّحدان فيا بعد فيصبحان واحدًا – ذلك الواحد الذي ليس بالذَّكَر ولا بالأنثى، بل هو الإنسان المتغلّب، الإنسان الكامل.

إنّي أُبشّر بالإنسان المتغلّب، الإنسان الموحَّد والمالك نفسه. وكلّ منكم سيصبح متغلّبًا قبل أن يرفع مرداد نفسه من وسطكم.

زمورا: أمن الممكن أن تغادرنا يا معلّم؟ إنّ قلبي ليغتمّ في داخلي منذ الآن. وإذا ما جاء ذلك اليوم الذي تغادرنا فيه فزمورا سيضع نهاية لحياته لا محالة.

مرداد: لك أن تريد أشياء كثيرة يا زمورا. بل لك أن تريد كلّ شيء إلّا أن تريد ألّا تريد. فما إرادتك غير إرادة الحياة؛ وإرادة الحياة هي الإرادة الكلّيّة. وكيف للحياة التي هي كيان أن تريد عدم كيانها؟ كلّا. حتّى الله لا يستطيع أن يضع نهاية لزمورا.

أمّا ما كان بشأن مغادرتي إيّاكم، فلا بدّ من أن يأتيكم يوم تطلبونني فيه في الجسد فلا تجدونني. إذ أنّ لي شغلًا على غير هذه الأرض. لكنّني لا أبدأ عملًا أينما كان إلّا أُنهيه. فليطمئنّ قلبك يا زمورا. إذ أنّ مرداد لن يترككم قبل أن يجعل منكم متغلّبين، رجالًا موحّدين ومالكين أنفسهم. أنتم عندما تنالون الغلبة على أنفسكم وتهتدون إلى وحدتكم، تجدون مرداد ساكنًا في قلوبكم أبدًا، ولمعان اسمه لن يكمدّ في ذاكرتكم.

هكذا علّمت نوحًا.

وهكذا أعلّمكم.

الفصل الثالث والعشرون

مرداد يشفي سِمسِم ويكلّمنا في الشيخوخة.

نروندا: في جملة بقرات الفلك بقرة اسمها سِمْسِمْ. هي أكبرهنّ سنًّا وأعتقهنّ في إسطبل الفلك. وقد بلغ شمادم أنّ مرضًا ألمّ بها وأنّها لخمسة أيام خلت ما ذاقت علفًا على الإطلاق. فأرسل في طلب القصّاب ليذبحها قائلًا إنّه خير للفلك أن تنتفع بثمن لحمها وجلدها من أن تخسرها برمتها.

فما كاد المعلّم يسمع بذلك حتّى تقطّب حاجباه وأسرع في الحال إلى الإسطبل. وتبعه السبعة على الأثر.

كانت سِمْسِمْ واقفة بغير حراك والكآبة الصمّاء عالقة بكلّ شعرة من شعراتها الباهتة المنتصبة كأنّها شعر السنّور وقد بغته كلب. وكان رأسها منحنيًا إلى صدرها، وعيناها مطبقتين حتّى النصف. وبين الآونة والأخرى كانت تحرّك إحدى أُذنيها حركة بطيئة، خفيفة، لتطرد عنها ذبابة ثقيلة. أمّا ضرعها الكبير فكان كالجراب الفارغ بين فخذيها لأنّها، وقد قاربت نهاية عمر طويل، أصبحت محرومةً من أوجاع الأمومة الحلوة. وأمّا حرقفتاها فقد انتصبتا كأنّهما حجران على ضريح. ونفرت أضلاعها وفقرات سلسلتها فكان من السهل عدّها واحدة واحدة. وتدلّى ذيلها الجميل بطوله ودقّته حتّى كاد يلمس الأرض بالشعر الذي في آخره.

دنا المعلّم من البهيمة المريضة وأخذ يحكّ لها ما بين قرنيها وعينيها وتحت ذقنها. ثمّ راح من حين إلى حين يمرّ بيده على ظهرها وبطنها مكلّمًا إيّاها كما لو كان يكلّم مخلوقًا ناطقًا:

«أين جِرّتكِ يا سِمْسِمْ السخيّة؟ لقد انشغلت سِمْسِمْ بالعطاء إلى حدّ أن نسيت أن تحتفظ لنفسها حتّى بجرّة تلهو بها. وسِمْسِمْ ستعطي كثيرًا بعد. ها هي عجولها القويّة ما تزال تجرّ المحاريث الثقيلة في حقولنا. وها هي عجالها الهيف تملأ مراعينا بصغارها. وها هي فضلات سِمْسِمْ ما برحت تزيّن مائدتنا بالخضروات الطيّبة والفاكهة الشهيّة من بساتيننا.

إنّ أوديتنا لتردّد حتّى اليوم خوار سِمْسِمْ القويّ. وينابيعنا لتعكس حسن وجهها اللطيف، الحنون. وإنّ تربتنا لتفخر بآثار أظلافها التي لا تمّحي وتحتفظ بها ذكرى طيّبة وغالية.

أعشابنا تُسَرّ بأن تغذّي سِمْسِمْ، وشمسنا بأن تدغدغها، ونسماتنا بأن تتزحلق على فروها الناعم اللماع. وإنّها لغبطة لمرداد أن يقطع بها مفازة الشيخوخة ويكون دليلها إلى مراعٍ غير مراعينا في أرضٍ شموسها غير شمسنا، ونسماتها غير نسماتنا.

إنّ ما أعطته سِمْسِمْ حتّى اليوم لكثير، وكثير جدًا. وإنّ ما أخذته لكثير، وكثير جدًا. لكنّها ستعطي الكثير بعد. وستأخذ الكثير».

ميكاستر: أتستطيع سِمْسِمْ أن تفهمك حتّى تكلّمها كما لو كان لها فهم الإنسان؟

مرداد: ما السرّ في الكلمة يا ميكاستر. السرّ في المويجات والإشعاعات المنطلقة من الكلمة وهذه تحسّها حتّى البهيمة. وعلاوة على ذلك، فأنا أبصر امرأة تتطلّع إليّ من خلال عين سِمْسِمْ الوديعة.

ميكاستر: ما النفع من مخاطبتك سِمْسِمْ بمثل هذا الكلام؟ ألعلّك ترجو بذلك أن تصدّ عنها هجمات الشيخوخة فتطيل بعمرها؟

مرداد: إنّما الشيخوخة عبء هائل للإنسان وللبهيمة بالسواء. ولقد زاده الناس هولًا بإهمالهم وقساوة قلوبهم. فهم يغمرون المولود الجديد بأقصى ما عندهم من العطف والحنان. أمّا على المثقل بالسنين، فيجودون بقلّة اكتراثهم أكثر من جودهم بعنايتهم، وبتقزّزهم أكثر من عطفهم. وعلى قدر ما يُفرحهم أن يروا الرضيع يدرج من مهده إلى شبابه، يفرحهم أن يروا الشيخ يحبو من فراشه إلى لحده.

يتساوى الرضيع والهرم في عجزهما وافتقارهما إلى المعونة.

لكنّ عجز الرضيع يجذب إليه المحبّة والمعونة والتضحية من جميع الناس. بينا عجز الهرم يدفع عنه المحبّة والتضحية، وإن هو حظي بمعونةٍ من أحد، فعن كرهٍ واشمئزاز. حقًّا إنّ عجز الهرم لأحرى بالعطف من عجز الرضيع.

عندما تغدو الأذن، التي كانت فيما مضى تلتقط أخفّ الهمسات، ثقيلةً إلى حدّ أن لا تلجها الكلمة إلّا من بعد أن تقرعها قرعًا طويلًا عنيفًا؛ وعندما تصبح العين التي كانت مرآة صافية الأديم، مرقصًا لأغرب الأشكال والأشباح؛ والرِّجل التي كانت مجنّحة، تصير قطعة من رصاص؛ واليد التي كانت تقولب الحياة، تمسي قالبًا محطّمًا؛ عندما تنخلع الركبة من حِقِّها، ويغدو الرأس ألعوبة راقصة على الكتفين؛ وعندما تبرى حجارة الرحى، وتصبح الطاحون مغارة خاليةً خاويةً؛ وعندما يرافق النهوض عرقُ الخوف من السقوط، ويرافق الجلوس، الوجلُ من عدم القدرة على النهوض؛ عندما تُنغّصُ لذّةَ الأكلِ والشرب، مخافةُ ما يعقبُ الأكلَ والشربَ، ولا يُستطاعُ الانقطاعُ عن الأكل

والشرب مخافةً من شبح الموت – أجل، عندما تدهم الشيخوخة الإنسانَ، عندئذٍ يا رفاقي ينبغي أن تعيروه آذانًا وعيونًا، وأن تعطوه أيديَ وأرجلًا، وأن تدعموا قوّته المنهزمة منه كيما تجعلوه يشعر أنّه في شيخوخته ليس بأقلّ قيمة في نظر الحياة منه في صباه وفتوّته.

قد لا تكون الثمانون من السنين أكثر من لمحة في الأبديّة. أمّا الإنسان الذي راح يزرع نفسه في خلال ثمانين سنة، فإنّه لأكثر من لمحة.

ألستم تحصدون حتّى في هذه اللحظة، حياة كلّ من مشى قبلكم ويمشي على الأرض من رجال ونساء؟ فما هي اللغة التي تتكلّمون، إن لم تكن حصادًا من لغاتهم؟ ما هي أفكاركم، إن لم تكن لقاطًا من أفكارهم؟ بل ما هو لباسكم وغذاؤكم؟ وما هي نُظُمكم وتقاليدكم واصطلاحاتكم، إن لم تكن لباسَ من سبقكم وغذاءَهم ونظمَهم وتقاليدَهم واصطلاحاتِهم.

ومن ثمّ فأنتم لا تحصدون هذا الشيء أو ذاك في هاته الآونة أو تلك، بل تحصدون كلّ شيء في كلّ آنٍ. فأنتم الزارعون، وأنتم الحَصَاد والحصّادون، وأنتم الحقل والبيدر كذلك. إن يكن من قحط في حصادكم، ففتّشوا عن السبب في البذار الذي بذرتموه في الغير أو أذنتم للغير بأن يبذره فيكم. فتّشوا كذلك في الحصّاد وفي منجله، ثمّ في الحقل والبيدر.

إنّ شيخًا حصدتم حياته وخزنتموها مع ما تكدّس في أهرائكم من غلال، لحَريٌّ حقًّا بأقصى عطفكم وعنايتكم. وأيّامه الأخيرة ما تزال غنيّة بخيرات كثيرة تحصدونها إن أنتم أحسنتم الحصاد. فإذا ما نغّصتموها بمرارة إهمالكم، تحوّل كلّ ما حصدتموه وما ستحصدونه من حياة، مرارةً في أفواهكم. كذلك هي حالكم مع بهيمة أدركتها الشيخوخة.

حرام أن تنعموا بالغلّة ومن ثمّ أن تلعنوا الزارع والحقل.

عليكم بالرفق بكلّ الناس يا رفاقي من أيّ جنس ومن أيّ إقليم كانوا. فما هم غير زادكم في سفركم نحو الله. ولكن عليكم بالرفق على الأخصّ بالرازحين تحت أعباء الشيخوخة لئلّا تفسدوا زادكم بقساوة قلوبكم فلا تبلغوا نهاية سفركم.

عليكم بالرفق بالحيوان من أيّ جنس أو عمر كان. فما الحيوان الأبكم سوى مساعدٍ أمين لكم في إعداد العُدّة لسفركم الطويل الشّاقّ. ولكن عليكم بالرفق على الأخص بالحيوان في هَرمه لئلّا تحوّلوا أمانته خيانةً بقساوة قلوبكم، فيصبح عقبةً في سبيلكم بدلًا من أن يكون مساعدًا لكم.

إنّه لأخسّ درجات النكران للجميل أن تسمنوا بلبن سِمْسِمْ، وعندما لا يبقى عندها من لبن لتعطيكم، أن تحزّوا حلقومها بسكّين القصّاب.

نروندا: ما كاد المعلّم يقول ذلك حتّى دخل شمادم ومعه القصّاب. وهذا الأخير مشى توًّا إلى سِمْسِمْ. ولكنّه ما وقع بصره عليها حتّى سمعناه يصرخ متهكّمًا: «كيف تقولون إنّ هذه البقرة

مريضة وتوشك أن تموت؟ إنّها لأحسن صحةً منّي. والفرق أنّها جائعة حتّى الموت وأنا شبعان حتّى التخمة. إيتوها بعلف».

ولشدّ ما ذهلنا عندما نظرنا إلى سِمْسِمْ وإذا بها في الواقع تجترّ. وما كان شمادم أقلّ فرحًا بذلك من أيّ منّا. فقد أمر في الحال بأن يؤتى لِسْمسِمْ بأفخر ما تستلذّه البقرة من العلف. وراحت سِمْسِمْ تأكل علفها بشهيّة عظيمة.

الفصل الرابع والعشرون

أحَرام أن نذبح لنأكل؟

نروندا: ومن بعد أن انصرف شمادم والقصّاب التفت ميكايّون إلى المعلّم وسأله:

ميكايّون: أحرام يا معلّم أن نذبح لنأكل؟

مرداد: مَن تغذّى بالموت كان غذاءً للموت. ومَن عاش بألم الغير كان فريسة للألم. بذاك قضت الإرادة الكلّيّة يا ميكايّون. أعرف ذلك واختر لنفسك ما تريد.

ميكايّون: لو كان لي أن أختار لاخترت أن أعيش بعبير الأرض والسماء.

مرداد: نعمّا الخيار يا ميكايّون. صدّق أنّه سيأتي يوم يعيش فيه الناس بعبير الأشياء الذي هو روحها لا بلحومها ودمائها. وما ذلك اليوم ببعيد للتوّاقين. فالتوّاقون يعلمون أنّ حياة اللحم والدم ليست سوى العبّارة إلى الحياة التي لا لحم لها ولا دم. والتوّاقون يعلمون أنّ الحواس الخشنة المتناهية ليست سوى نوافذ ضيّقة يطلّون منها على عالم الحسّ اللامتناهي برقّته ودقّته. والتوّاقون يعلمون أنّ من مزّق لحمًا تحتّم عليه رتقه بلحمه، ومن أراق دمًا أُكره على التعويض عنه من دمه. لأنّ تلك هي سنّة اللحم والدم.

والتوّاقون يريدون الانعتاق من رقّهم لهذه السنّة. ولذلك يخفّفون من حاجاتهم الجسديّة إلى أقصى حدّ. وهكذا يخفّفون من دَينهم للّحم والدم الذي ليس سوى دينٍ للألم والموت.

للتوّاقين رادع من إرادتهم ومن توقهم. أمّا غير التوّاقين فرادعهم في ألسِنة الغير. لذاك يحلّلون لأنفسهم الكثير ممّا يحرّمه التوّاق على نفسه.

غير التوّاق لا يشبع من الزيادة في ما يحشو به بطنه وجيبه. في حين يمشي التوّاق في سبيله ولا جيب له، وبطنه براء من لحم أيّ مخلوق ورعشته لدى الموت. فالذي يربحه غير التوّاق، أو يظنّ أنّه يربحه في الكمية، يربح نقيضه التوّاق من خفّة في أثقال الروح ومن حلاوة الفهم.

تمثّلوا رجُلين ينظران إلى حقل أخضر. أحدهما يقدّر غلّة الحقل من الحنطة ثمّ يحسب ثمن الحنطة بالفضّة والذهب. بينا الآخر يشرب خضرة الحقل بعينيه، ويقبّل بفكره كلّ وريقة من أعشابه، ويتآخى بروحه مع كلّ جُذَيْر من جذيراته، وحُصيبة من حصبائه، وذُرَيرة من ترابه.أقول لكم إنّ هذا الأخير هو بحقّ صاحب الحقل وإن يكن الأوّل يملك صكًّا مسجّلًا به.

أو تمثّلوا رجُلين جالسين في بيت، أحدهما صاحب البيت والآخر ضيف عنده. أمّا صاحب البيت فيتبجّح بأكلاف البناء، وبأثمان الستائر على النوافذ، وجودة الطنافس وباقي الرياش في البيت. وأمّا الضيف فيصغي إليه مباركًا في قلبه الأيدي التي اقتلعت الحجر وهندمته وبَنَته؛ والأيدي التي حاكت الستائر والطنافس؛ والأيدي التي غزت الغابة فحوّلت أشجارها شبابيك وأبوابًا وكراسي وطاولات. وإذ يبارك تلك الأيدي يتمجّد بروحه، ممجّدًا اليد المبدعة التي كوّنت كلّ هذه الأشياء.

أقول لكم إنّ الضيف هو ساكن ذلك البيت الأصيل. أمّا صاحب البيت فليس سوى بهيمة تحمل البيت وكلّ ما فيه على ظهرها ولكنّها لا تسكنه.

أو تمثّلوا رجُلين يشاركان عجلًا في لبن أُمّهِ. واحدهما يتفحّص العجل بعينٍ لا تبصر فيه إلّا لحمًا طريئًا يصلح للوليمة التي يزمع أن يولمها قريبًا لأصحابه في عيد مولده. والثاني كلّما نظر إلى العجل وجد فيه أخًا له في الرضاعة. فامتلأ قلبه حنوًّا على العجل وأمّه.

أقول لكم إنّ الثاني يتغذّى حقًّا بلحم العجل. أمّا الأول فلا يناله منه إلّا التسمّم.

ما أكثر الأشياء التي تُزجّ في البطن وكان من الأجدر أن تزجّ في القلب.

وما أكثر ما يخزنه الناس في الجيب وبيت المؤونة وكان أحقّ بأن يخزن في العين والأنف.

وما أكثر ما يسحقه الناس بأضراسهم وكان الأحرى أن يمضغوه بأفكارهم.

إنّ ما يحتاج إليه الجسم لتغذيته لزهيد جدًّا. فهو أجود ما يكون عليكم عندما تبخلون عليه. وهو أبخل عليكم عندما تجودون عليه. إن دلّلتموه ذلّلكم. أو ذلّلتموه دلّلكم. حقًّا إنّ ما كان خارج البطن وبيت المؤونة لأكثر غذاءً للناس منه في بيت المؤونة والبطن.

ونظير ما تدعوكم الأرض إلى مائدتها غير ممسكة عنكم شيئًا ممّا عندها، كذلك عليكم أن تدعوا الأرض إلى مائدتكم قائلين لها بأقصى ما فيكم من المحبّة والإخلاص:

«أيّتها الأمّ التي لا يُنطق بها! ها أنا أبسط قلبي أمامك لتأخذي منه حاجتك مثلما تبسطين أمامي قلبك لآخذ منه حاجتي».

إذا كان ذلك شأنكم حقًّا مع الأرض، وكان ذلك الروح في قلوبكم وعيونكم إذ تمدون أيديكم لتتناولوا من قلب الأرضد، فلا حرج إذ ذاك عليكم في ما تأكلون وتشربون. ولكن إذا كان ذلك الروح روحكم حقًّا، كان لا بدّ لكم من حكمة تردعكم ومحبّة تنهاكم عن أن تثكلوا الأرض بأحدٍ من أبنائها – لا سيما أولئك الذين بلغوا درجة الحسّ بلذّة الحياة وألم الموت فكانوا مثلكم ضمن منطقة

الثنائيّة. فهؤلاء كذلك أمامهم طريق لا بدّ من قطعها إلى الأحديّة. وطريقها أطول من طريقكم وأكثر اعوجاجًا وعقبات. وإن أنتم عرقلتم مسيرهم عرقلوا مسيركم.

أبيمار: ما دام كلّ حيّ حتمًا إلى الموت، فما عليّ لو كنت سبب موت هذا الحيوان أو ذاك؟

مرداد: وإن يكن كلّ حيّ محكومًا بالموت، فالويل مع ذلك، لمن كان سببًا في موت أيّ حيّ. مثلما لا تنتدبني يا أبيمار لقتل نروندا لأنّك تعرف عظيم محبتي له وتعرف أن ليس في قلبي من شهوة للقتل، كذلك لا تنتدب الإرادة الكلّيّة إنسانًا لقتل أخٍ له في الناسوت، أو لقتل حيوان ما، ما لم تجد فيه أداة صالحة للقتل.

ما دام الناس على ما هم، دامت بينهم السرقات، والحروب، والكذب، والقتل، وكلّ أصناف الشهوات الشرّيرة، المظلمة. ولكن ويل للسارق وللصّ؛ وويل للكذوب وربّ الحرب؛ وويل للقاتل وكلّ من كان قلبه ملجأ للشهوات السود. فهؤلاء تستخدمهم الإرادة الكلّيّة رسلًا للويل.

أمّا أنتم يا رفاقي فعليكم أن تطهّروا قلوبكم من كلّ شهوة شرّيرة، سوداء، كيما تختاركم الإرادة الكلّيّة لتحملوا إلى العالم الذي نهكه الألم، بشارة الخلاص من الألم؛ بشارة التغلّب؛ بشارة الانعتاق بواسطة المحبّة والفهم.

هكذا علّمت نوحًا.

وهكذا أعلّمكم.

الفصل الخامس والعشرون

يوم الكرمة والاستعداد لاستقباله، مرداد يختفي عشيّة العيد.

نروندا: واقترب يوم الكرمة فراح كلّ من في الفلك يعملون ليل نهار في إعداد العُدّة للعيد العظيم، تساعدهم في ذلك شرذمة من الرجال المتطوّعين من خارج الفلك. وكان المعلّم أسبقنا وأشدّنا حماسة فما كان يشفق على جسمه من التعب. حتّى أنّ شمادم لحظ ذلك فما أخفى سروره به.

لقد كان علينا أن ننظّف أقبية الفُلك الواسعة ونَدُمّ جدرانها بالكلس، وأن نُعدّ الخوابي والبراميل الفارغة لاقتبال النبيذ الجديد. ونخرج الملأى من مكامنها إلى حيث يتمكّن الراغبون في الشراء من فحص النبيذ الذي فيها. فقد جرت العادة في كلّ عيد من أعياد الكرمة أن يُباع نبيذ العيد الذي قبله.

وكان علينا كذلك أن ننظّف ونرتّب باحات الفلك الفسيحة وأن نضرب فيها مئات الخيام لاستقبال الحجّاج والتجّار طيلة أسبوع العيد. ثمّ أن نهتمّ بالمعصرة ونعدّها لاقتبال الكمّيات الباهظة من العنب التي كانت تأتينا في مثل هذا اليوم من كلّ عام من شركاء الفلك وأنصارها محمولة على ظهور مئات الحمير والبغال والجمال. وكان لا بدّ لنا كذلك من خَبز كمّيّات وافية من الخبز لتباع للذين لا تكفيهم مؤونتهم أو الذين يأتون العيد بلا مؤونة البتّة.

لقد كان عيد الكرمة فيما مضى يومًا واحدًا مكرّسًا لتقديم الشكران لله. لكنّ شمادم، بما أوتيه من حنكة تجاريّة عظيمة، ما عتّم أن جعل منه أسبوعًا كاملًا تُعرض فيه كلّ أصناف الأمتعة وتجري في خلاله المهرجانات، فيأتيه الناس من كلّ فجّ وصوب، أميرهم وحقيرهم، فلّاحهم وصانعهم، الزائر التقيّ والمتشرّد الكافر، رجل الهيكل ورجل الخمّارة. بعضهم يفتّش عن هذه اللّذة وبعضهم عن تلك. مثل هذه الغزوة كانت تشهدها قمّة المذبح مرّتين في كلّ عام، في يوم الكرمة في الخريف، ويوم الفلك في الربيع. ويندر لزائر أن يأتي الفلك في أحد هذين العيدين من غير أن

يحمل إليها هديّةً ما. أمّا الهدايا فتراوح ما بين عنقود من العنب أو كوز من الصنوبر وبين عقد من اللؤلؤ أو الألماس.

وعلاوة على ذلك فللفلك ضريبة على كلّ ما يباع بمعدّل عشرة بالمائة من الثمن.

ومن التقاليد المرعيّة في أوّل يوم من مهرجان الكرمة أن يجلس الرئيس على دكّة عالية قائمة تحت عرش تدلّت من فوقه عناقيد الكرمة، فيؤهّل بالجماهير ويباركهم، ثمّ يبارك هداياهم ويقتبلها منهم، وأخيرًا يشرب معهم الكأس الأولى من النبيذ الجديد. وطريقة ذلك أن يسكب الخمر من قرعة طويلة العنق في كوب يحمله في يده، ثمّ أن يناول القرعة لأحد الرفاق بجانبه لتدار على الجمهور، فتُملأ كلّما فرغت إلى أن يملأ الكلّ أكوابهم. وعندها يسأل الرئيس الجمهور أن يرفعوا الأكواب عاليًا ويرتّلوا معه نشيد الكرمة المقدّسة الذي يروى عن أبينا نوح أنّه رتّله وعائلته عندما ذاقوا الكرمة لأوّل مرّة. وإذ ينتهي الحضور من ترتيل النشيد يشربون أكوابهم هاتفين هتافات الفرح. ومن بعدها يتفرّقون كلّ في سبيل تجارته أو لذّته. وهذا هو نشيد الكرمة:

مجّدوا الكرمة البتولْ!
مجّدوا جذورها
مجّدوا بذورها
مجّدوا عصيرها
ساحر العقولْ
مجّدوا الكرمة البتولْ

يا رهائن التّرابْ،
يا مساخر السّرابْ،
يا بيادر العذابْ،
اكرعوا الذهولْ
في دم الكرمة البتولْ

يا مقابر السلفّ،
ومنابر الخَلَفْ،
احفظوا من التّلفْ
غرسةً تقولْ:
«من دمي تسكر الفصول»
مجّدوا، مجّدوا،

مجْدوا الكرمة البتولْ!

في صباح اليوم السابق لافتتاح العيد طلبنا المعلّم فلم نجده. فاضطرب السبعة أيّما اضطراب، وفي الحال انطلقوا يفتّشون عنه. فتّشوا كلّ النهار وكلّ الليل، بالمشاعل والمصابيح، في الفُلك وفي جوار الفُلك، لكنّهم ما عثروا له على أثر. ولقد أبدى شمادم من الاهتمام بالأمر همّا نفى من أذهاننا كلّ شكّ في براءته. إلّا أنّنا كنّا على يقين من أنّ المعلّم ذهب ضحيّة يد أثيمة.

وأخيرًا ابتدأ المهرجان الكبير والسّبعة يتنقّلون من مكان إلى مكان كأنّهم سبعة أشباح، لا يتحرّك لأحدهم لسان من شدّة الحزن. ورتّلت الجماهير نشيد الكرمة، ونزل الرّئيس عن دكّته. وإذا بصوت يهتف عاليًا فيتغلّب على ضجّة الجماهير وضوضائهم: «نريد أن نرى مرداد. نريد أن نسمع مرداد».

ما كان ذلك الصوت إلّا صوت رستيديون الذي كان قد أذاع في أماكن كثيرة ما فعله معه المعلّم وما قاله له. وسرعان ما التقطت الجماهير هتافه فما كنت تسمع إلّا صراخًا يشقّ عنان السماء «نريد أن نرى مرداد. نريد أن نسمع مرداد». فاغرورقت أعين السبعة بالدموع وشعروا كأنّ كلّابات كانت تشدّ على حلاقيمهم.

وبغتةً هدأت الضوضاء وهبطت على الجمع سكينة رهيبة. فما كدنا نصدّق أبصارنا عندما التفتنا فرأينا مرداد واقفًا على الدكّة العالية تحت العريش وقد رفع يده إلى الجمهور طالبًا السكوت.

الفصل السادس والعشرون

مرداد يخطب في جماهير الحجّاج يوم الكرمة
ويعتق الفلك من بعض أثقالها.

مرداد: ها هو مرداد. ها هي الكرمة التي ما جُني نتاجها ولا شُرب دمها بعد.

إنّ مرداد لمثقل بقطوفه. لكنّ القاطفين لاهون عنه في كروم أخرى. وإنّ دمه لفي انتظار الكأس. لكنّ السقاة والشاربين سكارى بخمر غير خمره.

يا رجال المِحراث والمِعول والمِشذَب! إنّي أبارك محاريثكم ومعاولكم ومشاذبكم. ماذا عساكم حرثتم ونكشتم وشذّبتم حتّى اليوم؟

أحَرثتم الأرض السباخ التي في نفوسكم وقد اشتبكت أشواكها إلى حدّ أن أصبحت كالغابة الملتفّة الأدغال تأوي إليها وتتكاثر فيها كلّ أصناف الزّحّافات البشعة والضواري الشرسة؟

أنكشتم الجذور الخبيثة الملتفّة حول جذوركم في ظلمات المعاصي والتي تخنق ثماركم في الأكمام؟

أم شذّبتم ما نخره السوس من جذوعكم وأتلفته عساكر الطفيليّات من أغصانكم؟

إنّكم لتجيدون حراثة كرومكم الأرضيّة ونكشها وتشذيبها. أمّا الكرم غير الأرضيّ الذي هو أنتم فما يزال سباخًا مهملًا كلّ الإهمال.

باطل كلّ ما تعملون ما لم تهتمّوا بالكرّام قبل اهتمامكم بالكرم!

يا ذوي الأيدي التي خشّنها العمل! إنّي أبارك خشونة أيديكم. يا أصدقاء الشاقول وميزان الزئبق، وندماء المطرقة والسندان، ورفقاء الإزميل والمنشار، ما أبرعكم كلّ في الحرفة التي اختارها لنفسه وما أوفر كفاءتكم!

إنّه لمن السّهل عليكم أن تعرفوا من الأشياء مستواها وأعماقها. أمّا مستواكم وأعماقكم فما تجدون إلى معرفتها سبيلًا.

وما أليق أيديكم تطرّق قطعة من الحديد الخام على السندان فتخلق منها الشكل الذي تريدون. أمّا الإنسان الخام فما عرفتم بعد كيف تطرّقونه بمطرقة الإرادة على سندان الفهم. ولا أنتم تعلّمتم من السندان كيف تقتبلون الضربة من غير أن تقابلوها بضربة.

ثمّ ما أحذقكم في استعمال الإزميل والمنشار، سواء في الخشب وفي الحجر. أمّا الإنسان المعوجّ والمعقّد فما تعرفون كيف تقوّمونه أو كيف تزيلون منه عقده.

باطلة كلّ حرفةٍ تحترفون، ما لم تطبّقوا قواعدها على المحترِفِ أوّلًا.

أيّها المتاجرون لأجل الكسب بحاجات الناس إلى نِعَم أمّهم الأرض وإلى ما تنتجه أيدي إخوانهم من الناس! إنّي أبارك الحاجات، والنعم، والنتاج، وأبارك حتّى التجارة. أمّا الكسب، وهو في الواقع خسارة، فلا يجد بركة في فمي.

عندما تختلون بأنفسكم في هدأة من الليل مثقلة بأرقام القَدَر وتأخذون في تصفية حساب نهاركم، ماذا عساكم تحسبونه ربحًا وماذا تحسبونه خسارة؟ أتحسبون ربحًا ما جمعتموه من المال علاوة على ما أنفقتموه؟ إذن يا لضياع نهار بعتموه بكميّة من المال مهما تكن وافرة، ويا لضياع قلوب الناس التي حملها ذلك النهار على كفّه هدايا لكم!

إن يكن كلّ همكم من الناس محصورًا في ما حوته جيوب الناس، فأنّى لكم الوصول إلى قلوبهم؟ وأنتم إن لم تجدوا السبيل إلى قلوب الناس، تعذّر عليكم الوصول إلى قلب الله. وأنتم ما لم تبلغوا قلب الله فأيّ جدوى لكم من حياتكم؟ إنّها خسارة.

إن يكن ربحكم خسارة، فيا لفداحة خسارتكم! باطلة كلّ تجارتكم ما لم تحسبوا ربحكم محبّةً وفهمًا.

يا رجال التاج والصولجان! إنّما الصولجان صِلّ في يدٍ تُسرع في الجرحِ وتبطيء في الضمد. أمّا في اليد الحاملة بلسم المحبّة فهو كقضيب الصاعقة يردّ الويل والدمار.

ألا تفحّصوا أيديكم بإخلاص ودِقّة.

وإنّ تاجًا من الذهب الإبريز المرصّع بالألماس والياقوت والزمرّد لَيَجلس جلسةً متقلقلة، كئيبة، على رأسٍ نفخه الإدّعاء، والكبرياء، والجهل، والمجد الباطل، وشهوة التسلطن على الناس. في حين أنّ تاجًا من أنفس اللآليء وأصفاها ماءً ليخجل من حقارته إذا ما دعي للجلوس على رأس تكلّله هالةٌ من الفهم والتغلّب على النفس.

ألا تفحّصوا رؤوسكم بإخلاصٍ ودقّة.

أتريدون أن تحكموا الناس؟ إذنْ تعلّموا أوّلًا أن تحكموا نفوسكم. إذ كيف لكم أن تحكموا الغير حكمًا صالحًا من قبل أن تحكموا نفوسكم حكمًا صالحًا؟ أتستطيع موجة ترغي وتزبد تحت سياط العاصفة أن تحمل السكينة والسلام إلى البحر؟ أم عين دامعة أن تُنفِذ بسمةَ الغبطة إى قلب دامع؟ أم يدٌ ترتجف ذعرًا أو غيظًا أن تدير دفّة سفينة وتسيّرها في السبيل السويّ؟

إنّ حكّام الناس محكومون من الناس. وما أكثر ما في الناس من صخب، وقلق، وفوضى. فهم كالبحر معرّضون لكلّ ريح من رياح السماء. وكالبحر لهم مدّهم وجزرهم ويكادون في بعض الأحايين أن يطغوا على الشواطىء. ولكنّهم كالبحر في أعماقهم حيث لا أنواء ولا زبد ولا رغوة، بل سكينة وسلام وطمأنينة.

إذا ما شئتم أن تحكموا الناس فعليكم بالغوص إلى أعماقهم. فالناس أكثر من أمواج مزبدة. إلّا أنّكم لن تبلغوا أعماق الناس ما لم تغوصوا إلى أعماقكم أوّلًا. ولن تتمكّنوا من الغوص إلى أعماقكم إلّا من بعد أن تطرحوا الصولجان والتاج جانبًا كيما تفرغ يدكم فتستطيع أن تتلمّس السبيل، ويستريح رأسكم من حملهِ فيتاح له أن يفكّر ويقدّر ويستنتج. باطل هو حكمكم، وفاسدة هي شرائعكم، وفوضى هو نظامكم ما لم تروّضوا الإنسان الجموح فيكم الذي لا يستهويه شيء مثلما يستهويه اللعب بالصوالجة والتيجان.

يا رجال الكتاب والمبخرة! ماذا عساكم تحرقون في المبخرة، وماذا تقرأون في الكتاب؟

أتحرقون دمًا نزّ ثمّ تجمّد من أفئدة نباتات معلومة؟ ولكنّ ذلك يباع ويشرى في الأسواق، ومقدار درهم منه يكفي لإزعاج أيّ إله.

أتظنّون رائحة البخور تقوى على نتانة البغض والحسد والطمع، وعلى مراوغة الأعين المخاتلة، ونفاق الألسنة النمّامة، وقذارة الأيدي الفاسقة، وعلى رياء الإلحاد يتبختر في جبّة الإيمان، والتكالب على حطام الأرض ينفخ في أبواق القناعة الفردوسيّة؟

إنّ ربّكم ليؤثر على رائحة البخور رائحةَ هذه الأشياء كلّها وقد أمتّموها جوعًا، ثمّ أحرقتموها في قلوبكم، ثمّ ذرّيتم رمادها لرياح السماء الأربع.

ماذا عساكم تحرقون في المبخرة؟

أتحرقون ترضية وسبحًا وابتهالًا؟ لَخيرٌ لكم أن تتركوا إلهًا غضوبًا ينشقّ بغضبه، وإلهًا جائعًا أبدًا إلى التسبيح، أن يقضي جوعًا؛ وإلهًا قاسي القلب أن يموت بقساوة قلبه.

ما كان الله يومًا غضوبًا ولا نهمًا في حبّه للتمجيد، ولا قاسي القلب. ولكنّكم أنتم الغضاب والجائعون إلى التمجيد وقساوة القلوب.

لا بخورًا يريدكم الله أن تحرقوا أمامه، بل يريدكم أن تحرقوا غضبكم وكبرياءكم وقساوة قلوبكم، كيما تكونوا أحرارًا وقديرين على كلّ شيء مثله.

وماذا عساكم تقرأون في الكتاب؟

أتقرأون وصايا تسطّرونها بماء الذهب على جدران المعابد وقببها؟ أم تقرأون حقائق حيّة تحفرونها على ألواح القلب؟

أتقرأون عقائد تعلّمون بها من على المنابر، وتدافعون عنها بالمنطق وكلّ أصناف الحيل الكلاميّة، وإن لم تنجحوا في ذلك فبالمال وبحدّ السيف؟ أم تقرأون حياةً ليست عقيدة تحتاج إلى دفاع، بل هي طريق عليكم أن تسلكوه إلى الحريّة، في المعبد وخارج المعبد، وفي الليل كما في النهار، وفي الأمكنة المنخفضة مثلما في الأمكنة المرتفعة؟ وأنتم ما لم تسلكوا ذلك الطريق وتكونوا على بيّنة من هدفه فمن أين لكم الجرأة على دعوة الآخرين لسلوكه؟

أم تقرأون في الكتاب تصاميم وخرائط وقوائم أسعارٍ يتبيّن منها الناس مقدار ما يتوجّب عليهم دفعه من الأرض، لقاء كيت وكيت من السماء؟

أيّها الدجّالون ويا سماسرة عموره! إنّكم لتبيعون من الناس حصصًا في السماء وأمّا الثمن الذي تقبضون فحصص الناس في الأرض. وإنّكم لتجعلون من الأرض جحيمًا وتحثّون الناس على الهريبة منها، بينا تحفرون أنتم الخنادق وتقيمون المتاريس لتتحصّنوا في الأرض إلى الأبد. فعلام لا تعكسون الآية فتحملوا الناس على بيع حصصهم في السماء بحصّة في الأرض؟

لو أنّكم أحسنتم قراءة ما في كتابكم لرحتم تعلّمون الناس كيف يجعلون من الأرض سماءً. فمن كان سماويّ القلب كانت الأرض سماءً له. ومن كان أرضيّ القلب حوّل السماء أرضًا. ألا كشفتم للإنسان عن السماء التي في قلبه، بمحوكم كلّ ما في قلبه من فواصل بينه وبين أخيه الإنسان، وبينه وبين المخلوقات، وبينه وبين الله؟ ولكنّكم لا سبيل لكم إلى ذلك ما لم تكونوا ذوي قلوب سماويّة.

ليست السماء جنّة غنّاء تباع أو تؤجّر. إن هي إلّا حالة من حالات القلب يستطاع بلوغها على هذه الأرض مثلما يستطاع في أية بقعة من بقاع المسكونة التي لا تُحدّ. فعلام تشرئبّون بأعناقكم إلى أبعد من الأرض؟

لا ولا جهنّم أتّون تخلصون من ناره بكثرة صلواتكم ودخان بخوركم. إن هي أيضًا غير حالة من حالات القلب يخبرها الناس على هذه الأرض وفي أيّ مكان آخر من مفاوز الفضاء المترامية. فأين تهربون من نارٍ وقيدها القلب، إن لم تهربوا من القلب ذاته؟

باطلًا تفتّشون عن الجنّة، وباطلًا تحاولون الفرار من جهنّم ما دمتم ممسوكين بظلالكم. فما الجنّة وجهنّم غير حالتين ملازمتين للثنائيّة. وما لم يصبح الإنسان موحّد الفكر والقلب والجسد؛ ما لم ينعتق من ظلّه فيصبح موحّد الإرادة، دام واقفًا بإحدى رجليه في الجنّة وبالأخرى في جهنّم. وحاله تلك هي حقًّا جهنّم.

أجل، إنّه لأفظع من جهنّم أن تكون لكم أجنحة من نور وأرجل من رصاص؛ وأن يرفعكم الأمل إلى فوق ويشدّكم اليأس إلى أسفل؛ وأن ينشركم الإيمان الباسل ويطويكم الشكّ الجبان.

ما كان جنّة لإنسان وجهنّم لآخر ليس خليقًا بأن يدعى جنّة. كذلك ليس بجهنّم ما كان جهنّم لواحد وجنّة لسواه. وإذ أنّ جنّة البعض كثيرًا ما تكون جهنّم الغير، وعلى العكس، لذلك ما كانت الجنّة وجهنّم حالتين متناقضتين، ثابتتين، بل كانتا مرحلتين في الطريق الطويل المؤدّي إلى الانعتاق من كلتيهما.

يا حجّاج الكرمة المقدّسة!

لا جنّات عند مرداد يغريكم بأثمارها كيما تفعلوا الخير. ولا عنده جُحُم يهدّدكم بنيرانها كيما ترتدعوا عن الشرّ. فما لم يكن لكم جنّة في الخير الذي تعملون، أزهر خيركم يومًا ثمّ ذوى إلى الأبد. وما لم يكن لكم جهنّم في الشرّ الذي ترتكبون هجع شرّكم ليلةً ثمّ أورق وأثمر ألف شرّ. ما جاءكم مرداد بجنّات وجُحُم. بل جاءكم بالفهم المقدّس الذي يسمو بكم فوق نارٍ أيّ جحيم ونضارة أيّ نعيم. أمّا عطيّة مرداد هذه فلن تستطيعوا اقتبالها باليد بل بالقلب. ولذلك كان عليكم أن تفرغوا القلب من كلّ رغبة وإرادة عابرة ما خلا الرغبة في الفهم وإرادة الوصول إليه.

ما أنتم بالغرباء عن الأرض، ولا الأرض لكم بِرابّة. بل أنّكم قلبٌ من قلبها وصلبٌ من صلبها. وهي تحملكم بفرح وبغير أقلّ عناء على ظهرها القويّ، الثابت الواسع. فما بالكم تصرّون على حملها على صدوركم الضئيلة، الضيّقة، الهابطة، ثمّ تئنّون وتلهثون وتكاد أنفاسكم تزهق من ثقل ما تحملون؟

وإنّ ضرع الأرض ليفيض لكم لبنًا وعسلًا. فما بالكم تفسدون الاثنين بحموضة الطّمع إذ تأخذون منهما أكثر من حاجتكم بكثير؟

وإنّ وجه الأرض لهادىء أبدًا ومطمئنّ. فما بالكم تعكّرون هدوءه وطمأنينته بالذعر والنزاع؟

وإنّ الأرض لوحدة كاملة. فما بالكم تجزّئونها بسيوفكم وتخومكم؟

وإنّ الأرض لمطواع للناموس، فهي لذلك خلوّ من كلّ همّ. فما بالكم يمزّقكم العصيان وترهقكم الهموم؟

وأنتم، مع ذلك، أبقى من الأرض، وأبقى من الشمس ومن كلّ دراري الفَلَك. فهذه كلّها زائلة أمّا أنتم فخالدون. فما بالكم ترتجفون ارتجاف أوراق تصفّقها الريح؟

إن لم يكن ما يدلّكم على وحدتكم مع المسكونة، لكفاكم بالأرض دليلًا. والأرض، مع ذلك، ليست سوى المرآة تنعكس عليها ظلالكم. ألعلّ المرآة أثمن من الناظر إليها؟ ألعلّ ظل الإنسان أعظم من الإنسان؟

ألا افركوا أعينكم واستيقظوا. فأنتم أكثر من تراب. وقسمتكم من الوجود أكثر من أن تحبّوا وتموتوا وتنسلوا طعامًا وافرًا لأشداق الموت الذي لا يشبع. إنّ قسمتكم هي التحرّر من الحياة والموت، ومن الجنّة والجحيم، ومن كلّ أصناف المتناقضات التي تولّدها الثنائيّة، والتي لا تنفكّ في نضال لا رحمة فيه ولا هوادة. إنّ قسمتكم هي أن تكونوا كرمةً مثمرة في كرمة الله المثمرة أبدًا.

فمثلما يُدفن غصن حيّ من كرمة حيّة فيُنبت جذورًا ويصبح كرمةً مستقلة وهو لا يزال متّصلًا بالكرمة الأمّ، هكذا الإنسان، ذلكم الغصن الحيّ في الكرمة الإلهيّة، إذا ما دُفن في تربة ألوهته أصبح إلهًا وظلّ متصلًا بالله اتصالًا لا انقطاع له.

ألا بدّ، إذن، للإنسان أن يُدفن حيًّا كيما يعود إلى الحياة؟

إي ثمّ إي. فأنتم ما لم تُدفنوا لثنائيّة الموت والحياة لن تنهضوا لوحدة الوجود. وما لم تغتذوا بقطوف المحبّة لن تمتلؤوا بخمرة الفهم. وأنتم ما لم تسكروا بخمرة الفهم لن تصحوا بقبلة الحريّة.

إنّكم لا تأكلون محبّة إذ تأكلون من عنب الكرمة الأرضيّة. إنّما تأكلون جوعًا أكبر لتسكّنوا به جوعًا أصغر.

وإنّكم لا تشربون فهمًا إذ تشربون من دم الكرمة الأرضيّة.

وإنما تشربون ذهولًا قصير المدى عن آلامكم، لتستفيقوا منه على آلام أشدّ وأفظع من ذي قبل. فكأنّكم لا تهربون من ذاتكم المتعبة إلّا لتعود فتلاقيكم وراء أوّل عطفة في الطريق.

أمّا العنب الذي يقدّمه لكم مرداد فعنب لا يتعفّن ولا يتهرّأ. ومَن شبع منه مرّةً ظلّ شبعانَ إلى الأبد. والخمر التي عصرها مرداد لكم خمر تحرق الشفاه التي تخشى النار، ولكنّها تروي القلوب الطامحة إلى الذهول عن ذاتها حتّى الأبد.

أفيكم من هم جياع إلى عنبي؟ ليتقدّموا بسلالهم. أم بينكم من هم عطاش إلى دمي؟ ليتقدّموا بأكوابهم. لأنّ مرداد مثقل بقطوفه ويكاد يختنق بفيضان دمه.

لقد كان يوم الكرمة المقدّسة فيما مضى يومًا مكرّسًا لنسيان الذات؛ يومًا نشوانَ بخمرة المحبّة ومغمورًا بوهج الفهم، يومًا راقصًا لتصفيق أجنحة الحريّة؛ يومًا تزاح فيه الستائر وتهدم الفواصل فيندمج الواحد في الكلّ، والكلّ في الواحد. فانظروا ما هو اليوم.

لقد أصبح ذلك اليوم أسبوعًا من الاعتداد بالذات والاهتمام بها حتّى الكَلَب؛ ومعرضًا للجشع؛ وللعبوديّة تلهو مع العبوديّة؛ وللجهل يفحش بالجهل.

حتّى أنّ الفلك ذاتها، التي كانت في سالف الأحقاب معصرةً للإيمان والمحبّة والحريّة، قد تحوّلت اليوم معصرةً هائلة للنبيذ وسوقًا فظيعة للتجارة. فهي اليوم تأخذ غلّة كرومكم عنبًا طاهرًا لتبيعها منكم خمرًا قتّالة. وتأخذ نتاج أيديكم، وعرق جبينكم فتحوّله جمرًا تتكوّى به جبينكم.

ركبت الفلك متن الشطط سنين طوالًا. أمّا الآن فدفّتها موجهة في السبيل السويّ. وهي تريد أن تنعتق من الأثقال التي لا نفع منها كيما تسير في سبيلها بسهولة وسلامة.

لذلك ستُردّ كلّ هبة إلى واهبها. وكلّ مدين سيعفى من دينه. فالفلك لا تعرف واهبًا غير الله. والله لا يرضى لإنسان أن يكون مدينًا – حتّى لذاته.

هكذا علّمت نوحًا.

وهكذا أعلّمكم.

الفصل السابع والعشرون

أيَحسن أن تعلَن الحقيقة للكلّ بالسواء أم للقليل من المختارين؟ مرداد يكشف سرّ اختفائه عشيّة العيد ثمّ يكلّمنا في السلطة الزائفة.

نروندا: مرّت أيّام على عيد الكرمة وعاد السبعة فاجتمعوا حول المعلّم في وكر النسور. وكان المعلّم ساكتًا بينا الرفاق يتبادلون النظرات بشأن ما جرى في العيد. فمن مُظهر دهشته للحماسة التي أبدتها الجماهير للمعلّم وكلامه. ومن متعجّب لشمادم كيف أنّه ما فاه بكلمة ولا حرّك ساكنًا طيلة الوقت الذي أُخرجت فيه خوابي النبيذ من أقبيتها وفُرّقت على الجماهير، ورُدّ الكثير من الهبات الثمينة إلى واهبيه. بل كان واقفًا مكتوف اليدين ينظر إلى ما يجري ولا يعترض عليه إلّا بدموعه الهطّالة.

أمّا بنّون فما كان يرى ما رآه الآخرون. ففي اعتقاده أنّ هتاف الجماهير ما كان تحمّسًا للمعلّم وكلماته بل فرحًا بالهبات التي ردّت والديون التي سومح بها. حتّى أنّه لامَ على المعلّم إسرافه في إنفاق قواه من غير جدوى على جماهير لا تفتّش عن لذّة أسمى من لذّة الأكل والشرب والعبث. وأردف قائلًا إنّ الحقيقة لا يحسن أن تذاع للكلّ بغير تمييز، بل لنخبة قليلة من المختارين. وعندها تكلّم المعلّم فقال:

مرداد: إنّ نَفَسًا تقذفه صدوركم لا بدّ له من أن يلج صدر إنسانٍ ما. لا تسألوا عن الصدر صَدْر مَنْ هو. بل اهتمّوا للنّفس كيما يكون طاهرًا من كلّ غشّ.

وإنّ كلمة تتحرّك بها شفاهكم لا بدّ لها من أن تلج أُذن إنسان من الناس. لا تسألوا عن الأذن أُذن مَن هي. بل اهتمّوا للكلمة كيما تكون رسولًا حقًّا من رسل الحريّة الحقّة.

وإنّ فكرًا يجول في سكينة أفكاركم لا بدّ له من أن يتّصل بلسان إنسان ما فيتلفّظ به. لا تسألوا عن اللسان لسان مَن هو. بل اهتمّوا للفكر كيما يكون شعاعًا من أشعّة الفهم المقدّس.

لا يذهب جهد، مهما يكن، جزافًا. فمن البذور ما يبقى دفينًا في التراب سنة بعد سنة. ولكنّه سرعان ما يتململ إلى الحياة حالما تتاح له ظروف مؤاتية.

إنّ بذور الحقّ لَدَفينة في كلّ إنسان وكلّ شيء. فليس شغلكم أن تبذروا الحقّ بل أن تُعِدّوا الظروف المؤاتية لظهوره. ليس في الأبديّة من مستحيل. لذلك لا تقنطوا من حريّة أيّ إنسان. بل احملوا رسالة الانعتاق إلى الكلّ بالسواء؛ احملوها إلى غير التوّاقين بمثل الإيمان والحماسة اللذين تحملونها بهما إلى التوّاقين. إذ لا بدّ لمن لا يتوق الآن من أن يتوق في الغد؛ مثلما لا بدّ لفراخ النسر ما تزال زغب الحواصل في عشّها، من أنّ تكتسي يومًا بالرّيش فترنّق في الشمس، ثمّ تشقّ بقوادمها أقصى مجاهل الجوّ.

ميكاستر: إنّه ليحزننا أنّ المعلّم، رغم استفهاماتنا المتكرّرة، ما شاء حتّى اليوم أن يبوح لنا بسرّ اختفائه قبيل عيد الكرمة. ألعلّنا لسنا أهلًا لثقته؟

مرداد: من كان أهلًا لمحبّة مرداد أحر به أن يكون أهلًا لثقته. ألعلّ الثّقة أكبر من المحبّة؟ ألست أعطيكم من قلبي بغير حساب؟

إذا ما سكتُّ عن ذلك الحادث المستمجّ، فلأنّي أردت أن أتيح لشمادم فرصة للتوبة. فهو الذي اقتادني من هذا الوكر بمساعدة رَجُلين غريبين، وطرحني في الهوّة السوداء. يا لتعس شمادم! ما دار له في خلد قطّ أنّ مرداد لا تؤذيه حتّى الهوّة السوداء، بل تقتبله بأيدٍ من حرير وتأتيه بسلالم إلى القمّة.

نروندا: صُعقنا إذ سمعنا ذلك من المعلّم. وتهيّب الكلّ فما منّا من جرؤ أن يسأله كيف نجا من الهلاك الأكيد، وبقينا سكوتًا حصّةً من الوقت طويلة.

همبال: لماذا يضطهد شمادم المعلّم بينا المعلّم يحبّ شمادم؟

مرداد: شمادم لا يضطهدني. وإنّما يضطهد شمادمُ شمادمَ.

اعطوا العميان حتّى شبه سلطان، يفقأوا عيون المبصرين. ولعلّهم يبدأون بعيون الذين يجهدون أنفسهم فوق الجميع ليردّوا إليهم البصر.

سلّطوا العبد على العالم ولو ليوم واحد، يحوّله إلى عالم عبيد. ولعلّ أوّل من ينهال عليهم بسوطه ويكبّلهم بحديده، أولئك الذين يسعون ليل نهار في سبيل تحريره من عبوديّته.

كلّ سلطة عالميّة، مهما يكن مصدرها، سلطة زائفة. لذلك تتذرّع برنّة المهماز، وقلقلة السيف، وأنّى سارت واكبتها الطبول والزمور، والمظاهر البرّاقة، والعظمة الخدّاعة مخافة أن يجسر أحد أن ينفذ ببصره إلى قلبها الأسود الفارغ. أمّا عروشها المتداعية فتشيدها على المدافع والحراب.

وأمّا نفسها المنفوخة بالمجد الباطل، فتعلّق في عنقها وعلى صدرها التمائم والتعاويذ التي تبعث الرهبة في قلوب الناظرين لئلّا تجسر عين «خبيثة» أن تطلّ على ما تخبّأ خلفها من زري وفاقة.

ما سلطةٌ ذاك شأنها غير حجاب على أعين الطامحين إليها، ولعنة للذين يمارسونها. فهي لا دأب لها سوى المحافظة على ذاتها حتّى بأفحش الأثمان وأفظعها. فلكم بطشّتْ بذويها ومنْ والاها ومن عاندها.

أما ترون الناس في اضطراب دائم لشدّة شغفهم بالسلطة؟ فالذين السلطة في أيديهم يناضلون أبدًا عنها. والذين فرغت أيديهم منها يناضلون أبدًا في سبيل الحصول عليها. بينا الإنسان، ذلكم الإله الذي ما يزال في القمط، يداس بالأرجل والسنابك وليس في حومة الوغى من يحفل بوجوده أو من يمنّ عليه بأقلّ عناية أو محبّة. ويحتدم القتال ويجنّ جنون المتقاتلين إذ يسكرون بالدم، فلا يخطر لواحد منهم أن يميط اللثام عن وجه العروس الكاذبة التي من أجلها يتقاتلون ليفضح هول شناعتها لكلّ ذي عينين.

صدّقوا أيّها الرهبان أنّ ما من سلطة جديرة حتّى برفّة جفن، إلّا سلطة الفهم المقدّس، فهي لا تثمّن. وكلّ تضحية في سبيلها، وإن جلّت، تبدو طفيفة، تافهة. وهذه إذا ما نلتموها مرّة نلتموها حتّى نهاية الدهر. وإذ ذاك كانت في كلماتكم قوّة لا تعادلها كلّ جيوش العالم؛ وفي أعمالكم بركات لو تكاتفت سلطات الأرض كلّها لما جاءت الأرض بقسم منها ضئيل.

ذلك لأن الفهم درعه وساعده المحبّة. فهو لا يضطهد ولا يستبدّ، بل كالندى ينزل بالسواء على كلّ القلوب القاحلة، وبالسواء يبارك القلوب التي تمتصّه والقلوب التي ترفضه. وهو لا يلجأ إلى القوّة الخارجيّة لأنّه واثق من القوّة التي في داخله. ولا يلوذ بالوعيد والتهويل، لأنّه لا يعرف الذعر والوجل.

لله ما أفقر العالم إلى الفهم! لذلك ترونه يستر فقره بستائر السلطة الزائفة. والسلطة لا تنفكّ تبرم معاهدات الهجوم والدفاع مع القوّة الزائفة. والاثنتان معًا تسلّمان قيادتهما إلى الخوف. والخوف يسحقهما سحقًا. فمنذ كان العالم والضعيف يحالف الضعيف للذود عن ضعفهما.

هكذا تسير السلطة العالميّة والقوّة الغاشمة جنبًا إلى جنب ويدًا بيد مسوقتين بسوط الخوف. وهكذا تدفعان الجزية في كلّ يوم للجهل، تدفعانها حروبًا طاحنة، ودماء قانية، ودموعًا سخينة. والجهل يفترّ عن ثغر الرضى ويقول لكلتيهما: «نعمّا. نعمّا».

وشمادم قال لشمادم «نعمّا. نعمّا». عندما قذف بمرداد إلى الهاوية. لكنّه ما خطر لشمادم قطّ أنّه إذ قذف بمرداد إلى الهاوية إنّما قذف بنفسه لا بمرداد. لأنّ الهاوية أضيق من أن تسع مرداد. بَيْدَ أنّها فسيحة جدًّا لشمادم. ويا لطول الزمان الذي سينفقه شمادم في تسلّق جدرانها المَلسة، الدكناء!

حلية زائفة هي كلّ سلطة عالميّة. دعوا الذين ما يزالون أطفالًا من حيث الفهم يتلهّو بها. أمّا أنتم فحذارِ من أن تفرضوا سلطتكم بالقوّة على أيّ إنسان. فما من سلطة تفرضها القوّة إلّا تنتزعها القوّة عاجلًا أو آجلًا.

لا تطلبوا السلطة على حياة الناس. تلك من خصائص الإرادة الكلّيّة. ولا السلطة على أموال الناس ومتاعهم. فالسلاسل التي تربط الناس بأموالهم ومتاعهم ليست بأضعف من التي تربطهم بحياتهم. والناس يكرهون الذين يتعرّضون لسلاسلهم ولا يأمنون لهم جانبًا. وإذا ما طلبتم فاطلبوا أن يتاح لكم الدخول إلى قلوب الناس بمفتاح المحبّة والْفهم. حتّى إذا ما دخلتم قلوب الناس وأقمتم فيها، سهل عليكم أن تعملوا على فكّهم من سلاسلهم. فالمحبّة إذ ذاك تقود أيديكم بينا الفهم يحمل لكم السراج.

الفصل الثامن والعشرون

أمير بتعار وشمادم في وكر النسور. الحوار بين الأمير ومرداد حول الحرب والسلم. شمادم يثأر لنفسه من مرداد.

نروندا: ما وقف المعلّم عن الكلام ورحنا نفكّر في ما قال صامتين حتّى سمعنا وقع أقدام ثقيلة خارج وكر النسور ووشوشة أصوات غريبة. وما عتّم أن برز لنا في مدخل الكهف جنديّان مدجّجان بالسلاح وكأنّهما من العمالقة. فوقف كلّ منهما في جانب من جانبَي المدخل وفي يده سيف مصلت يبرق في الشمس. وتبع الجنديّين أميرٌ فتيّ في حلله الملكيّة وتلاه شمادم يمشي في حذر وخجل، ثمّ جنديّان آخران من طراز الأوّلَين. وهذان وقفا خارجًا.

وكان الأمير أحد أُمراء جبال الآس واللُّبان وأوسعهم شهرة وسلطانًا وأوفرهم عدّةً وغنًى. فوقف هنيهة في الباب يتفقّد الجماعة التي داخل الكهف، وعندما استقرّت عيناه الكبيرتان الصافيتان على المعلّم انحنى إلى الأرض وقال:

الأمير: السَّلام أيّها الرجل القدّيس! لقد جئنا نؤدّي ما علينا من واجب التكريم إلى مرداد العظيم الذي امتدّت شهرته في هذه الجبال حتّى بلغت أبواب عاصمتنا القصيّة.

مرداد: الشهرة خارج بيتها كاعب في مركبة من نار. أمّا في بيتها فعجوز تحبو على عكّازتين، وشمادم شاهدي على صحّة ما أقول. لاتركننّ أيها الأمير إلى عبث الشهرة.

الأمير: ولكنّ عبثها حلو المذاق. فما أحلى أن يطبع الإنسان اسمه على شفاه الناس!

مرداد: لا فرق بين اسم تطبعه على شفة وآخر تكتبه على رمال الشاطئ. ذاك تمحوه الريح بهبّة، وهذا يمحوه الناس بعطسة. أمّا إذا شئت ألّا يمحو الناس اسمك بعطسة فاطبعه في حبّات قلوبهم بأحرف من نار.

الأمير: ولكنّ قلوب الناس مقفلة بأقفال كثيرة.

مرداد: قد تكون الأقفال كثيرة. أمّا المفتاح فواحد.

الأمير: ألعلّ عندك مثل هذا المفتاح؟ فإنّي لفي أمسّ الحاجة إليه.

مرداد: إنّه لفي حوزتك كذلك.

الأمير: أوّاه، يا معلّم! إنّك لتثمّنني بأكثر من قيمتي بمراحل. فها أنا منذ سنين أُفتّش عن مفتاح لقلب جاري فلا أجده. وجاري أمير عاتٍ جبّار وهو يلجّ عليّ بالقتال فأماطله. إلّا أنّني رغم ميولي السلميّة سأُكرَه على رفع سلاحي بوجهه. لا تُغرّك حللي وحلاي. فأنا ما تمكّنت حتّى اليوم من أن أجد فيها المفتاح الذي أفتّش عنه.

مرداد: لا مفتاح في هذه بل تضليل عن المفتاح. فهي تخدع يديك، وتعرقل قدميك، وتموّه على عينيك، فتجعل تفتيشك عقيمًا من كلّ جدوى.

الأمير: ماذا عسى المعلّم أن يعني بذلك؟ أيعني أنّه عليّ أن أطرح بحللي وحلاي جانبًا كيما يتيسّر لي الوصول إلى قلب جاري؟

مرداد: أعني أنّك إن تمسّكت بها أفلتَ منك جارك. أو تمسّكتَ بجارك أفلتَتْ هي منك. ومَنْ أضاع جاره كمن أضاع نفسه.

الأمير: ما أظنّني أرضى، ولا أخالك ترضى لي، أن أشتري صداقة جاري بمثل هذا الثمن الفاحش.

مرداد: ألا تشتري نفسك بمثل هذا الثمن التافه؟

الأمير: أأشتري نفسي؟ ما أنا بالأسير لأدفع فدية. وعلاوة على ذلك فرهن بناني جيش كامل العدّة وافر العدد. وليس لجاري أن يباهي بأفضل منه.

مرداد: من كان أسير إنسانٍ واحد، أو شيء واحد، كان له من أسره هوانٌ لا يُطاق ومرارة أين من طعمها العلقم، فكيف بمن كان أسير جيش من الناس والأشياء؟

إنّه لمنفىً بغير أوبة. من اتّكل على شيء كان أسير ذلك الشيء على قدر اتّكاله عليه. لذلك أقول لك أيّها الأمير: اتّكل على الله وحده. فمن كان أسير الله كان حرًّا من غير شكّ.

الأمير: ألا أذود، إذن، عن عرش أجدادي، وعن بلادي وعبادي؟

مرداد: بل ذد عن نفسك.

الأمير: ولذلك أحتفظ بجيشي.

مرداد: بل لذلك عليك أن تسرّح جيشك.

الأمير: لكنّ جاري يبتلعني وممتلكاتي في الحال.

مرداد: قد يكتسح جارك مملكتك. أمّا أنت فلا يقوى على ابتلاعك إنسان.

إنّ سجنين إذا ما اندمجا في واحد لا يؤلّفان ولو كوخًا حقيرًا للحريّة. افرح لنفسك إذا ما طُردتَ من سجنك. ولا تحسد الذي يطردك منه ليحلّ محلّك فيه.

الأمير: إنّي من سلالة مشهود لها بالبأس في النزال. فما عُرف عنّا يومًا أنّا شهرنا الحرب ظلمًا وعدوانًا على أحد. ولكنّنا إذا ما تحدّانا أحدٌ للحرب نكّلنا به تنكيلًا فما غادرنا ميدان القتال إلّا على أشلاء العدوّ، وأعلامنا تخفق عالية زاهية. إنّك لتسيء النصح يا سيّدي إذ تنصح لي بأن أدع جاري يفعل بممتلكاتي ما يشاء.

مرداد: أما قلتَ إنّك تؤثر السلم؟

الأمير: أجل، إنّي لأؤثر السلم.

مرداد: لا تحارب.

الأمير: لكن جاري يأبى إلّا محاربتي. فلا مندوحة لي عن حربه كيما يستتبّ بيننا السلم.

مرداد: إذن تريد أن تقتل جارك كيما تعيش وإيّاه في سلم؟ إنّه لمشهد غريب حقًّا. وأيّ فضلٍ لحيّ أن يعيش في سلم مع ميت؟ لكنّما الفضل كلّ الفضل لحيّ يعيش في سلم مع الأحياء. إن لم يكن لك بدّ من محاربة كلّ مخلوقٍ خالفك في الذوق والمصلحة فأحر بك أن تعلن الحرب على الله الذي أوجد هذه المخلوقات. أو على المسكونة بأسرها. فما أكثر ما فيها من كائنات تشوّش عليك أفكارك وتثير لواعج غضبك وكوامن أحزانك، وتفرض ذاتها فرضًا على حياتك، شئت أم أبيت.

الأمير: وكيف العمل؟ ألا أقاتل من أعرض عليه السلم فيأبى إلّا القتال؟

مرداد: بلى قاتِلْ.

الأمير: الآن تنصحني بالصواب.

مرداد: أجل، قاتل! ولكن لا تقاتل جارك بل كلّ ما من شأنه أن يحمل جارك على قتالك.

لماذا يرغب جارك في قتالك؟ ألأنّ عينيك زرقاوان وعينيه عسليّتان؟ أم لأنّ في أحلامك ملائكة وفي أحلامه شياطين؟ أم لأنّك تحبّه محبّتك لنفسك وتحسب كلّ مالك كأنّه له؟

ما من أجل ذلك يرغب جارك في مقاتلتك أيّها الأمير. ولكن من أجل حللك وحلاك، ومن أجل عرشك وتاجك، ومن أجل مجدك وسلطانك وكلّ الأشياء التي أنت أسيرٌ لها أفلا تؤثر أن تقهره من غير أن ترفع في وجهه سيفًا أو قناةً؟ إذن فاسبقه إلى ساحة القتال واعلن الحرب على كلّ ما يبغي محاربتك من أجله. حتّى إذا ما تمّت لك الغلبة، وتحرّرت من شباك هذه الأشياء بطرحك إيّاها على المزبلة، وجاء جارك بجيشه ساعيًا في طلبها فألفاها هنالك، وقف زحفه وحار في أمره وما عاد يدري مَن يقاتل. ولعلّه يقول إذ ذاك في نفسه: «لو أنّ هذه الأشياء كانت جديرة بالقتال لما طرحها جاري على المزبلة».

أمّا إذا أمعن جارك في جنونه فانقضّ على المزبلة وحملها إلى بيته، فافرح لأنّه أراحك من عبء ثقيل كريه، وارثِ لحاله وسوء بخته.

الأمير: وماذا عساني أقول في شرفي وهو أعزّ لديّ من كلّ ممتلكاتي؟

مرداد: شرف الإنسان الأوحد هو كونه إنسانًا؛ صورة الله الناطقة ومثاله الحيّ. أمّا كلّ شرف عداه فخزي وهوان.

إنّ شرفًا يُسبغه عليك الناس يسلبك إياه الناس. وشرفًا يخطّه السيف يمحوه السيف. ما من شرف، أيّها الأمير، يساوي نَبلَةً صَدِئةً؛ فكيف بدمعة حرّى، وكيف بقطرة نجيع قانية؟

الأمير: والحريّة، حريّتي وحريّة شعبي، أليست هذه حقيقة بأعظم التضحيات؟

مرداد: الحريّة الحقّة جديرة حتّى بتضحية الذات. وهذه لا سلاح جارك يقوى على اغتصابها منك، ولا سلاحك يقوى على اغتصابها منه أو الدفاع عنها ضدّه. أمّا ساحة الوغى فليست سوى مدفن لها.

إنّما تُنال الحريّة الحقّة في القلب وتُفقد فيه. أتريد الحرب؟ أشهرها إذن، في قلبك على قلبك، وامضِ فيها بغير هوادة على كلّ أملٍ ورغبة وخوف من شأنها أن تجعل من عالمك زريبة فسد هواها وضاق مداها. حتّى إذا ما عُقِد النصر لك وجدت عالمك أفسح من المسكونة، وكنت فيه طليقًا كالهواء، ولا عقبة أو عثرة في سبيلك أنّى اتجهت. تلك هي الحرب الوحيدة التي يجمل بالإنسان إعلانها. وأنت إذا ما خضتَ يومًا غمارها شغلتك عن كلّ حرب سواها، فعرفت أنّ الحروب التي يشنّها الناس على الناس، لا تختلف بشيء عن حروب ذوات الناب والمخلب، وأنّها ليست سوى أحابيل شيطانيّة تصرف الناس عن حربهم مع نفوسهم التي لا حرب مقدّسة سواها. من ربح هذه الحرب ربح مجدًا أبقى من الدهر. أمّا الظافرون في أيّ حرب سواها فظفرهم انكسار شائن. وتلك هي فظاعة كلّ حرب يشنّها الناس: إنّ الانكسار فيها نصيب الغالب والمغلوب بالسواء.

أتريد السلم؟ إذن لا تفتّش عنه في المعاهدات الضّخمة ولا تحاول أن تنقشه حتّى في الصخر. فالقلم الذي يخطّ كلمة «السلم» بسهولة يستطيع شطبها بمثل تلك السهولة وكتابة «الحرب» بدلًا منها. والإزميل الذي ينقش في الصخر «ليكن بيننا سلم» يستطيع أن ينقش بعين السهولة «لتكن بيننا حرب». وفوق ذلك فالقلم والإزميل والقرطاس والصخر سرعان ما يعبث بها السوس والعفن والصدأ وكيمياء العناصر المتقلّبة بين لحظة ولحظة. لكنّ قلب الإنسان الذي هو معقل الفهم، منيع ضدّ هذه الآفات كلّها. فما اكتشف إنسان الفهم في قلبه إلا كان الظفر نصيبه والسلم رفيقه حتّى الأبد. فالقلب الفاهم يحيا حياة سلمٍ دائم حتّى في وسط عالمٍ مستعر بنيران الحروب.

إنّ قلبًا جاهلًا لقلب مزدوج. والقلب المزدوج يخلق عالَمًا مزدوجًا. والعالم المزدوج يولِّد أبدًا نزاعًا وحروبًا. بينما القلب الفاهم قلب موحَّد. والقلب الموحّد يخلق عالمًا موحّدًا، والعالم الموحّد

عالم سلم أبديّ. إذ لا بدّ للحرب من خصمين. لذلك أنصح لك أيها الأمير بأن تشنّ حربًا على قلبك كيما تجعله موحّدًا. أمّا جزاء الفوز فسلم ينتهي الزمان ولا ينتهي.

يوم يصبح في إمكانك، أيّها الأمير، أن تتّخذ من أيّ حجرٍ عرشًا، ومن أيّة مغارة حصنًا، يومذاك تتمنّى الشمس أن تكون عرشًا لك والثريّا أن تكون حصونك وأبراجك.

ويوم تبصر في أصغر أقحوانة وسامًا، وفي أحقر دودة معلّمًا، يومذاك تتسابق الدراري لتجلس أوسمة على صدرك، وتشتهي الأرض لو تكون منبرًا لك.

ويوم تغدو حاكم قلبك المطلق والمطاع، فما همّك يومذاك مَنْ يحكم جسدك؟ ويوم تغدو المسكونة كلّها ملكًا لك، فأيّ بأس عليك لو ادّعى الملكيّة هذا الإنسان أو ذاك في هذه البقعة أو تلك من بقاع الأرض؟

الأمير: إنّ في كلامك ما يُغري، أيّها المعلّم. ولكنّني، رغم ذلك، ما أنفكّ أعتقد أنّ الحرب سنّة الطبيعة. حتّى الأسماك التي في بحورها لا تنقطع عن الحرب. والضعيف في الطبيعة هو أبدًا فريسة القويّ. أمّا أنا فما أرضى أن أكون فريسة لأحد.

مرداد: تتراءى لك الطبيعة كأنّها في حرب وما هي في حرب. ولكنّها تطعم ذاتها من ذاتها وتجدّد ذاتها بذاتها. فيحسب الجاهل محبّتها حربًا. وهي ما قدّمت الضعيف طعامًا للقويّ إلّا قدّمت القويّ طعامًا للضعيف. ومن ثمّ فمَن هو القويّ. ومن هو الضعيف في الطبيعة؟ إنّما الطبيعة وحدها قويّة، وكلّ ما عداها ضعيف ينصاع لمشيئتها وينجرف صاغرًا بأمواج نهر الموت.

ما من قويّ حقًّا إلّا من كان أقوى من الموت. والإنسان، أيّها الأمير، أقوى من الموت، أجل، وأقوى من الطبيعة. فهو ما أكل من قلبها المحسوس إلّا ليبلغ قلبها الذي لا يُحسّ. وهو ما تناسل إلّا ليرقى إلى ما هو أسمى من التناسل.

دع الذين دأبهم تبرير شهواتهم القذرة بغرائز الحيوان النقيّة يتكنّون بالخنزير البرّي، وبالذئب وابن روى أو غير هذه من الضواري. أمّا أن يدنّسو لَقَب الإنسان فحرام عليهم حرام.

صدّقْ مردادَ، أيّها الأمير، وعش بسلام.

الأمير: سمعتُ من المتقدّم أنّ لمرداد معرفة عظيمة بأسرار السحر وما يتفرّع عنه. وأنا أودّ إليه أن يريني آية من آيات سحره لكي أؤمنَ به.

مرداد: إن يكن الكشف عن الله في الإنسان سحرًا فمرداد ساحر من غير شكّ. أتريد منّي برهانًا على ذلك وآية؟ تأمّل، إذنْ، مرداد. فأنا الآية والبرهان.

والآن فاعمل ما جئت لتعمله أيّها الأمير.

الأمير: حقًّا إنّك لساحر ماهر. فمن أدراك أنّ لي غرضًا من مجيئي إلى هنا غير تشنيف أذنيّ بثرثرتك وهذيانك؟ إنّ أمير بتعار لساحر كذلك. ولكنّ سحره من غير نوع سحرك. وهو سيريك

في الحال آيات من فنّه بيّنات. (إلى رجاله) هاتوا سلاسلكم وكبّلوا هذا الإله/الإنسان أو الإنسان/الإله بيديه ورجليه لنريه ومَن حواليه آيات سحرنا الرهيب.

نروندا: وكما ينقضُّ وحش ضارٍ على فريسته انقضّ الجنود الأربعة على المعلّم وأخذوا يوثقون سلاسلهم حول يديه ورجليه. ولبث السبعة في أماكنهم مبهوتين ينظرون إلى ما يجري أمامهم ولا يدرون أيحملونه على محمل الهزل أم الجدّ. لكنّ ميكايّون وزمورا كانا أسبق من الآخرين إلى فهم حراجة الموقف وسوء مغبّته. فوثبا على الجنود وثبة ليْثَيْن هائجين وكادا يبطشان بهم لو لم يردعهما المعلّم بصوته الهادئ المطمئنّ.

مرداد: ليعملوا كلّ ما يقضي به سحرهم يا ميكايّون. وأنت يا زمورا دعهم وشأنهم. فسلاسلهم لن تنال من مرداد أكثر مما نالته الهوّة السوداء. ليبتهج اليوم شمادم برتق ما تمزّق من سلطته بما تبقّى من سلطة أمير بتعار. سيعود الرتق فيمزّق الاثنين.

ميكايّون: أنقف مكتوفي الأيدي بينا يكبّلون معلّمنا كما يكبّلون المجرمين؟

مرداد: لا تضطربنّ قلوبكم من أجلي. بل كونوا في سلام. فستأتيكم أيام يفعلون بكم فيها مثلما يفعلون بي الآن. لكنّهم لن يؤذوكم، ويؤذون أنفسهم.

الأمير: هكذا يفعلون بكلّ دجّال يجرؤ على معاندة السلطة المشروعة. هذا الرجل القدّيس (مشيرًا إلى شمادم) هو رئيس هذه الجماعة الشرعيّ. وكلمته يجب أن تكون قانونًا للكلّ. وهذه الفُلك المقدّسة التي تنعمون بخيراتها هي تحت رعايتي وحمايتي. فعيني ساهرة أبدًا عليها، ويدي القويّة تحرس سقفها وكلّ ممتلكاتها، وسيفي البتّار يقطع كلّ يد تُنزل بها أقلّ أذيّة. فليعرف الكلّ ذلك وليحذروه!

(ثمّ إلى رجاله) قودوا هذا المشعوذ من هنا. فتعاليمه الخطرة تكاد تقضي على الفُلك. وهي ستقضي على مملكتنا، حتّى وكلّ الأرض، إن لم نضع اليوم حدًّا لمجاريها الخبيثة. دعوه من الآن فصاعدًا ينشر تعاليمه على الجدران السود في سجن بتعار. خذوه من هنا!

نروندا: واقتاد الجنود المعلّم اثنان من أمامه واثنان من خلفه، وتبعهم الأمير وشمادم مزهوّين بفوزهما واندحار مرداد.

ومشى السبعة خلف ذلك الموكب الصغير المشؤوم، وأعينهم تتتبّع كلّ حركة من حركات المعلّم، وشفاههم مطبقة بالأسى، وقلوبهم تتفجّر دموعًا.

أمّا المعلّم فكان يمشي بخطوات رزينة ثابتة ورأسه مرفوع لا يعرف الذلّ. ومن بعد أن سار مسافةً التفت إلينا وقال:

مرداد: اثبتوا في مرداد. فهو لن يغادركم حتّى يسيّر فُلكَه ويسلّمكم الدفّة.

نروندا: وأخيرًا غاب المعلّم، أمّا وجهه فما غاب. وأمّا كلماته فما برحت ترنّ في آذاننا مرفقة بقلقلة السلاسل الضخمة.

الفصل التاسع والعشرون

شمادم يحاول بدون جدوى أن يستميل الرفاق إليه.
مرداد يعود إلينا بطريقة عجيبة ويعطي كلًا منا،
ما عدا شمادم، قبلة الإيمان.

نروندا: وأقبل الشتاء بَضّ الجبين والجلباب، قاسي القلب والناب. وسكنت من تحته الجبال فلا نبض ولا نفس ولا صوت إلّا في المنخفضات السحيقة حيث ما برحت باديةً للعيان رقَع من الكلأ الشائب والأشجار العارية وبينها جداول تتلوّى ذات اليمين واليسار حاملةً ذَوبها الفضّي إلى البحر.

وكان السبعة في الفلك كأنّهم سبعة أشباح على غارب اليمّ، ترفعهم موجة وتخفضهم موجة، وتصفّقهم رياح اليأس والأمل. فميكايّون وميكاستر وزمورا ما برحوا متمسّكين بأملهم أنّ المعلّم سيعود لا محالة حسبما وعد.

بينا بنّون وهمبال وأبيمار، كانوا إلى اليأس أقرب منهم إلى الأمل. ولكنّهم كلّهم كانوا يحسّون فراغًا هائلًا وتفاهة في حياتهم ما أحسّوا مثلها من قبل.

أمّا الفلك فكانت باردة، عابسة، ضيّقة. وقد توشّحت جدرانها بصمت كأنّه الجليد، رغم كلّ جهود شمادم أن ينفخ فيها حياةً ودفئًا. فهو منذ اليوم الذي اقتادوا فيه مرداد إلى بتعار ما انفكّ يتودّد إلينا ويحاول أن يغرقنا في بحر من لطفه وكرمه. فقد أخذ يقدّم إلينا من المأكل أشهاه، ومن الخمر أنفسها، وراح يحرق القناطير من الفحم والحطب لتدفئتنا، ويبدي لنا أقصى ما لديه من العطف والمحبّة. لكنّ طعامه ما كان يقيتنا، وخمره ما كانت تنعشنا، وناره ما كانت تدفئنا، وعطفه ما كان يدنينا منه، بل كان يقصيه عنّا.

مرّت أيام طوال وشمادم ما ذكر المعلّم بكلمة. وأخيرًا فتح لنا قلبه وقال:

شمادم: إنّكم لتسيئون إليّ يا رفاقي باعتقادكم أنّني أمقت مرداد، فأنا لا أمقته بل أشفق عليه بكلّ جوارحي. قد لا يكون مرداد رجلًا شرّيرًا. ولكنّه متهوّس خطر بلا ريب، والخطر كلّ الخطر في تعاليمه الفاسدة التي يستحيل تطبيقها في عالم لا يدين بغير الواقع ولا يميل إلى نظرات لا يمكن العمل بها على الإطلاق. فهو وكلّ من تبعه سائرون لا محالة إلى نهاية ما بعد شؤمها شؤم، لدى أوّل اصطدام يصطدمونه بالواقع الذي لا يرحم. ولا شكّ عندي في ذلك البتّة. وأنا أريد أن أنقذ رفاقي من مثل تلك النهاية. لا مراء في أنّ لمرداد لسانًا ذربًا يلهبه طيش الشباب. لكنّ قلبه أعمى، وعنيد، وكافر. أمّا أنا ففي قلبي خوف الله الحقّ، وحكمة السنين، وخبرة الحياة العمليّة. وهذه وحدها كافية لأن تجعل لرأيي وزنًا ولحكمي سلطانًا. أفيكم مَن لو ألقيت إليه مقاليد الفُلك مثلما أُلقيت إليّ تمكّن من أن يبلغ بها الشأو الذي بَلَغْت؟ أما عشتُ وإيّاكم طيلة هذه السنين فكنتُ لكم أبًا وأخًا معًا؟ أما بارك الله أفكارنا بالسلام وأيدينا بالبحبوحة؟ فكيف نسمح لغريب عنّا أن يهدم ما صرفنا الأعوام الطوال في بنيانه، وأن يزرع الشقاق حيث كان الوئام قائدًا، والنزاعَ حيث كان السلم سلطانًا؟

إنّه الجنون المطبق يا رفاقي أن تتخلّوا عن عصفور في اليد لقاء عشرة على الشجرة. ومرداد يريدكم أن تتخلّوا عن هذه الفُلك التي احتضنتكم طوال هذه السنين، فكنتم قريبين من الله، بعيدين عن شرور العالم وأحزانه، متمتّعين بكلّ نعمة يشتهيها الناس، وماذا عساه يعدكم عوضًا عنها؟ إنّه ليعدكم أوجاع قلب، وخيبةً، وفاقة، ونزاعًا لا حدّ له، وضربات كثيرة أسوأ من هذه. فهو يعدكم فلكًا في الهواء، في فضاء اللاشيء؛ يعدكم حلم رجل مجنون، وأوهام طفل طائش. يعدكم حلاوة يستحيل تذوّقها. ألعلّه أوفر حكمة من أبينا نوح مؤسّس هذه الفُلك؟ لله كم يؤلمني يا رفاقي أن أراكم تعيرون هذيانه أذنًا صاغية!

قد أكون أخطأت ضدّ الفُلك وتقاليدها المقدّسة عندما استنجدت صديقي أمير بتعار على مرداد، لكنّني ما أقدمت على ذلك إلّا في سبيل خيركم؛ وفي حسن نيّتي ما يكفّر عن خطيئتي. فقد رأيت أن أنقذكم والفُلك قبل فوات الوقت. ولقد كان الله معي. فأنقذتكم.

ألا ابتهجوا معي يا رفاقي. ولنشكر الله لأنّه نجّانا من خزي ما بعده خزي. فهل افظع من أن نشهد انهيار فُلكنا بأعيننا الخاطئة؟ إنّي لأوثر الموت على مثل ذلك العار. والله شاهدي على ما أقول. أمّا الآن وقد نجونا بإذن الله من تلك النهاية الشائنة، فأنا أكرّس نفسي من جديد لخدمة ربّ نوح وفلكه، ولخدمتكم يا رفاقي الأحبّاء. عودوا إلى الطمأنينة التي كنتم فيها من قبل كيما تتم سعادتي في سعادتكم.

نروندا: وانهمرت الدموع من مقلتَي شمادم. لكنّها كانت دموعًا محزنة بعزلتها، إذ أنّها لم تجد رفيقات لها لا في قلوبنا ولا في مآقينا.

ذات صباح، وقد اخترقت الشمس حصار الغيوم الطويل، فغمرت جبالنا بفيض من بهائها، تناول زمورا قيثاره وأخذ ينشد:

شفتاكِ عضّهما الجليدْ،
قيثارتي!
وعليهما جَمَد النشيدْ،
قيثارتي!
وتجمّد الحلم الجميلْ،
قيثارتي!
في قلبك السمح النبيلْ،
قيثارتي!
أين الذي أنفاسه الطاهره
تسيل أنغامَكِ؟
أين الذي نقْراته الساحره
تفكّ أحلامكِ؟
– في سجن بِتْعارْ
شرّقي، شرّقي
يا نسائم القمم
وازحفي على الجليد
واسرقي لي نغمْ
من سلاسل الحديد
– في سجن بِتعارْ
شرّقي، شرّقي
يا قوافل السما
وازحفي مع الرياحْ
واحملي لي نَغمَا
من سلاسل الصلاحْ
– في سجن بِتعارْ

يا لنسري، وكان أمس جناحاه القويّان ملء صدر الفضاءِ!
يا لقبي، وكان مِنْ ظلّ نسري في حصونٍ من الشقا والفناءِ

كيف أضحى، من بعد أن كان قلبًا، أثرًا من ثمالةٍ في إناءِ
يا سمائي، تسودها بومةٌ نكراء تبغي محوَ الضحى بالمساءِ
منذ أن حلّق المليك إلى وكر قصيٍ مقنّع الأضواءِ
في سجن بِتْعارْ...

نروندا: وتدحرجت من عين زمورا دمعة إذ انقطع صوته، وتراخت يداه، وانحنى رأسه على صدره. وكأنّ تلك الدمعة أفرجت عن أحزاننا المكبوتة وفتحت سدود مآقينا.

وإذا بميكايّون يقفز من مكانه شاهقًا بدموعه ويصيح: «إنّي لأختنق» ويهرول نحو الباب ومنه إلى الهواء الطلق.

فما كان من زمورا وميكاستر ومنّي إلّا أن لحقنا به حتّى البوّابة الكبيرة في السور الخارجيّ من حول الفلك. وكان محظورًا علينا فتحها وتعدّيها إلى خارج السور. لكنّ ميكايّون ما توقّف عندها بل أمسك بالمزلاج الضخم وشدّه بعنف فأطاعه. ثمّ فتح البوّابة على مصراعيها وانطلق يعدو كأنّه النمر أفلت من قفص. فانطلق الثلاثة في إثره.

كانت الشمس وضّاءةً تبعث الدفء في الأجسام، وأشعّتها المتكسّرة على الثلج تبهر الأنظار. وكانت التلال الجرداء المكسّوة بالثلج تمتدّ أمامنا إلى أقصى حدود النظر وكأنّها أمواج يمّ تجمّد ثمّ اشتعل بألوان ساحرة من النور الذي لا يوصف. والسكينة المخيّمة عليها عميقة إلى حدّ أنّها تملأ الآذان أصواتًا رهيبة. والهواء بما فيه من لذعة قارسة ينفخ صدورنا بقوّة تحملنا من غير عناء منّا، فكأنّنا على بساط من الريح.

ومن حيث لا ندري شعرنا بتبدّل غريب في حالاتنا النفسيّة. حتّى أنّ ميكايّون توقّف فجأة في المسير ليهتف عاليًا: «يا لها من لذّة أن تكون لك المقدرة على التنفّس. أن تتنفّس، لا غير!» وأكيدٌ أنّنا كلّنا شعرنا شعور ميكايّون. فكأنّنا ما تنفّسنا من قبل ولا عرفنا لذّة التنفّس ولا معنى النَفَس.

كنّا قطعنا شوطًا حين لمح ميكاستر شبحًا أسود على مسافة منّا. فقال البعض إنّه ذئب. وقال الآخر إنّه صخرة كنست الرياح عنها الثلج. ولكنّنا ما لبثنا أن رأينا الشبح يتحرّك نحونا، فمشينا نحوه. فكان كلّما اقترب منّا بدا لنا في شكل إنسان. وبغتة قفز ميكايّون قفزة هائلة إلى الأمام وصاح:

«هذا هو! هذا هو!».

وكان كما قال ميكايّون. فما لبثنا أن تبيّنا مشيته المتّزنة، وهيبته الوقور، ورأسه النبيل المرفوع عاليًا، ووجهه الوسيم ببشرته السمراء وقد تفشّى فيها اصفرار لطيف، وعينيه السوداوين الحالمتين، تتدّفق منهما أمواج من الطمأنينة الواثقة من نفسها ومن المحبّة لا يخبو لها شعاع، وكان النسيم اللعوب يداعب حينًا تجاعيد شعره الأسود الطويل، وحينًا يدخل ثنية من ثنايا ثوبه الفضفاض

ليخرج من أخرى. أمّا رجلاه المشدودتان بأسيار من جلد فوق نعل من خشب فقد علاهما احمرار من شدّة الصقيع.

كان ميكايّون أوّل من أدركه منّا، فانطرح على قدميه باكيًا، ضاحكًا، ومتمتمًا كمن يهذي من الحمّى: «الآن رُدّت روحي إليّ». وفعل الثلاثة الآخرون مثلما فعل ميكايّون. لكنّ المعلّم رفعهم إليه واحدًا واحدًا، مقبّلًا إيّاهم بلهفة لا حدّ لها وقائلًا:

مرداد: خذوا قبلة الإيمان. منذ الآن تنامون في الإيمان وتنهضون في الإيمان. ولن يتوسّد الشكّ وسادتكم، ولن يشلّ خطواتكم بالتردّد.

نروندا: أمّا الأربعة الباقون في الفلك فما صدّقوا أعينهم عندما بدا لهم المعلّم في الباب. فقد ظنّوه في البداية طيفًا من العالم الآخر، فاعترتهم رجفة من الجزع. لكنّهم ما أن سمعوا صوته إذ ألقى السلام عليهم حتّى راحوا يتسابقون إليه وينطرحون على قدميه. ما عدا شمادم الذي بقي كالمسمّر في مكانه. ففعل المعلّم بالثلاثة وقال لهم، مثلما فعل وقال للأربعة من قبلهم.

وكان شمادم يرقب ذلك المشهد بعينين حائرتين، وجثّته الضخمة ترتجف من رأسه حتّى أخمصيه، وشفتاه كأنّ بهما مناخس، وأصابعه تتلمّس منطقته على غير هدى. وفجأة زحل عن كرسيّه وحبا نحو المعلّم حبوًا فطوّق رجليه بيديه ومن غير أن يرفع بصره قال بصوت متهدّج: «أنا كذلك أؤمن». فأنهضه المعلّم، ولكن من غير أن يقبّله قال له:

مرداد: هو الخوف يهزّ جثّة شمادم الجبّارة ويحرّك لسانه ليقول: «أنا كذلك أؤمن». فشمادم يرتجف وينحني أمام «السِّحر» الذي انتشل مرداد من الهوّة السوداء وجاء به من سجن بتعار. وشمادم يخشى السحر أن يثأر منه. فليطمئنّ باله من ذلك القبيل. وليتّجه بقلبه شطر الإيمان الصحيح. إنّ إيمانًا محمولًا على موجة من الخوف ليس بأكثر من زبد الخوف. فهو يرتفع بارتفاعه ويهبط بهبوطه. أمّا الإيمان الصحيح فلا يزهر إلّا على جذع من المحبّة فيثمر فهمًا. إن كنت تخشى الله، فلا تؤمن بالله.

شمادم: (متراجعًا وعيناه أبدًا إلى الأرض)، يا لذلّ شمادم! فهو منبوذ حتّى في بيته. ألا سمحت لي في الأقلّ أن أكون خادمًا لك ولو ليوم واحد، فآتيك بأكل وثياب دافئة. فأنت لا شكّ جائع ومقرور.

مرداد: لي طعام لا تعرفه المطابخ، ودفء لا أستعيره من خيوط الصوف وألسنة النار. ويا ليت شمادم يختزن من طعامي ودفئي أكثر مما يختزن من المآكل والمدفئات المألوفة.

ها هو البحر قد جاء للتشتية على قمم جبالنا. وها هي قممنا جذلى بأن تلتفّ بالبحر المتجلّد كما لو كان عباءة. وما أدفأها في عباءتها! بل ما أسعد البحر أن يهجع هجعة المسحور على القمم. ولكنّها هجعة قصيرة المدى. إذ قريبًا يأتي الربيع؛ وكما تتململ أفعى عند انتهاء فصل التشتية

فتنساب من جحرها إلى الشمس والهواء، هكذا سيستعيد البحر حرّيته فيكّر من جديد ويفرّ من شاطئ إلى شاطئ ويمتطي الهواء، ويجوب السماء، وينزل ندًى أو غيثًا حيث شاء.

لكنّ هناك أناسًا مثلك يا شمادم، حياتهم شتاء مستمرّ وتشتية دائمة. أولئك هم الذين ما جاءتهم بعد بشارة الربيع.

مرداد هو البشير والبشارة. بشارة حياة هو مرداد لا ناقوس جنازة. فحتّى مَ تَشْتِيَتُكَ؟

صدّق يا شمادم أنّ الحياة التي يحياها الناس، والموت الذي يموتونه، تَشتيةٌ لا أكثر. وأنا ما جئت إلّا لأوقظ الناس من سباتهم وأهيب بهم من جحورهم وأوجارهم إلى حرّية الحياة التي لا تموت. صدّق لا خجلًا منّي أو إكرامًا لي، بل غيرةً على نفسك.

نروندا: لكنّ شمادم ما تحرّك من مكانه ولا فتح فاه. فهمس بنّون في أذنيّ أن أسأل المعلّم كيف تمكّن أن ينجو من سجن بِتعار؛ إلّا أنّ لساني ما تحرّك بالسؤال. وكأنّ المعلّم أدرك ما جال في خاطر بنّون فالتفت إليه وقال:

مرداد: إنّ سجن بِتعار ليس بعدُ سجنًا. إذ قد تحوّل إلى مزار. وأمير بِتعار ليس بعدُ أميرًا. فهو اليوم توّاق نظيركم.

حتّى السجون المظلمة، يا بنّون، يُستطاع تحويلها منارات متلألئة بالأنوار. وحتّى أمير بتعار يُستطاع حمله على طرح تاجه وصولجانه جانبًا. وحتّى السلاسل التي تحزّ في اللحم والعظم حزًّا يستطاع تحويلها آلاتٍ تنبض بأناشيد سماويّة. ليس من عجيبة يصعب اجتراحها على الفهم الذي لا عجيبة إلّاه.

نروندا: هبطت كلمات المعلّم بشأن تخلّي أمير بتعار عن العرش هبوط الصاعقة على شمادم. ولشدّ ما رُعبنا عندما رأيناه يتشنّج بغتة وتنتابه أعراض غريبة بفظاعتها. حتّى أنّنا حسبناه مائتًا لا محالة فما عرفنا كيف وبماذا نداويه. لكنّه ما عتّم أن غاب عن الوعي. فرحنا نعالج غيبوبته الطويلة. وما زلنا به حتّى استفاق.

الفصل الثلاثون

المعلّم يفشي حلم ميكايّون.

نروندا: مرّ زمان قبل عودة المعلّم من بتعار وبعدها، وميكايّون كأنّه غير ميكايّون. فهو يكتفي من الطعام بالقليل. ومن الكلام بالأقلّ، ولا يغادر مخدعه إلّا نادرًا، ولا يبوح لأحد بسرّه، حتّى ولا لي. وممّا زاد في حيرتنا من أمره أنّ المعلّم، على وفرة محبّته له، ما حاول يومًا أن يخفّف من كربته أو أن يطرد السأمة عن وجهه. وذات ليلة، إذ كان ميكايّون وباقي الرفاق يصطلون حول الكانون، أخذ المعلّم يحدثنا عن الحنين الأكبر:

مرداد: حلم رجل حلمًا. وإليكم ما حلم: حلم أنّه على ضفّة خضراء من نهر واسع المخاضة، بعيد الغور، لا يُسمع لجريه صوت، ولا تبصَر لمياهه حركة. وكانت الضفّة تموج بالناس من رجال ونساء تعدّدت لغاتهم، وتباينت أعمارهم، وفي يد كلّ منهم دولاب يدحرجه على الضفّة من طرف إلى طرف. والدواليب هذه متفاوتة الحجم، ملوّنة بكلّ ألوان قوس السحاب، على حدّ ما كانت عليه ثياب اللاعبين بها. وبدا للحالم أنّ هذه الجماهير المتألّبة صعودًا ونزولًا، كأنّها أمواج بحر جائش، كانت في مهرجان من اللهو والطرب أو في عيد عظيم. إلّاه وحده. فما كان له دولاب يدحرجه، ولا كانت عليه حلّة تليق بالعيد. إذ أنّه ما كان يعلم أنّ هناك عيدًا.

أرهف الرجل أذنيه علّه يسمع كلمة من لغته فلم يسمع. وحملق بعينيه في الجماهير عساهما تقعان على وجه تعرفانه فلم تقعا. فأدرك أنّه غريب بين ذلك الجمع، وأنّ العيد ليس عيده. وأحسّ انقباضًا وغصّة في قلبه. لا سيّما وقد لحظ أنّ الجماهير المتألّبة من حوله كانت ترمقه شزرًا وتقلب شفاهها إذ تمرّ به كأنّها تقول: «مَنْ هذا المخلوق المضحك؟»

وبينا هو كذلك إذا به يسمع خوارًا كأنّه قصف الرعد آتيًا من جانب الضفّة الأعلى؛ وإذا بالجموع تخرّ سجّدًا على ركبها، وتغطّي عيونها بأيديها، وتطأطئ رؤوسها حتّى الأرض، تاركة

في الوسط فرجة ضيّقة ومستقيمة على طول الضفّة. وبقي وحده واقفًا في وسط تلك الفرجة وقد حار في أمره فما يدري ماذا يفعل وأنّى يتّجه.

وحانت من الرّجل التفاتة إلى حيث سمع الخوار فإذا بثور هائل يعدو بسرعة البرق وسط ذلك الممرّ الضيّق، قاذفًا من فمه ألسنة من اللهيب ومن منخريه أعمدة من الدخان. فاستحوذ الرعب على الرجل وشلّ منه أعصابه، وسدّ عليه كلّ أبواب النجاة، فأيقن أنّه هالك لا محالة.

إلّا أنّه ما اقترب منه الثور إلى حيث كاد يحرقه بلهيبه ويخنقه بدخانه حتّى ارتفع هو فجأة في الهواء. فما كان من الثور إلّا أن وقف تحته ورفع رأسه إلى فوق وأخذ يصليه نارًا حامية ودخانًا مميتًا. ولكنّه كان يرتفع أعلى فأعلى، فلا يكاد اللهيب يلفحه والدخان يدركه حتّى يعلو على الاثنين. وما زال يمعن في الصعود إلى أن أيقن كلّ اليقين أنّه أصبح في مأمن من نار الثور ودخانه. وإذ ذاك أدار وجهه شطر الضفة الثانية.

وعندما التفت إلى تحت رأى الجماهير ما تزال جاثية على الركب، والثور ما يزال يرشقه هو بالسهام بدلًا من النار والدخان، وكان يسمع أزيز السهام إذ تمرّ من تحته. لكنّ واحدًا منها ما مسّ لحمه أو عظمه، وإن يكن البعض اخترق ذيول ردائه. وأخيرًا غاب الثور وغاب النهر وغابت الجماهير، وبقي الرجل محلّقًا في طيرانه، والأرض من تحته بلقع شَوَتْه الشمس فأقفر من كلّ حيّ. وما زال كذلك إلى أن قام في وجهه جبل أجرد غابت قمّته في الفضاء، وعفت تربته حتّى ولا نملة. فهبط الرجل عند أسفله وشعر أن لا بدّ له من تسلّقه، إذ لم يكن له من طريق سواه.

وراح الرجل يفتّش عن طريق أمين فلا يجد سوى شِعْبٍ لا يكاد يكون مرسومًا، كتلك الشعاب التي تسلكها المعزى في الجبال. فاعتزم أن يجعله طريقه. ولكنّه ما كاد يقطع منه بضع مئات من الخطوات حتّى أبصر عن يساره سبيلًا واسعًا كأنّه السبيل المعبّد. فوقع في حيرة من أمره ودهش لنفسه كيف أنّه لم يبصره من قبل. وكان على وشك أن يغيّر طريقه عندما التفت وإذا بالسبيل يغدو نهرًا بشريًّا، نصفه الواحد يجري صعودًا ببطء ومشقّة، ونصفه الآخر يكرُّ نزولًا بسرعة خاطفة. وفي كلا النصفين رجال ونساء لا يحصيهم عَدّ: الصاعدون منهم يتلوّون في صعودهم كالأفاعي المنهوكة، والنازلون يتدحرجون رؤوسًا على أعقاب، صارخين ومولولين كأنّهم جيش من الجنّ.

وقف الرجل يتأمّل ذلك المشهد الغريب وقد أخذ الرعب منه كلّ مأخذ. فما تبادر إلى ذهنه إلّا أنّ في مكان ما من الجبل بيتًا هائلًا للمجانين، وأنّ هؤلاء الناس أفلتوا منه.

وبعد قليل عاد يتوقّل في سبيله، فيقع هنا وينهض هنالك. ولكنّه كان أبدًا في صعود.

ومن يعد أن تسلّق مسافة من الجبل التفت ثانية إلى النهر البشريّ فإذا به قد جفّ وإذا بمخاضته قد امّحت فكأنّها ما كانت. فعاد، كما كان، وحده ولا رفيق له غير الجبل العبوس، ولا يد تدلّه على

الطريق، ولا صوت ينعش ما خار من عزيمته ويجدّد ما أتلف من قوّته إلّا صوت إيمان عميق، مبهم، بأن لا بدّ له من تسلّق الجبل.

وهكذا مضى الرجل في التسلّق، لا يستريح ولا يقنط، ولا يأبه لدمه يصبغ الحجارة والحصى، ولا للعرق يتصبّب من جبينه فيكاد يعميه. وما زال كذلك حتّى بلغ من الجبل نقطة طريئة التربة نظيفة حتّى من الحصى. ويا لبهجته ما كان أعظمها حين أبصر من حواليه بضع عشيبات زرقاء كأنّها انبثقت من الأرض قبيل لحظة لا غير. وكان النسيم بليل الجناح، معطّر الأنفاس. فكأنّ ما فيه من طراوة وعطر، وما في وريقات العشب من زرقة ونضارة، وما في التربة من نعومة ونظافة، سطت على الرجل المنهوك دفعةً واحدة فسلبته آخر درهم من قوّته، فاستسلم لسحرها وغرق في سبات عميق.

واستفاق الرجل بعد حين على يد تشدّه من يده وصوت يقول له: «انهض! فالقمّة قريبة منك، والربيع في انتظارك على القمّة». وإذا بصاحبة الصوت واليد فتاة مجلببة بجلباب فائق البياض وفي وجهها من الحسن ما يبهر البصر. فما شكّ في أنّها من كائنات الفردوس.

وأخذت الفتاة بيد الرجل فأحسّ دبيب قوًى جديدة في عضلاته. ونهض فأبصر القمّة، واشتمّ رائحة الربيع. ولكنّه ما إن همّ بالخطوة الأولى يخطوها نحو القمّة حتّى أفاق من حلمه.

ترى ماذا كان يفعل ميكايّون لو أنه أفاق من حلم كهذا فوجده مستلقيًا على فراش عاديّ، محصورًا ضمن جدران أربعة قاتمة، ولكن خلف أجفانه ما يزال يجول طيف كطيف تلك الفتاة، وفي أنفه ما يزال عبق الربيع على قمّة كتلك القمّة.

ميكايّون: (منتفضًا كالملسوع) ولكنّني أنا الرجل الذي تُحدّث عنه. والحلم الذي تقصّه حلمي. وأنا رأيت الفتاة والقمّة. وهذه الرؤيا ما تزال تتعقّبني حتّى اليوم. فهي التي سلبتني راحتي، وجعلتني غريبًا عن نفسي. فميكايّون من بعدها لا يعرف ميكايّون.

يا للدهشة! فأنا ما حلمت ذلك الحلم إلّا بعيد ذهابك إلى بتعار بقليل. فمن أين اتّصل بك حتّى ترويه في أدقّ تفاصيله؟ أيّ إنسان أنت؟ حتّى أحلام الناس تنكشف لعينيك فتقرأها كأنّها كتاب مفتوح أمامك.

يا لحرّية تلك القمّة! يا لفتنة تلك الفتاة! ويا لتفاهة كلّ ما في الكن إزاء عظمتهما! لقد هجرتني نفسي من أجلهما فما عادت إليّ إلّا ساعة أبصرتك راجعًا من بتعار. فعدت قويًّا، وعدت هادئًا. لكنّ قوتي ما لبثت أن تركتني، وهدوئي ما لبث أن انقلب اضطرابًا. فها أنا من جديد تشدّني خيوط لا أُبصرها إلى حيث لا أدري. فكأنّ بعضي ينفصل عن بعضي.

ألا خلّصني يا رفيقي الأكبر. فإنّني أتلاشى في سبيل رؤيا.

مرداد: ما إخالك تعرف ماذا تطلب يا ميكايّون. أتريد أن تخلَّص من مخلّصك؟

ميكايّون: أريد الخلاص من هذا الألم المبرّح، ألَمِ الذي لا موطن له ولا مأوى وسط عالم مستكنّ في مواطنه ومآويه. أريد أن أكون مع الفتاة على القمّة.

مرداد: لا تجزع يا ميكايّون. بل افرح لأنّ الحنين الأكبر قد احتلّ قلبك، وفي ذلك وعد صادق لك أنّك واجد لا بدّ موطنك ومأواك. وأنّك ستكون مع الفتاة على القمّة.

أبيمار: رجوناك أن تزيدنا علمًا بالحنين الأكبر: ما هو وبماذا نعرفه؟

الفصل الحادي والثلاثون

الحنين الأكبر.

مرداد: كالضباب هو الحنين الأكبر. فعلى حدّ ما ينبعث الضباب من البحر والبرّ فلا يلبث أن يحجب الاثنين، ينبعث الحنين الأكبر من أعماق القلب فلا يلبث أن يحجب القلب. ومثلما يغشى الضباب كلّ منظور فلا يذر للعين ما تبصره غير الضباب، هكذا يسطو الحنين الأكبر على كلّ ما في القلب من مشاعر فيتغلّب عليها ولا يترك للقلب ما يشعر به إلّا الحنين. ونظير ما يبدو الضباب للناس عديم الشكل والبصر والهدف، هكذا يبدو لهم الحنين الأكبر. حين أنّه في الواقع، كالضباب، يعجّ بمختلف الأشكال، وهو ثاقب البصر، سديد الهدف.

وكالحمّى هو الحنين الأكبر. فكما تشتعل الحمّى في البدن فتنهكه إذ هي تحرق سمومه، هكذا يلتهب الحنين الأكبر من احتكاك ما في القلب من شهوات، فيضني القلب إذ هو يلتهم كلّ ما فيه من صدأ ونفاية.

وكالسارق هو الحنين الأكبر. فمثلما يريح السارقُ اللبقُ غريمه من عبءٍ ويتركه، مع ذلك، فريسةً للسخط والأسى، هكذا يفعل هذا الحنين بالقلب، إذ يرفع عنه بخفّة متناهية كلّ أثقاله ويتركه، مع ذلك، في لجج من اليأس والكآبة، لا لسبب إلّا لأنّه لا يجد أثقالًا ينوء تحتها.

واسعةٌ هي الضفّة وخضراء حيث يُفني الناس أيامهم غناءً ورقصًا، وبكاءً، وعناءً. وهائل هو الثور القاذف بالنار والدخان، الذي يعقل ركبهم فيخرّون سجّدًا، ويردّ أغانيهم غصّات إلى حناجرهم، ويُغرّى أجفانهم بدموعهم.

واسع كذلك وعميق هو النهر الفاصل ما بينهم وبين الضفّة الثانية. فما يستطيعون اجتيازه لا سباحة ولا بالمجذاف، ولا بالشراع. وما أقلّ من جرؤ منهم أن يجتازه يومًا ولو بالفكر. فالسواد

الأعظم منهم يؤثر الالتصاق بضفّته الخضراء حيث يمضي كلٌ في دحرجة دولابه المختار من دواليب الزمان.

أمّا أخو الحنين الأكبر فلا دولاب له يدحرجه. فهو وحده لا يلجّ في عمل ولا يطمع في مكسب وسط عالم لا يعرف الراحة لا من العمل ولا من مهماز اللجاجة. وهو وحده عريان، وألكن، ومتثاقل الخطى بين إنسانيّة أنيقة اللباس والنطق والحركة. وهو لا يستطيع الضحك مع الضاحكين ولا البكاء مع الباكين. الناس يأكلون ويشربون ويستلذّون مأكلهم ومشربهم. أمّا هو فيأكل بغير شهيّة، وشرابه مرٌّ في فمه.

سواه يتزاوج أو يفتّش عن زوج. أمّا هو فيمشي وحده، وينام وحده، ويحلم أحلامه وحده. سواه غنيّ بمجون العالم وحكمته. أمّا هو فبليد وغبيّ. سواه يملك مساكن يتفانى في حبّها والذود عنها، وله مواطن يغالي في تمجيدها. أمّا هو فلا بيت له ولا موطن يتغنّى بهما ويذود عن حياضهما. ذلك لأنّ عين قلبه متّجهة شطر الضفّة الثانية.

ما أشبه أخا الحنين الأكبر برجل يمشي في نومه بين أُناس يبدون كأنّهم أيقاظ وما هم غير نائمين! فالماشي في نومه إنّما يمشي مسوقًا أو مَقودًا بحلم لا يبصر منه الأيقاظ من حوله شيئًا، لذلك يتهكّمون عليه ويضحكون منه في سرّهم مخافة أن يوقظوه. لكنّهم ساعة يظهر ربّ الخوف على المسرح، ذلكم الثور القاذف بالنار والدخان، ساعتئذٍ يخرّون ساجدين ويعضّون التراب مرتجفين. بينا الماشي في نومه، وقد كانوا منذ لمحة يتهكّمون عليه، يرتفع في الهواء على جناح الإيمان ويحلّق فوقهم وفوق ثورهم، ليجتاز النهر ويبقى محلّقًا حتّى أسفل الجبل الأجرد.

قفرٌ وقاحلةٌ وموحشةٌ هي الأرض التي يطير من فوقها. لكنّ للإيمان جناحين قويّين.

عَبوُس وأجرد ورهيب هو الجبل الذي يحطّ في أسفله. لكنّ للإيمان قلبًا لا يعرف الوجل.

ومملوءٌ بالمزالق هو الشِّعْبُ المؤدّي إلى القمّة. لكنّ للإيمان يدًا ناعمة كالحرير، وقدَمًا ثابتة الوطء، وعينًا نافذة البصر.

وهكذا يتوقّل الرجل ذلك الجبل الأجرد خطوة خطوة. فيلتقي في أوّل الطريق أناسًا يجدّون في السير مثله نحو القمّة، ولكن في سبيل واسع معبّد. أولئك الرجال والنساء هم إخوان الحنين الأصغر وأخواته. فهم كذلك يسعون إلى القمّة، ولكن خلف دليل أعرج وكفيف البصر. ودليلهم ذاك هو إيمانهم بكلّ ما تبصره العين، وتسمعه الأذن، وتتلمّسه اليد، ويشتمُّه الأنف، ويتذوّقه اللسان. بعضهم لا يبلغ من الجبل أعلى من كعبه؛ والبعض يبلغ ركبتيه، والبعض وركيه. وقليل هم الذين يبلغون خصره. إلّا أنّهم بغير استثناء تزلّ بهم القدم فيتدحرجون رأسًا على عقب إلى أسفل من غير أن يتاح لهم أن يلمحوا القمّة ولو لمحة واحدة.

أتستطيع العين أن تبصر كلّ ما يُبصَر، والأذن أن تسمعَ كلّ ما يُسمع؟ أو تستطيع اليد أن تلمس كلّ ما يُلمس، والأنف أن يشمَّ كلّ ما يُشَمّ، واللسان أن يذوقَ كلّ ما يُذاق؟ ما لم يُنجد الإيمان الحواسّ، ذلكم الإيمان المنبثق من الخيال الإلهيّ، يستحيل على الحواسّ أن تكون على ثقة ممّا تُحسّ وأن تصبح مرقاة إلى القمّة. والحواسّ، لا يقودها الإيمان المبصر، كالقافلة في القفر يقودها دليل أعمى. فطريقها، وإن بدا واسعًا ومعبّدًا، محفوف أبدًا بالمخاطر والأشراك الخفية. والذين يسلكونه إلى قمّة الانعتاق إمّا يهلكون في الطريق أو تزلّ بهم القدم فيتدحرجون إلى أسفل حيث ينصرفون إلى جبر ما تكسّر من عظامهم ورتق ما تفتّق من جلودهم.

إنّ إخوان الحنين الأصغر هم الذين يشيّدون عالمهم بمعونة الحواس من الموادّ التي تتناولها الحواسّ، فلا يلبثون أن يجدوا ذلك العالم ضيّق الأرجاء فاسد الهواء. وإذ ذاك تحنُّ قلوبهم إلى عالم فسيح المدى طاهر الأنفاس. ولكنّهم بدلًا من أن يفتّشوا عن موادّ جديدة ومهندس جديد، يرجعون إلى الموادّ القديمة فيهدمونها ثمّ يجمعونها ويَكِلون إلى المهندس عينه – إلى الحواسّ – بنيان عالم جديد منها. وما أن يتمّ البنيان حتّى يعودوا فيجدوه أضيق مجالًا وأفسد هواءً من الذي كان قبله. وهكذا يمضون في الهدم والبناء من غير أن يوفّقوا يومًا إلى عالم يكفل لهم الراحة التي يشتهون والحريّة التي إليها يحنّون. وما ذاك إلّا لأنّهم يلجأون إلى خادعيهم ليخلّصوهم من الخداع. فمثلهم مثل السمكة تقفز من المقلى إلى النار. فهم لا يخلصون من سراب إلّا ليجذبهم سراب أكبر.

ما بين إخوان الحنين الأكبر وإخوان الحنين الأصغر، تعيش قطعان البشر – الأرانب الذين لا حنين عندهم على الإطلاق – فهم لا يطمحون إلى أكثر من أن يحفروا أوجارًا يعيشون فيها ويتناسلون ثمّ يموتون. وأوجارهم قصور فخمة في أنظارهم، وفسيحة، ودافئة. فهم لذلك يهزأون بكلّ من يمشي في نومه، لا سيّما أولئك الذين يمشون بلا رفيق في شعاب قلّما يقعون فيها على أثر لأقدام. وإن وقعوا فعلى آثار لا تكاد تميّزها العين لقدميّتها.

بماذا عساني أُشبّه بعدُ أخا الحنين الأكبر بين إخوانه الناس؟ إنّه لشبيه بفرخ نسرٍ حضنته في البيضة دجاجة مع بيضها. فلما نقف زجّ مع الدجاجة وفراخها في القنّ. فراحت الدجاجة وفراخها يعجبون له كأنّه منهم وليس منهم، ويحاولون بكلّ قدرتهم أن يجعلوه يتخلّق بأخلاقهم، ويتطبّع بطباعهم، ويتقيّد بعاداتهم، ويعيش عيشتهم، وراح هو يعجب لهم كيف لا يحلمون مثله بالفضاء الطلق والسموات التي لا تُحدّ. فما كان منهم بعد حين إلّا أن نبذوه وأخذوا يُعملون فيه مناقيدهم. فما نجا حتّى من منقاد أُمّه. وما كان منه إلّا أن أدرك وحدته وغربته فيما بينهم، فتصبّر على مضض، وتحمّل قذارة القنّ وروائحه الكريهة، وفي أنفه عبير الرياح الحرّة، وفي أذنه نداء القمم البعيدة. وما برح كذلك حتّى اكتسى جناحاه بالريش. فامتطى الهواء وحلّق في الفضاء والتفت مودّعًا إلى

من كانوا حتّى هنيهة من الزمن إخوانًا له وأُمًّا، فإذا بهم ما يزالون ينكتون الأرض بمخالبهم ومناقيدهم طلبًا لدودة أو لحبّة.

إفرح يا ميكايّون. فحلمك حلم نبيّ. والحنين الأكبر قد ضيّق عليك عالمك وجعلك غريبًا عنه ومنبوذًا فيه. لكنّه قد أطلق خيالك من سجن الحواسّ المستبدّة. وخيالك قد ولّد لك إيمانك. والإيمان سيرفعك عاليًا فوق عالمك القديم، الضيّق الآسن، وسيحلّق بك عبر القفار السحيقة حتّى الجبل الأجرد. ثمّ يصعد بك الجبل حيث لا مندوحة لكلّ إيمان من أن يجرَّب، ليُطهَّر من آخر ذرّة من الشكّ. ومن بعد أن يطهّر من كلّ شكّ يقودك إيمانك إلى حدود القمّة الخضراء أبدًا. وهناك يسلّمك إلى الفهم ويعود أدراجه من بعد أن قام بوظيفته خير القيام. وإذ ذاك يمشي بك الفهم إلى الحرّيّة التي لا يُنطق بها، حرّيّة تلك القمّة التي هي مسكن الله الشامل كلّ شيء، ومسكن الإنسان المتغلّب.

لا بدّ لإيمانكم من الامتحان. فاثبت يا ميكايّون في امتحانك. اثبتوا كلُّكم. فوقفةٌ على تلك القمّة، وإن لم تطل غير لحظة، لجديرة بأن تتحمّلوا من أجلها أشدّ العذابات وأقساها. أمّا أن تسكنوها إلى الأبد فأثمن من كلّ ما في الدهور.

همبال: ألا رفعتنا الآن إلى تلك القمّة لنلمحها ولو لمحة، مهما تكن قصيرة؟

مرداد: تريّث يا همبال ولا تستبق ميعادك. فحيث أتنفّس أنا اليوم براحة كلّية تختنقون أنتم لقلّة الهواء. وحيث أمشي بسهولة فائقة تلهثون أنتم من التعب وتتعثّرون. اعتصموا بالإيمان. والإيمان يجترح المعجزة التي تتمنّون.

هكذا علّمت نوحًا.

وهكذا أعلّمكم.

الفصل الثاني والثلاثون

في الخطيئة ونزع مآزر أوراق التين.

مرداد: سمعتم ما يقال في الخطيئة. وها أنتم تودّون أن تعرفوا كيف أمسى الإنسان خاطئًا. وتقولون – ولا تثريب عليكم في ما تقولون – إنّه إذا كان الإنسان خاطئًا، وهو صورة الله ومثاله، فالله، لا شكّ، مصدر الخطيئة. ههنا فخٌّ للسائرين على غير هدى. وأنا أريد أن أنقّي طريقكم من الفخاخ كيما تنقّوا منها طرق الناس.

لا خطيئة في الله، إلّا إذا حسبتموها خطيئة للشمس أن تعطي الشمعة من نورها. كذلك لا خطيئة في الإنسان إلّا إذا عددتموها خطيئة للشمعة أن تذيب ذاتها في الشمس لتتّحد بالشمس. ولكنّ الخطيئة في شمعة تضنّ بنورها، وإذا ما أشعلتم فتيلتها بثقاب لعنت الثقاب واليد التي أشعلته. إنّما الخطيئة في الشمعة التي تخجل من أن تحترق في الشمس، ولذلك تحجب ذاتها عن الشمس.

ما عصى الإنسانُ الناموس فخطئ. لكنّه جهل الناموس فستر جهله وتمادى في ستر جهله فكانت الخطيئة.

أجل. إنّ الخطيئة لفي المئزر من ورق التين.

أما قرأتم حكاية سقوط الإنسان، تلكم الحكاية الإنسانيّة الأولى التي ما مثلها سذاجةً في المبنى وسموًا في المعنى؟ أما قرأتم كيف أنّ الإنسان حال انبثاقه من الله كان إلهًا طفلًا، سهل القياد، فاتر الهمّة، لا يحسن عملًا، ولا يخلق شيئًا؟ فهو، وإن كانت له كلّ صفات الألوهة، كان ما يزال قاصرًا، شأن كلّ الأطفال، عن معرفة القوى الكامنة فيه وممارستها.

ما أشبه الإنسان في جنّة عدن ببذرة مختوم عليها في قارورة جميلة. فالبذرة في القارورة تبقى بذرة. والعجائب التي في قلبها لا تبرز إلى الحياة والنور، ما لم تُدفن في تربة مؤاتية لطبيعتها، فتنشقّ قشرتها عنها. أمّا الإنسان في عدن فما كانت له تربة من جنس تربته ليزرع ذاته فيها فينبت

ويبصر نفسه ويعرفها. لقد كان، أنّى التفت، ما رأى وجهه منعكسًا على وجهٍ يماثله. وكيفما أدار أذنه ما سمع صوتًا شبيهًا بصوته. وحيثما رفع صوته ما ارتدّ إليه من حنجرة نظير حنجرته. أمّا نبضات قلبه فما كان يسمع لها قرارًا في أيّ قلب.

كان الإنسان وحيدًا فريدًا وسط عالم كلّ ما فيه ازدوج وسار في سبيله فكان غريبًا عن نفسه، لا عمل له ولا وجهة. فما كانت عدن له بأكثر من مهد ناعم، دافئ، أو بأكثر من مِرخمٍ دقيق الصنع تُحضن فيه مواهبه ريثما تنقف.

أما كانت شجرة معرفة الخير والشرّ وشجرة الحياة في متناول يده؟ لكنّه ما مدّ يومًا يده ليقطف من ثمارها، ويتذوّق طعمها. ذلك لأنّ إرادته وذوقه، وأفكاره وشهواته، حتّى حياته أيضًا، كانت ما تزال كلّها هاجعة في أكفانها تنتظر الصوت الذي سيهيب بها من غفلتها، واليد التي ستمزّق أكفانها رويدًا رويدًا. فكان لا بدّ له من عون. إذ أنّه وحده ما كان قادرًا أن يفعل شيئًا من ذلك. ومن أين لعونه أن يأتيه إلّا من صميم كيانه الزاخر بالمعونة؟ وذاك من الأهميّة على جانب عظيم.

فحوّاء ما كانت طينة جديدة ونسمة جديدة. بل كانت من طينة آدم عينها ونسمته بالذات، كانت لحمًا من لحمه وعظمًا من عظمه. ولا كانت حواء خليقة جديدة. إن هي غير شطر من الإنسان الذي انشطر شطرين: أحدهما ذكر دعي آدم، والآخر أُنثى دعيت حوّاء. فكان من ذلك أنّ الوجه الذي ما كان يرى له مثيلًا بين الوجوه، أصبح له في وجه حوّاء رفيق ومرآة. والاسم الذي ما ردّده صوت بشريّ من قبل، راح يتردّد أنغامًا عذبة في ممّرات عدن. والقلب الذي كان ينبض وحده في صدرٍ لا رفيق له، غدا يحسّ أنباضه ويسمع ترجيعها في قلب شبيه به وصدر مرافق لصدره. وهكذا لقي الزّنْد زنْدته فتطاير منه شراره وكان من قبلُ لا حرارة ولا شرار. وهكذا اشتعلت الشمعة من طرفيها، وكانت من قبل لا لهب ولا نور. واحدة هي الشمعة، وواحدة هي فتيلتها، وواحد نورها وإن بان كما لو كان منبجسًا من طرفين متناقضين. وهكذا البذرة في القارورة لقيت التربة التي تستطيع أن تنبت فيها وأن تتفتّح عمّا في أحشائها من أسرار.

تلك هي طبيعة الأحديّة غير الواعية أن تنشطر فتصبح ثنائيّة لتعود، بما تولّده الثنائيّة من احتكاك، فتدرك أحديّتها. ومن هذا القبيل كذلك كان الإنسان صورة صادقة ومثالًا ناطقًا لإلهه. فالله الذي هو الضمير الأوّل، ازدوج إذ نطق بذاته في الكلمة ثمّ توحّد الاثنان في الفهم الأقدس.

ليست الثنائيّة قصاصًا. إن هي إلّا طبيعة ملازمة للأحديّة وضروريّة لكشف ألوهيّتها. فما أجهل الذين يرون غير ذلك. بل ما أجهل الذين يعتقدون أنّ الانتقال من الأحديّة غير الواعية إلى الثنائيّة فالأحديّة الواعية يمكن أن يتّم في سبعة عقود أو في سبعة ملايين من العقود!

ألعلّه أمر يسير أن يصبح الإنسان إلهًا؟

أم لعلّ الله، والأبديّة كلّها في قبضته، بخيل وقاسٍ إلى حدّ أن لا يفسح للإنسان منها أكثر من سبعين سنة يوحّد فيها ذاته ويعود إلى عدن عارفًا ألوهيّته ووحدته مع الله؟

طويل هو طريق الثنائيّة. وأغبياء هم الذين يقيسونه بالروزنامة. فالأبديّة لا تعدّ دورات الكواكب.

لقد كان من ازدواج آدم أنّه تحوّل في الحال من كائن هادئ، فاتر، لا قدرة له على خلق شيء، إلى كائن يجيش بالحركة، والهمّة، وله القدرة على تجديد ذاته وخلق عالم مزدوج نظيره. فما إن ازدوج حتّى مدّ يده إلى شجرة الخير والشرّ فأكل منها وبذلك جعل كلّ عالمه مزدوجًا مثله. وهكذا تبدّلت الأشياء في نظره فغدت إمّا خيرًا وإمّا شرًّا، نافعة أو مضرّة، جميلة أو قبيحة. وكانت من قبل بريئة من الخير والشرّ، والنفع والضرّ، والقبح والجمال. كانت في معسكر واحد متآلف فانفصلت إلى معسكرين متضادّين.

وما هو صوت الحيّة التي أغوت حوّاء على تذوّق الخير والشرّ إن لم يكن الثنائيّة التي لا تعرف السكون، والتي لا خبرة لها بعد، يحثّها على العمل والاختبار؟ أمّا أنّ حوّاء كانت أسبق من آدم إلى سماع ذاك الصوت والانصياع لأمره فلا غرابة في ذلك البتّة، فحواء ما كانت سوى المشحذ لرفيقها أو الآلة المعدّة لإظهار القوى الكامنة فيه.

أما حاولتم مرارًا أن تمثّلوا لأنفسكم هذه الحكاية البشريّة العجيبة؟ أما تصوّرت لكم حوّاء تسترق خطاها بين أشجارها عدن، متلفّتة في كلّ ناحية مخافة أن يراها رقيب، وقلبها يخفق في صدرها كأنّه عصفور في قفص، وأعصابها كأنّها الأوتار المشدودة، والشهوة تسيل لعابًا على شفتيها إذ هي تمدّ يدها المرتجفة لتتناول ثمرة من تلك الثمار الغرّارة؟ أما حبستم أنفاسكم إذ رأيتموها تقطف الثمرة المحرّمة وتُعمل أسنانها في لبّها الطريء، لتتذوق حلاوةً ما دامت لحظة حتّى انقلبت إلى أبديّة من العذاب لها ولكلّ ذرّيتها من بعدها؟

أما تمنيّتم من كلّ قلوبكم لو أنّ الله أدركها قبيل أن غلبتها الشهوة الهوجاء، لا بعد، فحال بذلك دونها ودون هفوتها القتّالة؟ وحتّى من بعد أن فعلت حوّاء فعلتها، أما تمنيّتم لو أنّ آدم كان أوفر منها حكمة وأصلب عودًا فما انقاد لشهوتها ولا ساهمها في جنونها.

إلّا أنّ الله ما حال دون شهوة حوّاء، ولا آدم عفّ عن المشاركة فيها. ذلك لأنّ الله ما أراد الإنسان أن يكون غير مثاله. بل أراد أن تكون له إرادة حرّة كإرادته. ولذلك اختطّ له سبيل الثنائيّة، حتّى إذا ما اجتازه بلغ الفم، وإذا ما بلغ الفهم توحّد نظير الله.

أمّا آدم فما كان في إمكانه، حتّى ولو شاء، أن يحجم عن الأكل من الثمرة التي قدّمتها رفيقته إليه. بل كان لزامًا عليه أن يأكل منها لمجرّد أكل زوجه منها. فما هو وزوجه غير لحم واحد وعظم واحد. وكلّ ما يفعله الواحد فكأنّ الآخر فعله حتمًا.

أحقًا أنّ الله غضب على الإنسان لأنّه أكل من شجرة معرفة الخير والشرْ؟ معاذ الله. فالله ما أمر الإنسان أمرًا، بل أنذره إنذارًا. لأنّه كان يعلم أنّ الإنسان آكل من الشجرة لا محالة. وقد كان يريده أن يأكل. لكنّه كان يريده أن يعرف كذلك عاقبة الأكل وأن يتحمّلها بصبر وبسالة. وكان الإنسان صبورًا. وكان باسلًا.

أمّا عاقبة الأكل فكانت موتًا. فالإنسان بانتقاله إلى الثنائيّة العاملة الواعية، مات للأحديّة الساكنة الغافلة. إذن ليس الموت بالقصاص؛ إن هو غير مرحلة ملازمة لحياة الثنائيّة. فمن طبيعة الثنائيّة أن تخلق لكلّ شيء زوجًا أو ظلًا، أو توأمًا. هكذا كان لآدم توأم في حواء. وكان لحياة آدم وحواء توأم في الموت. لكنّ آدم وحواء، وإن خلقا لحياتهما ظلًّا هو الموت، ما برحا حيّين في حياة الله التي لا ظلّ لها. الثنائيّة احتكاك دائم بين أمرين يصوّرهما الوهم كما لو كانا نقيضين أو ضدّين يعمل كلّ منهما أبدًا للقضاء على نقيضه أو ضدّه. أمّا في الواقع فما هما غير شطرين يكمّل واحدهما الآخر فيعمل الاثنان يدًا بيد لغاية واحدة، ألا وهي الوصول إلى السلام الكامل، والوحدة الكاملة، والتوازن الكامل في الفهم المقدّس. لكنّ وهم التناقض ينبت في الحواس الخارجيّة وينمو فيها. فهو باقٍ ببقائها.

لذلك أجاب آدمُ الله عندما دعاه من بعد أن انفتحت عيناه: «سمعت صوتك في الجنّة فخشيت لأنّي عريان، فاختبأت... المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت».

ما كانت حوّاء غير لحم من لحم آدم وعظم من عظمه. فما أغرب هذه الـ أنا التي وُلدت لآدم حالما انفتحت عيناه، والتي راحت ترى ذاتها غير ذات حوّاء، وغير ذات الله، وغير كلّ مخلوقات الله! لكنّها ما كانت غير وهم صوّرته العين المنفتحة حديثًا. فلا جوهر فيها ولا حقيقة لها. وهي ما وُلدت لآدم إلّا ليعرف بموتها ذاته الحقّة التي هي ذات الله. وهي ستتلاشى يوم تُظلم العين الخارجيّة وتنفتح العين الباطنيّة. إلّا أنّ آدم، وإن وقع في حيرة من أمرها، راح يتعشّقها بفكره وخياله. فقد أغراه أن تكون له ذات خاصّة به ومنفصلة عن كلّ ذات. ذلك لأنّه يجهل ذاته الحقّة.

وتمسّك آدم بذاته الموهومة بكلّ ما فيه من قوّة الوهم فما كان ليتنازل عنها رغم أنّه كان يخجل بها لأنّها عريانة، أوْ لا وجود لها. بل راح يسيّجها بقلبه ويفديها بدمه ويناضل عنها بكلّ ما أوتيه من الدهاء والمعرفة من بعد أن انفتحت عيناه. فكان أوّل ما فعله من أجلها أن خاط لها مئزرًا من ورق التين لستر عريها ويحجبها عن عين الله التي تخترق كلّ الستائر والحُجُب.

فنتج عن ذلك أنّ الإنسان المؤتزر بورق التين، فَقَد جنّة عدن، تلك الغبطة الغافلة والوحدة التي ما كانت تعرف ذاتها. وقام بينه وبين شجرة الحياة سيف من نار. خرج الإنسان من جنّة عدن من الباب المزدوج، باب الخير والشرّ؛ لكنّه سيرجع إليها من الباب الموحّد، باب الفهم المقدّس. خرج وظهره نحو شجرة الحياة؛ لكنّه سيعود ووجهه إليها. ثمّ انطلق في سبيل الثنائيّة الطويل وبه خجل

من عريه؛ لكنّه سيبلغ نهاية السبيل ولا مئزر على طهارته، وقلبه فخور بعريه. إلّا أنّ ذلك لن يتمّ له حتّى يتغلّب على الخطيئة بالخطيئة. فالخطيئة في النهاية ستكون مهلكة للخطيئة. إذ لا خطيئة إلّا في المئزر من ورق التين.

أجل، لا خطيئة إلّا في الحاجز الذي أقامه الإنسان بين نفسه والله؛ بين ذاته الزائلة وذاته الأزليّة الأبديّة.

ما كان ذلك الحاجز في البداية إلّا قبضة من ورق التين. لكنّه على مرّ الزمان أصبح سورًا هائلًا. فمنذ أن خلع الإنسان عنه نقاوة عدن وهو يدأب بغير انقطاع في جمع أوراق التين وخياطة مآزر منها. أمّا الكسالى من الناس، فيكتفون برتق ما تهرّأ من مآزرهم بما ينبذه النشيطون من مآزر قديمة أو بالية. وأمّا النّشطون فما ينفكّون يخيطون مآزر جديدة، وإن رتقوا مئزرًا قديمًا فبأوراق جديدة. وكلّ رتقٍ في ثوب الخطيئة ليس إلّا خطيئة، لأنّ من شأنه أن يؤبّد خجل الإنسان الذي كان أوّل شعور تنبّه فيه، حال انفصاله عن الله.

وماذا عسى الإنسان يفعل اليوم للتغلّب على خجله، والانعتاق من عاره؟ أوّاه! لا شيء. فما كلّ أعماله سوى عار يضاف إلى عار؛ ومآزر فوق مآزر.

أليست فنون الإنسان وعلومه أوراقًا من التين؟

وممالكه، وحواجزه الجنسيّة والقوميّة، ومذاهبه الدينيّة النافخة أبدًا في بوق الحرب، أليست هذه كذلك أصنافًا من عبادة ورق التين.

وتثمينه ما لا يثمّن، ووزنه ما لا يوزن، وقياسه ما هو أبعد من كلّ قياس؛ أليس ذلك كلّه رتقًا لمئزر تهرّأ لكثرة ما رُتق؟

وجشعه في الملذّات الحبلى بالألم، وطمعه في الغنى الذي يُفقر، وعطشه إلى السلطة التي تستعبد، وهيامه بالعظمة التي تُصغّر وتحقّر؛ أليست كلّ هذه مآزر من ورق التين؟ لقد لجّ الإنسان في ستر عاره، فكان من لجاجته أنّه أكثر من صنع المآزر وراح يرتديها الواحد فوق الآخر. وهذه المآزر، على كرّ الزمان، أصبحت ألصق به من جلده، حتّى أنّه ما بقي يميزها بشيء عن جلده. وإذ أثقلته كثرة جلوده إلى حدّ أن ضيّقت عليه أنفاسه، عاد يصيح المدد، ويفتّش عمّن يريحه من أثقاله. وكأنّه، لشدّة ما برّح به الألم، فقد رشده. فهو يطلب أن يُراح من أثقاله بكلّ الوسائل ما خلا الوسيلة الوحيدة المؤدّية إلى الراحة. وهي طرحه الأثقال عن ظهره. وذلك يعني أنّ الإنسان يطلب المستحيل، يطلب الخلاص من أثقاله التي هي مآزره، ولا يرضى أن يتخلّى عن مآزره. يريد أن يتعرّى من غير أن يُنضي ثوبًا من أثوابه.

لكنّ يوم التعرّي قد أزف. وأنا ما جئت إلّا لأساعدكم في نزع ما اكتسبتموه من جلود جديدة وثقيلة كيما تساعدوا الناس في نزع جلودهم المرهقة. إنّي أدلّكم على الطريق لا أكثر. ومن ثمّ فعلى

كلٍّ منكم أن ينزع جلوده بيده مهما يكن من ألم في مثل ذاك العمل. لا تخافوا الألم، ولا تنشلّ أيديكم من الخوف فتلبثوا في انتظار معجزة تنوب عنكم في فعل ما فِعله منوط بكم دون غيركم. فمتى عرفتم نشوة الفهم العريان من كلّ وهم نسيتم كلّ ما انتابكم من ألم وحزن.

وعندئذٍ إذا أبصرتم أنفسكم عراةً من كلّ شيء إلّا الفهم، وناداكم الله سائلًا: أين أنتم؟ ما شعرتم بأقلّ خجل أو خوف ولا اختبأتم من وجه الله. بل وقفتم أمامه خالين من كلّ خوف، أحرارًا من كلّ قيد، وأجبتموه بصوت هادئ مطمئنّ:

«ها نحن يا الله، يا حياتنا ويا كياننا، ويا ذاتنا التي لا ذات إلّاها.

لقد قطعنا الطريق الذي أعددته لنا منذ فجر الزمان. طريق الخير والشرّ الطويل، الملتوي الكؤود.

قطعناه خجلين، وجلين. فكان الحنين الأكبر قائدًا لخطانا، والإيمان عونًا لقلوبنا، والآن قد نزع الفهم عنّا كلّ أثقالنا، وضمّد جراحنا، وعاد بنا إلى حضرتك القدسيّة عراةً من الخير والشرّ، ومن الحياة والموت، ومن كلّ أوهام الثنائيّة ومن كلّ ذات ما خلا ذاتك الشاملة كلّ ما في الوجود. وها نحن وقوف أمامك، ولا مآزر من ورق التين علينا؛ ولا خوف في قلوبنا ولا خجل، بل في قلوبنا نور لا يوصف، وطمأنينة لا تُحَدّ. ها نحن قد توحّدنا. وها نحن قد تغلّبنا».

وإذ ذاك يعانقكم الله عناق محبّة لا حدّ لها ويقودكم في الحال إلى شجرة الحياة – حياته.

هكذا علّمت نوحًا.

وهكذا أعلّمكم.

نروندا: وهذا كذلك فاه به المعلّم حول الموقد.

الفصل الثالث والثلاثون

في الليل – سيّد المنشدين.

نروندا: حالت ثلوج الشتاء وأعاصيره وزمهريره ما بيننا وبين وكر النسور شهورًا بتنا بعدها نحنّ إليه حنين المنفيّ إلى صحن داره. فما أن أقبل الربيع حتّى قادنا المعلّم ذات ليلة إليه. وكانت ليلة كحيلة الجفن لألاءة الحدقة، يقظة القلب، معطّرة النفَس، سريعة النبض.

دخلنا الوكر فألفينا الحجارة الثمانية التي كانت لنا فيه بمثابة الكراسي ما تزال مصفوفة في شكل نصف دائرة على حدّ ما تركناها ساعة اقتادوا المعلّم إلى بتعار. فكان جليًّا أنّ أحدًا ما دخل الوكر منذ تلك الساعة.

ثمّ جلسنا كلٌّ في مكانه المعتاد ولبثنا نتوقّع من المعلّم أن يبدأ بالكلام. لكنّه ما فتح فاه. وكأنّ البدر المطلّ علينا من سمائه كان يرحّب بنا وقد علقت أجفانه، نظير أجفاننا، بشفتي المعلّم.

وكانت الشلّالات الجبليّة الهاوية من صخر إلى صخر تملأ الليل بأهازيجها. وبين الفينة والفينة كانت تطرق آذاننا نبضات متقطّعة من نعيب بومة أو نشيد جدجد.

لبثنا كذلك برهة ونحن لا يكاد يُسمع لنا نفَس. وإذا بالمعلّم يرفع رأسه ويفتح عينيه نصف فتحة ويأخذ يكلّمنا هكذا:

مرداد: في هدأة هذا الليل يودّ مرداد أن يسمع وإيّاكم أناشيد الليل. أعيروا الليل سمعكم. فالليل لا شكّ سيّد المنشدين. من شقوق الماضي السحيق، ومن ثكنات المستقبل القصيّ؛ من قباب السماء ومن أحشاء الأرض تتدفّق أصوات الليل أمواجًا متتالية تغمر الكون أدناه وأقصاه. وإذ تمرّ بآذانكم تدور من حولها طالبة الدخول. ألا انزعوا الأوقار من آذانكم كيما يتاح لكم أن تسمعوا.

إنّما الليل ساحر يجلو بخوارق سحره كلّ ما يغشّيه النهار الصاخب بلهوه وعبثه. أما ترون إلى القمر والكواكب كيف تحتجب بوهج النهار فلا يميط حجابها إلّا الليل؟ أم لا ترون إلى الأصوات

التي يخنقها النهار بضوضائه كيف تُبعث حيّةً على أوتار الليل النشوان بألحان السكينة؟ حتّى الأعشاب تنشد أحلامها في نشيد الليل.

اسمعوا الأفلاك في دورانها ترنّم تهويدة السرير.
للطفل العملاق الهاجع في سرير من الرمال الغوّارة الغدّارة.
بل الملك المتدثّر بأسمال الصعاليك.
بل البرق المصفّد بالحديد.
بل الإله المقمّط بالقُمُط.

واسمعوا الأرض تعاني في آنٍ أوجاع المخاض
وتُرضع البنين وتنمّيهم وتزوّجهم ثمّ تدفنهم.
ففي الغابات تزمجر الضواري مترصّدة فريسة، أو منقضّةً على فريسة، أو ممزّقة تمزيق الفريسة.
والدبّابات تدبّ في سبيلها.
والهوامّ تطنّ أناشيدها السرّية.
والعصافير الغافية على الأفنان تردّد في أحلامها أقاصيص المروج وأغاني الجداول.
وكلّ ما في الغاب من شجر وأدغال، ومن جماد ومتحرّك، يرشف الحياة بأكواب الموت.

من كلّ قنّة ومن كلّ واد،
من صدور الصحارى ومن قعور البحار،
من الفضاء ومن تحت التراب،
ترتفع أصوات الليل متحدّية الإنسان، ذلك الإله المحجّب بالزمان والمكان، أن ينزع عنه حجابه.

اسمعوا أمّهات العالم كيف يُعْوِلْنَ ويولولن.
وآباء العالم كيف يئنّون ويلهثون.
اسمعوا أبناءهم وبناتهم يَعْدون من المدفع وإلى المدفع
مبكّتين الله، لاعنين القدر.
متظاهرين بالمحبّة ونافثين البغضاء.
شاربين الحماسة لترشح من عروقهم جبنًا وخوفًا.
هارقين نجيعهم على النيران المشبوبة من حولهم والزاحفة حثيثًا عليهم زحف الحمم من البركان.

اسمعوا أمعاءهم الجاقّة تتقطّع،

وأجفانهم المقرّحة ترفُّ رفّة البله المذعور،

وأناملهم الذاوية تفتّش على غير هدى عن جيف آمالهم، وقلوبهم المفجوعة تتمدّد ثمّ تنفطر أكداسًا فوق أكداس.

اسمعوا قعقعة الآلات الجهنميّة.
ثمّ اسمعوا المدن العاتية تنهار إلى الحضيض،
والأبراج الشامخة تدقّ بأيديها دقّات حزنها،
ومعالم الماضي تتخبّط في برك من الدماء والأوحال.

اسمعوا صلاة البارّ تمتزج بفحيح الفجور
وتمتمة الطفل الطهور تتزاوج مع نميمة اللآّمة،
وبسمة العذراء الخجول تغرّد مع كيد الغبيّ،
ووجد الشجاع المتوّهج يدندن خواطر الوغد والجبان.

في كلّ خيمة لكلّ عشيرة،
وفي كلّ بيت لكلّ أمّة.
يقرع الليل للإنسان طبل القتال.

غير أنّ الليل إذ يرنّم تهويدة السرير للإنسان،
وإذ يقرع الطبل للقتال،
يعود فيسكب كلّ ذلك بسحره الفائق الإدراك
في نشيد واحد أدقّ وأرقّ من أن تستوعبه الأذن.
هو نشيد سَمَتْ نبراته، وجلّت وقفاته،
وبَعُد قراره، وفاضت حلاوته إلى حدّ أنّ أعذبَ ما تنشده الملائكة
ليس إزاءه سوى ثرثرة وجلبة.
ذلك هو نشيد الإنسان المتغلّب.

إنّ الجبال المثقلة بالنعاس في أحضان الليل،
والفيافي الغارقة في لجج من الذكريات،
والبحار الماشية أبدًا في نومها،
والدراري الهائمة في فضائها،
والساكنين في مدن الأموات،
والثالوث الأقدس مع إرادته الكليّة،

كلّ هذه وكلّ هؤلاء يبتهجون بأن يحيّوا الإنسان المتغلّب،
وأن ينشدوا له نشيد الغلبة.
فيا لَطوبى السامعين والمستوعبين!

يا لَطوبى مَن إذا ما لفّهم الليل بعزلته، كانوا كالليل هدوءًا وعمقًا واتّساعًا.
فما صفعتهم في الظلام آثام اقترفوها في الظلام،
ولا حرقت أجفانَهم عبرات سكبتها عيونٌ غير عيونهم وكانوا السبب في سكبها،
ولا شعروا بأيديهم يتأكّلها حكاك الأذيّة والطمع،
ولا بآذانهم يحاصرها فحيح أهوائهم،
ولا لدغت أفكارُهم أفكارَهم،
ولا كانت قلوبهم مباءة لكلّ أصناف الهموم المغيرة بغير انقطاع من كلّ نخروب من نخاريب الزمان،
ولا أدمغتهم تربة تحفر فيها المخاوفُ الأنفاقَ والخنادق،
الذين في مستطاعهم أن يخاطبوا الليل بكلّ جرأة قائلين: «ألا أعْلِنّا للنّهار» وأن يقولوا للنهار: «ألا أَعْلِنَّا لليل».

أجل طوباهم مَثْنَى وثُلاثَ أولئك الذين إذا ما لفّهم الليل بعزلته أحسّوا ذواتهم مدوزنين ومطمئنّين وغير متناهين كالليل.

فلهم وحدهم ينشد الليل نشيد المتغلّبين.

إذا شئتم أن تجابهوا مخرقات النهار ودسائسه ومثالمه، وجباهكم عالية لامعة، وأحداقكم تشعّ ثقةً وإيمانًا، فأسرعوا لكسب صداقة الليل. صادقوا الليل.

اغسلوا قلوبكم بدمائكم وأودعوها قلب الليل. ثمّ ضعوا في راحة الليل حنينكم عاريًا من كلّ زخرف وغشّ، ثمّ اسفحوا على أقدامه دماء كلّ مطامحكم ما خلا مطمح الوصول إلى الانعتاق بواسطة الفهم المقدّس. وعندها تصبحون في مأمن من حمم النهار وسهامه. ويشهد لكم الليل أمام الناس بأنّكم حقًّا متغلّبون.

إذ ذاك، وإن تقاذفتكم أيدي نهارات محمومة،
وغمرتكم بدجّناتها ليالٍ عمياء،
فوجدتموكم على مفارق طرق العالم، منبوذين منسيّين،
ولا من يد أو من علامة تدلّكم على الطريق،
بقيتم، مع ذلك، أقوى من أيّ إنسان وأيّ ظرف،
وقطّ ما خامركم شكّ في أنّ الأيّام والليالي، والناس وغير الناس، سيفتّشون عنكم في النهاية.

ويأتونكم صاغرين ومتوسّلين لتقودوهم إلى المحجّة.

ذلك لأنّكم نلتم ثقة الليل. ومن كانت له ثقة الليل كان في قدرته أن يقود النهار الآتي.

أعيروا سمعكم لقلب الليل. ففيه ينبض قلب الإنسان المتغلّب.

لو كان في عينيّ دموع لأرقتها في هذا الليل أمام كلّ نجم وكلّ ذرّة تراب، وكلّ جدول يعدو وجدجد يشدو، وكلّ بنفسجة تنشر روحها العطر على كفّ النسيم، وكلّ هضبة ووهدة، وكلّ عشبة خضراء – أجل لأرقتها أمام كلّ ما في هذا الليل من السلام والجمال، كفّارة عن عقوق الناس وجهلهم البربريّ.

فالناس، وهم أرقّاء الفلس الأذلّاء، لاهون في خدمة مولاهم عن سماع أيّ صوت، والإمتثال لأيّ إرادة إلّا صوت الفلس وإرادته.

ويا لخدمة مولى الناس ما أشقّها وما أفظعها من خدمة! فهي تقضي على الناس بتحويل عالمهم إلى مسلخ هم فيه القصّابون والمقصَّبون. هكذا، وقد سكروا بالدّم، يذبح الناسُ الناسَ موقنين أنّ الذابحَ يرثُ حصّة المذبوح في كلّ بركات الأرض وهبات السماء.

يا لتعسهم ويا لغرورهم!

أسمعتم يومًا بذئب افترس ذئبًا فأصبح حملًا؟

أم بأفعى سحقت أفعى وابتلعتها فصارت حمامة؟

أم بإنسان قتل إنسانًا فورث خيراته دون ويلاته؟

أم بأذن وقرت شقيقتها فغدت من بعدها أرهف سمعًا وأوفر استمتاعًا بحلاوة مغاني الحياة؟

أم بعين سلمت رفيقتها فباتت أجلى من ذي قبل وأقدر على استجلاء جمالات الوجود؟

أعَلى البسيطة إنسان أو جيش من الناس في مستطاعهم أن يستوعبوا خيرات ساعة واحدة سواء أكانت من الخبز والخمر، أم من النور والسلام؟

لا تلد الأرض أكثر ممّا في قدرتها أن تغذّي. والسماء لا تسرق ولا تستجدي من أحدٍ قوتًا لأبنائها.

كذب القائلون للناس: إذا ما شئتم أن تشبعوا فاقتلوا وَرِثوا الذين تقتلون. إذ أنّى لمن ما درى كيف ينعم ويسمن بمحبّة الناس، وبلبن الأرض وشهدها، وبعطف السماء وحنانها، أن ينعم ويسمن بدموع الناس ودمائهم وحسراتهم؟

كذب القائلون للناس: كلّ أمّة لذاتها. كيف لأمّ الأربع والأربعين أن تتقدّم قيد قيراط إذا راحت كلٌّ رجلٍ من أرجلها تمشي في وجهة معاكسة رفيقاتها أو تعمل على إتلاف رفيقاتها؟ أليست الإنسانية أمّ أربع وأربعين هائلة وكلّ أمّة بمثابة رجلٍ من أرجلها؟

كذب القائلون للناس: أن تَحكُموا شرف، وأن تُحكَموا عار.

أليس سائق الحمار مَقودٌ بذيل حماره؟ أليس السجّان أسير سجينه؟ حقًّا إنّ الحمار ليسوق قائده. والسجين ليسجنُ سجّانه.

كذب القائلون للناس: السباق للسريع، والحقّ للقويّ. فالحياة ما كانت يومًا سباق عضلات وأعصاب. فكم من كسيح أو مشوّه بلغ القمّة قبل الصحيح. وكم من بعوضة صرعت مصارعًا.

كذب القائلون للناس: إنّ الإساءة لا تمحوها إلّا الإساءة. فحتّى اليوم ما ولدت إساءتان حقًّا واحدًا. دعوا الإساءة وشأنها. فهي كفيلة بأن تمحو ذاتها بذاتها. واعلموا أنّ ظلم الناس للناس هو عدل الإرادة الكليّة في الناس.

لكنّما الناس أغرار. فما أسرع ما يصدقون فلسفة الفلس وأعوانه الأوغاد، وما أطوعهم في ترضيتهم. أمَّا الليل الذي ينشد لهم نشيد الانعتاق، بل الله الذي هو الانعتاق، فلا يصغون لهما ولا يحفلون بهما. فلا عجب يا رفاقي إذا هم وسموكم بسمة الجنون والشعوذة.

لا يثقلنّ عليكم عقوق الناس وتهكّمهم اللاذع. بل اعملوا بمحبّة فيّاضة وصبر لا نفاد له من أجل خلاصهم من نفوسهم ومن طوفان النار والدم الذي سيدهمهم قريبًا.

لقد آن الأوان للناس أن يكفّوا عن ذبح بعضهم بعضًا.

فالشمس والقمر والنجوم ما تزال منذ الأزل ترتقب العين التي ستبصرها وتفهمها؛ وكتابُ الأرض، الفكرَ الذي سيفكّ ألغازه؛ ومسالكُ الفضاء، الأقدامَ التي ستسلكها؛ وخيطُ الزمان المعقّد، اليدَ التي ستحلّ عقده؛ وعبيرُ الوجود، الأنفَ الذي سيتنشّقه؛ ومغاورُ الألم، المنجنيقَ الذي سيدمّرها؛ ووجارُ الموت، الغازيَ الذي سيغزوه فيتركه خرابًا؛ وخبزُ الفهم، الفمَ الذي سيتذوقه؛ والإنسانُ، ذلكم الإلٰه المحجّب، مَن سيميط عنه حُجبه.

أجل، لقد آن الأوان للناس أن يكفّوا عن سلب الناس ونهبهم وأن يوحّدوا صفوفهم للقيام بالمهمّات الكبيرة التي تنتظرهم.

خطيرة هي تلك المهمّات وثقيلة. لكنّما الفوز أحلى من أن يوصف، وأجلُّ من أن يُقدّر. وكلّ ما عداه تافه ووضيع ودميم.

بلى، لقد آن الأوان، ولكن ليس للجميع. فلن يسمع هذا النداء إلّا القليل. أمّا الباقون فلا بدّ لهم من انتظار نداء غير هذا النداء وفي فجر غير هذا الفجر.

الفصل الرابع والثلاثون

في البيضة الأمّ.

مرداد: في هدأة هذا الليل يودّ مرداد أن يكلّمكم في البيضة الأمّ.

الفضاء وكلّ ما فيه بيضة قشرتها الزمان. تلكم هي البيضة الأمّ.

وكما يحضن الهواء الأرضَ كذلك يحضن هذه البيضة روح الإله المنعتق من قيود المكان والزمان، الإله الشامل، الحياة غير المجسّدة، المتسامية عن البدايات والنهايات وعن المدارك والأسماء.

أمّا الذي ضمن البيضة فالإله الجرثومة، الإله المشمول، الحياة المجسّدة، والمتسامية كذلك عن النهايات وعن المدارك والأسماء.

وهذه البيضة، وإن تاخمت اللانهاية من كلّ صوب، ليست في ذاتها بغير نهاية. إلّا أنّ أبعادها لا تنقاد إلى مقاييس الناس.

كلّ ما في الكون من حيّ وغير حيّ ليس سوى بيض من مكان وزمان وقد انغلقت كلّ واحدة منه على نفس الإله/الجرثومة، ولكن في درجات متفاوتة من الانكشاف، وإن شئتم فقولوا من الوعي أو من «النموّ». فالإله/الجرثومة في الإنسان قد بلغ من النموّ في المكان والزمان أبعد مما بلغه في الحيوان. وفي الحيوان أبعد منه في النبات، وهكذا نزولًا حتّى آخر درجة دون الإنسان، وصعودًا حتّى أعلى درجة فوقه في سلّم الكائنات.

ثمّ إنّ هذه البيضات التي لا تحصى، والتي تمثّل كلّ الكائنات من منظور وغير منظور ومن حيّ وغير حيّ، قد رُتّبت ضمن البيضة الأمّ ترتيبًا عجيبًا بحيث أنّ أبعدها امتدادًا أو وعيا أو نموًّا في المكان والزمان ينطوي على كلّ ما هو دونه امتدادًا أو وعيًا أو نموًّا. وهكذا تتدرّج من الأكبر

إلى الأصغر حتّى تبلغ البويضة المركزيّة المتناهية في صغرها والتي هي الإله/الجرثومة الذي ما تمدّد بعد لا في المكان ولا في الزمان.

بيضة ضمن بيضة ضمن بيضة إلى ما لا حدّ له ولا عدّ. أمّا لقاح الكلّ فواحد، وهو الله، تلكم هي المسكونة يا رفاقي.

على أنّني، وأنا أكلّمكم عن البيضة الأمّ، يخالجني شعور بأنّ أفكاركم تنزلق عن كلماتي انزلاق الماء عن الزجاج فلا تبلغ لبابها. وكنت أودّ أن أجعلَ من كلّ كلمة درجة مكينة ثابتة لو أن الكلام بطبيعته ينقاد لأن يكون درجات مكينة ثابتة في سلّم الفهم الكامل. لذلك عليكم أن تتمسّكوا من كلماتي بأكثر من حروفها، وبأكثر من عقولكم إذا ما شئتم أن تدركوا الأبعاد والأعماق والأعالي التي يتوخّى لكم مرداد أن تدركوها.

إنّما الكلمات، في خير مظاهرها، ومضات تكشف عن آفاق. ولكنّها ليست تلكم الآفاق ولا الطريق إليها. لذلك، إذا كلّمتكم عن البيضة الأمّ، وعن الإله الشامل والمشمول، أو الإله المنطلق والإله المنغلق، فلا تتعثّروا بالحروف، بل اتبعوا الومضة. وإذ ذاك فكلماتي أجنحة قويّة لفهمكم المتعثّر المتواني.

تأمّلوا الطبيعة، أفما ترونها قائمة على المبدأ البيضاويّ؟

تأمّلوا رأس الإنسان وقلبه وكليتيه وعينيه؛

تأمّلوا كلّ أنواع الثمار والحبوب؛

تأمّلوا الشرارة، وقطرة الماء، وذرّة الرمل، ونطفة أيّ سمكة، أو طير، أو حيوان، أو إنسان، تأمّلوا هذه الأجرام بغير عدّ، السائرة بغير انقطاع في سبلها الدهرّية النيّرة في رحاب الفضاء. أليست كلّها بيضات متفاوتة الحجم ومنضوية على خلاصة الحياة، على الإله/الجرثومة، في درجات متفاوتة من النموّ؟ أليس أنّ كلّ الحياة تنقف أبدًا من بيضة تعود إلى بيضة؟ أجل، إنّكم لواجدون في البيضة مفتاح الكون.

حقًّا إنّ دأب الخليقة لدأب عجيب لا استراحة فيه ولا فتور. فالحياة ما تنفكّ تنفذ من غشاء البيضة الأمّ إلى قلبها، ومن قلبها إلى غشائها في فيض مستمرّ، مستقرّ. فالإله/الجرثومة الكائن في قلب البيضة الأمّ، إذ يأخذ في التمدّد ضمن المكان والزمان، ينقف من بيضة إلى بيضة، من أدنى درجات الحياة إلى أسماها. وأدنى درجات الحياة ما كان أقلّها اتّساعًا في الزمان والمكان، وأسماها ما كان أكثرها اتّساعًا. أمّا الزمان الذي يستغرقه الانتقال من بيضة إلى بيضة فقد يكون طُرفةَ عين وقد يكون دهرًا، وهكذا تمضي الحياة في دوراتها إلى أن ينفذ الإله/المشمول من قشرة البيضة الأمّ، أي إلى أن يخترق الزمانَ، فيتّحد بالإله الشامل الزمان والمكان ويصبح إلهًا شاملًا كلّ مكان وكلّ زمان.

والآن ما إخالكم تسيئون فهمي إذا ما قلت لكم إنّ الحياة تفتُّحٌ، أو نموّ وتقدّم ولكن على غير ما يفهم الناس النموّ والتقدّم. فالنموّ عندهم زيادة في الكمّية، والتقدّم سير إلى الأمام. في حين أنّ النموّ هو التمدّد المتّسق المتوازي في المكان والزمان. والتقدّم هو الحركة الموزّعة بالتساوي في كلّ جانب: يمينًا ويسارًا، وأمامًا وخلفًا، وصعودًا ونزولًا. فقصارى النموّ، إذًا، هو الخروج من حظيرة المكان. وقصارى التقدّم هو سبْقُ الزمان كيما يتمّ الاتّحاد بالله الشامل وبذلك يتمّ الانعتاق من أصفاد المكان والزمان، ذلك الانعتاق الذي ليس إلّاه حريًّا باسم الحريّة المقدّسة، والذي هو الهدف الأوحد والأسمى للإنسان من حياته.

فكّروا مليًّا بهذه الكلمات أيّها الرهبان. فأنتم ما لم تختمر بها دماؤكم، عبثًا تحاولون تحرير أنفسكم والغير. بل إنّ كلّ محاولة منكم قد لا تأتيكم وتأتي الناس إلّا بسلاسل جديدة فوق سلاسلكم وسلاسلهم. أمّا مرداد فيريدكم أن تفهموا كيما تسهّلوا لكلّ توّاق طريق الفهم. ومرداد يريدكم أحرارًا كيما يتاح لكم أن تقودوا إلى الحريّة سلالة التوّاقين إلى الغلبة والانعتاق. لذلك سيمضي بكم مرداد شوطًا آخر في شرح المبدأ البيضويّ، لا سيّما فيما يختصّ بالإنسان.

إنّ كلّ ما دون الإنسان من كائنات يتغلّف كلّ نوع منه، أو كلّ جماعة، في بيضة. فللنبات بيض بعدد أنواعه لا بعدد أفراده؛ ومثله للحشرات، والأسماك، وذوات الثدي. وفي كلّها تنطوي بيضة النوع الذي هو أكثرها نموًّا، على كلّ البيض الذي دونها نموًّا، حتّى البويضة الأولى المنطوية على الإله/الجرثومة قبل أن يبدأ تمدّده في المكان والزمان.

ومثلما يغتذي جنين الطير بما في البيضة من مُحّة وزلال فينمو وينقف إلى عالم أفسح مدى وأرحب زمانًا، كذلك يغتذي الإله/الجرثومة بالبيضات التي تنطوي عليها بيضته لينمو وينقف إلى بيضة أوسع فضاء وأطول زمانًا من التي كان فيها.

ثمّ إنّ الإله/الجرثومة كلّما انتقل من بيضة إلى أخرى صادف فيها غذاء من المكان والزمان يختلف، ولو قليلًا، عن الذي عرفه في البيضة السابقة. فهو في الغازات لا شكل له ولا وعي. أمّا في السوائل فيتقرّب من أن يكون له شكل ويبقى بغير وعي. وأمّا في الجماد فيتخذ له شكلًا ثابتًا ولكنّه يبقى بريئًا من كلّ صفات الحياة الظاهرة في الكائنات الأسمى منه. ولا يبلغ درجة النبات حتّى يبرز في شكل وفي ألوان مع المقدرة على النموّ، والشعور، وتجديد النسل. ثمّ يبلغ درجة الحيوان فإذا به يشعر، ويتحرّك، ويتناسل، ويعي، ويذكر ويفكر، ولكن إلى حدّ. وما إن يبلغ درجة الإنسان حتّى يتّخذ، علاوة على كلّ ذلك، شخصيّة لها المقدرة على التأمّل وعلى التعبير وعلى الخلق. أجل إنّ ما يخلقه الإنسان بالنسبة لما يخلقه الله كبيت من كرتون يبنيه ولد بالنسبة إلى برج أهيف، أو هيكل رائع يبنيه مهندس متفوّق. إلّا أنّه خَلْق في كلّ حال.

وهكذا فالإنسان يغدو بيضة فرديّة تنطوي على كلّ ما دونها، وينطوي عليها كلّ ما فوقها نموًّا في المكان والزمان. أمّا الإنسان المتغلّب فيشمل في ذاته كلّ الناس وكلّ ما دون الناس من الكائنات.

وأمّا حجم البيضة التي تحتوي أيّ إنسان فيقاس باتّساع آفاق ذلك الإنسان في المكان والزمان. فبينا ذاكرة بعضهم لا تتناول من الزمان أطول من الفسحة التي هي عمره، ولا تمتدّ في المكان أبعد من مجال بصره، تجدون آفاق البعض الآخر تتصل في الماضي بأزمنة لا يذكرها التاريخ، وفي المستقبل بأحقاب ما تزال طيّ الكتمان، وتطوي فراسخ بعد فراسخ من أبعاد ما اقتحمتها عينه قطّ.

واحد هو الغذاء المُعَدّ لكلّ الناس لأجل تفتّحهم أو نموّهم. ولكنّ قابليّتهم للأكل والهضم ليست واحدة. ذلك لأنّهم ما نقفوا من بيضة واحدة في مكان واحد وآنٍ واحد. ومن هنا الفرق بين امتداد هذا وذاك في المكان والزمان بحيث لا تجدون اثنين متشابهين في كلّ شيء.

فمن الناس الجالسين إلى مائدة الحياة المثقلة بالعجائب والخيرات، ترون واحدًا يغتذي بطهارة الأشياء وجمالها فيشبع. بينا يحاول الآخر أن يغتذي بلحم الأشياء ودمها فيبقى أبدًا جائعًا.

يبصر صيّادٌ غزالةً فيجدّ في طلبها ليقتلها ويأكلها. يبصرها شاعر فإذا به محمول على أجنحة سحريّة إلى أجواء عوالم لا تخطر للصيّاد حتّى في المنام.

وها هو ميكايّون العائش جنبًا إلى جنب مع شمادم في مأوى واحد وتحت سقف واحد يحلم بالتغلّب وبقمّة الانعتاق من حدود المكان وقيود الزمان، في حين أنّ شمادم لا يفتأ يفتل حبالًا يربط بها ذاته إلى الزمان والمكان رباطًا أشدّ من ذي قبل. حقًّا إنّ ميكايّون وشمادم، وإن تلامست كتفاهما، لبعيدان كلّ البعد واحدهما عن الآخر. إنّ ميكايّون ليحتوي شمادم. أمّا شمادم فلا يحتوي ميكايّون. ولذلك كان في مستطاع ميكايّون أن يفهم شمادم، ولم يكن في مستطاع شمادم أن يفهم ميكايّون.

إنّ حياة الإنسان المتغلّب لتتّصل من كلّ ناحية بحياة كلّ إنسان، لأنّها تنطوي على حياة كلّ الناس. ولكن ما من إنسان دون المتغلّب تتّصل حياته من كلّ ناحية بحياة المتغلّب. فالمتغلّب يظهر لأبسط الناس كما لو كان من أبسط الناس. وللمتفوّقين في الفهم والانعتاق كما لو كان أكثرهم فهمًا وانعتاقًا. ولكنّ في حياته نواحي لا يتّصل بها ولا يفهمها أحد من الناس غير المتغلّبين. لذلك كان في عزلة عن الناس وهو بينهم وكان في العالم وليس من العالم.

ولمّا كان الإله المشمول أو الإله/الجرثومة حاويًا في ذاته كلّ قوى الألوهة الشاملة، كان من طبيعته ألّا يطيق الحصر في مكان وزمان وأن يعمل أبدًا على الانفكاك منهما مستعينًا لذلك بإدراك يفوق إدراك الناس بما لا يوصف ولا يُقاس. وهذا الإدراك بعينه هو ما يدعونه غريزة في الكائنات

الأدنى من الإنسان، وعقلًا في الإنسان المتوسّط الإدراك، وحسًّا نبويًّا في الإنسان المتفوّق. هو كلّ ذلك بل أكثر من ذلك. هو ما دعاه البعض الروح القدس، وما سمّاه مرداد روح الفهم المقدّس.

إنّ أوّل ابن إنسان اخترق غلاف الزمان واجتاز تخوم المكان قد دعي بحقّ ابن الله، مثلما دعي فهمه لألوهته روحًا قُدُسًا. وها أنا أؤكّد لكم أنّكم كذلك أبناء الله، وأنّ الروح القدس يعمل فيكم بغير انقطاع.

ولكن حذار من أن يخطر لأحدكم ببال أن يقول «أنا الله» قبل أن يخترق غلاف الزمان ويجوز حدود المكان. وإلى أن تتمّ لكم الغلبة قولوا: «الله أنا». احفظوا هذه الوصيّة في قلوبكم مخافة أن تجتاحها الكبرياء والأوهام المضلّة فتفسد خميرة الروح القدس فيها. واعملوا مع الروح القدس لا ضدّه. فالذين يعاكسون الروح، وهم أكثر الناس، يطيلون أسرهم ويمدّون في عذابهم من حيث لا يعلمون.

دعوا الزمان يقهر الزمان. ودعوا المكان يزدرد المكان. وإيّاكم أن تجعلوا من حياتكم مَضْيَفَةً لأيّ منهما. إذًا لبقيتم رهائن ذليلة لأوجاع الخير والشرّ وألاعيبها التي لا نهاية لها.

إنّ الذين عرفوا هدفهم من وجودهم وراحوا يعملون على تحقيقه لا ينفقون ساعاتهم في مداعبة الزمان، ولا خطواتهم في قياس المكان. بل إنّهم في عمر واحد قد يلقّون أحقابًا طويلة ويطوون أبعادًا شاسعةً. فهم لا ينتظرون الموت لينقلهم من بيضة هم فيها إلى التي بعدها؛ بل إنّهم يتّكلون على الحياة لتساعدهم في اختراق قشور بيضات عدّة دفعة واحدة.

من شاء أن يكون له ذلك فعليه ألّا يكون مملوكًا لأيّ مُلك، حتّى لا يجد الزمان والمكان ممسكًا يمسكان به قلبه. فمن كثرت ممتلكاته كثر ممتلكوه. ومن قلّت ممتلكاته قلّ ممتلكوه.

أجل، خفّفوا أوزاركم الأرضيّة واطرحوا أعباء المعيشة جانبًا، كيما لا يبقى من مُلك ومن مالك إلّا إيمانكم، وإلّا محبّتكم، وإلّا توقكم إلى الانعتاق بواسطة الفهم المقدّس.

الفصل الخامس والثلاثون

شرارات على الطريق نحو الله.

مرداد: في هدأة هذا الليل يودّ مرداد أن يذرّ بعض الشرار على طريقكم نحو الله.

تجنّبوا الجدال من أيّ نوع كان. فالحقيقة تشهد لذاتها، وشهادتها في غنى عن التزكية والبرهان. أمّا ما كان لا يقوم إلّا على حجّة وبرهان فما أسرع ما ينهار بالبرهان والحجّة.

إثباتكم الشيء هو دحض لنقيض. وإثباتكم نقيض الشيء هو دحض لذلك الشيء. لكنّما الله لا نقيض له. فكيف تثبتون وجوده أم كيف تدحضونه؟

كيما يكون اللسان ميزابًا للحقّ يترتّب عليه ألّا يكون سوطًا، ولا ناب أفعى، ولا دولاب هواء، ولا بهلوانًا، ولا زبّالًا.

ليكن كلامكم حافزًا لأفكار الغير، وسكوتكم حافزًا لأفكاركم. إنّما الكلمات سُفُن تمخر عباب الفضاء وترسو في موانيء كثيرة لتعود في النهاية إلى المرفأ الذي أبحرت منه مشحونة بمثل ما شحنتموها. فاحترسوا بماذا تشحنون سفنكم لأنّها من بعد أن تدور دورتها ستعود لتُفرغ شحنها أمام بابكم.

كما هي المكنسة للبيت كذلك تفتيش القلب للقلب. ألا كنّسوا قلوبكم جيدًا.

قلبٌ نظيف، حصنٌ لا يُنال.

مثلما تغتذون بالناس وبسائر الكائنات، هكذا يغتذون بكم. كونوا غذاءً صالحًا للآخرين، وإلّا تسمّمتم بما تأكلون.

إذا كنتم في شكّ من أمر الخطوة الآتية، فالزموا مكانكم.

كلّ ما تكرهونه، يكرهكم. أحبّوه ودعوه وشأنه، وبذلك تزيحون حجر عثرة من طريقكم.

ما لا يُطاق هو أن تروا في الكون شيئًا لا يُطاق.

اختاروا لأنفسكم أحد أمرين: إمّا أن تملكوا كلّ شيء أو لا شيء. إذ ليس من وسط بين الحالتين.

لكم في كلّ حجر عثرة نذير. اقرأوا ما يقوله النذير وافهموه، وإذ ذاك فكلّ حجر عثرة ينقلب إلى مشكاة.

المستقيم أخو الأعوج. ذلك طريق مختصر، وهذا طريق متعرّج. لا تيأسوا من الأعوج.

الصبر عافية إذا ما توكّأ على الإيمان. وإلّا فهو فالج.

الكينونة، فالشعور، فالفكر، فالخيال، فالمعرفة فالحريّة، هاكم بالترتيب أهمّ أدوار الحياة الإنسانيّة.

إيّاكم والمديح تكيلونه أو يُكال لكم، وإن بإخلاص وعن جدارة. أمّا المجاملة فسدّوا دون نفثاتها المسمومة آذانكم وكمّوا أفواهكم.

ما دمتم تشعرون أنّكم تعطون، فأنتم في الواقع تقترضون كلّ ما تعطون.

إذا أعطيتم فاعلموا أنّكم لا تعطون الناس غير ما اؤتمنتم عليه للناس. أمّا ما كان مختصًّا بكم، وبكم دون كلّ الناس، فذلك لا تستطيعون التخلّي عنه لأحد، حتّى وإن شئتم.

كونوا متّزنين في كلّ ما تنوون وتفكّرون وتقولون وتعملون. وإذ ذاك فأنتم القسطاس والمكيال والذراع للناس.

ما من فقرٍ وما من غنًى. هنالك الحذق أو الغباوة في استعمال الأشياء لا غير.

الفقير حقًّا مَن أساء استعمال ما لديه. والغنيّ حقًّا مَن أَحسَن استعمال ما لديه.

إنّ كسرة من الخبز العفن قد تكون ثروة لا تُقدّر. وإنّ قبوًا محشوًّا ذهبًا قد يكون لصاحبه فقرًا لا فقر بعده.

حيث تلتقي طرق كثيرة لا تقفوا متردّدين في أيّها تسلكون. كلّ الدورب يؤدّي إلى الله عند من قلبُه يفتّش عن الله.

احترموا جميع أنواع الحياة وأشكالها. في أصغرها وأدناها المفتاح إلى أكبرها وأسماها.

كلّ ما تخلقه الحياة خطير وجسيم، بل رائع وعجيب وأبعد من أن يُضاهى. فالحياة لا تتلهّى بالتوافه.

لا يخرج شيء من مصانع الطبيعة، ما لم يكن حريًّا باهتمامها ومحبّتها ودقّة فنّها الذي لا يوصف. أفلا يجب أن يكون حريًّا باحترامكم في الأقلّ؟

إن تكن النملة والبعوضة جديرتين باحترامكم، فكيف بإخوانكم في الناسوت؟

لا تحتقروا أحدًا من الناس. فخير لكم أن تكونوا مُحتقرين من جميع الناس، من أن تحتقروا إنسانًا واحدًا. لأنّكم إذا احتقرتم أيّ إنسان احتقرتم الإله المشمول فيه. وإذا احتقرتم الإله المشمول

في أيّ إنسان فكأنّكم احتقرتموه في نفوسكم. وإن أنتم احتقرتم الإله المشمول فيكم، وهو دليلكم إلى الميناء، إلى الإله الشامل، فكيف ترجون أن تبلغوا ميناءكم؟

تطلّعوا إلى فوق لتبصروا ما أسفل. وتطلّعوا إلى أسفل لتبصروا ما فوق.

انحدروا على قدر ما ترتقون، وإلّا فقدتم توازنكم.

أنتم اليوم تلاميذ، وغدًا تصبحون معلّمين. فلكي تكونوا معلّمين صالحين عليكم أن تبقوا تلاميذ صالحين.

لا تحاولوا استئصال الشرّ من العالم، حتّى الأشواك والأعشاب البرّيّة تصلح سمادًا للأرض.

كثيرًا ما تودي الحماسة الرعناء بصاحبها.

الأشجار الباسقة الجميلة لا تشكّل وحدها غابة. بل لا بدّ في الغابة من الأدغال واللبلاب والطفيليّات.

قد تُكرِهون الرياء على الاختباء في ملاجىء تحت الأرض، ولكن إلى حين. أمّا أن تجبروه على البقاء في مخابئه، أو أن تحاصروه بالدخان لتخرجوه منها ثمّ تجندلوه، فأمر عسير وجدّ عسير.

إذا استطعتم أن تردّوا مُرائيًا واحدًا من بين ألف إلى استقامة القلب واللسان، فاعلموا أنّكم قد اجترحتم ما يقارب المعجزة، وأجركم إذ ذاك لَأجر عظيم.

ليضئ كلّ واحد منكم منارته صافيةً عاليةً من غير أن يدعو الناس إلى الاستنارة بها. فالذين يفتشون عن النور، ليسوا في حاجة إلى منادٍ يدعوهم إلى النور. أولئك سيأتونكم من تلقاء أنفسهم.

الحكمة عبء لمن كان نصف حكيم، مثلما الجهل عبء للجاهل. ساعدوا نصف الحكيم على عبئه ودعوا الجاهل وشأنه. فنصف الحكيم أقدر على معونته منكم.

لسوف تمرّ بكم أيام تُظلم فيها طرقكم وتبدو لكم مُقفرة من الرّفاق، منيعة على الأقدام. تشدّدوا ولا تلتوينّ لكم إرادة، وثابروا على السير. خلف كلّ عطفة في الطريق ستجدون رفيقًا جديدًا.

ما من سبيل في الفضاء الأوسع لم تطرقه أرجل حتّى الآن. وحيثما تباعدت الآثار وتضاءلت فاعلموا أنّ الطريق أمين ومستقيم، وإن يكن وعرًا في بعض الأماكن وخلوًّا من السالكين.

يستطيع الدليل أن يدلّ على الطريق أولئك الذين يبحثون عن الطريق. ولكنّه لا يستطيع إكراههم على المشي فيه. لا تنسوا أنّكم أدلّاء لا غير.

الدليل الصالح من كان له دليل صالح. اتّكلوا على دليلكم.

كثير هم الذين سيقولون لكم: «أرونا الطريق». ولكن قليل، وقليل جدًّا، هم الذين سيتوسّلون إليكم قائلين: «سيروا بنا في الطريق».

في الطريق المؤدّي بنا إلى التغلّب لا عبرة للأعداد. فالقلّة أكثر من الكثرة.

ازحفوا حيث يتعذّر عليكم المشي. وامشوا حيث يتعذّر العدو. واعدوا حيث يتعذّر التحليق. وحلّقوا حيث لا تشعرون بأنّ المسكونة كلّها قد اتّكأت في أحضانكم. أمّا متى اتّكأت المسكونة في أحضانكم فاستكنّوا.

لا مرّة، ولا مرّتين، ولا خمسين مرّة يجب عليكم أن تقيلوا عثرات الذين يحاولون اقتفاء آثاركم. بل عليكم أن تثابروا على إسعافهم إلى أن تثقوا من أنّهم لن يعثروا فيما بعد، ذاكرين أبدًا أنّكم، أنتم كذلك، كنتم أطفالًا في عهد من عهود حياتكم.

ضمّخوا قلوبكم وأفكاركم بطيب الغفران، كيما تحلموا أحلامًا مضمّخة بالطيوب.

الحياة حمّى متفاوتة الأنواع والدرجات، بتفاوت الجواذب التي ينجذب بها الناس. فالناس كلّهم في هذيان أبديّ. طوبى لمن يهذون بالفهم المقدّس، وبابنته الحرّية المقدّسة.

حُمّيات الناس قابلة جميعها للتحويل بعضها إلى بعض. فحمّى الحرب يمكن تحويلها إلى حمّى السلم. وحمّى اختزان المال إلى حمّى المحبّة. تلك هي كيمياء الروح التي أنتم مدعوّون إلى ممارستها وتلقينها للناس.

اكرزوا بالحياة للمائتين، وللأحياء بالموت. أمّا الذين يتوقون إلى التغلّب فبشّروهم بالخلاص من الاثنين.

عظيم هو البون وشاسع بين مالك ومملوك. أنتم لا تملكون إلّا ما تحبّون. أمّا ما تكرهون فأنتم مماليكه. احذروا من أن تكونوا مماليك. إنّ أرضكم هذه هي الأصغر سنًّا والأشدُّ صخبًا بين الأراضي السابحة في مهامه الفضاء والزمان.

حركة ساكنة، أيّ تناقض بين هاتين الكلمتين! تلك، مع ذلك، هي حركة الأكوان في الله.

انظروا إلى أناملكم إذا شئتم أن تعرفوا كيف تتساوى الأشياء والمقادير التي ليست متساوية في الظاهر.

الحظّ ألعوبة الحكماء، أمّا الجهلاء فهم ألعوبة الحظّ. لا تتذمّروا أبدًا من شيء. فتذمّركم من أيّ شيء يجعل منه جلّادًا لكم. أمّا تحمّلكم إيّاه عن رضى فيجعلكم جلّاديه. وأمّا فهمكم إيّاه فيجعل منه خادمًا مطيعًا لكم وأمينًا.

كثيرًا ما يتّفق لصيّاد أن يسدّد سهمه إلى ظبي، مثلًا، فيخطىء الظبي ويقتل أرنبًا ما كان يبصرها ولا كان يعرف أنّها موجودة هناك. إنّ صيّادًا لبيبًا ليقول لنفسه في مثل تلك الحالة: «حقًّا إنّني ما سدّدت سهمي إلى الظبي، بل إلى الأرنب. ولقد ظفرت بطريدتي».

أحسنوا تسديد سهامكم، وكلّ نتيجة تحصلون عليها، مهما تكن، هي نتيجة حسنة.

كلّ ما يصلكم هو لكم، وكلّ ما يتماهل في الوصول إليكم ليس حقيقًا بانتظاركم. دعوه ينتظركم.

لن تخطئوا هدفًا البتّة إذا كان ما تصوّبون إليه رغائبكم، يصوّب إليكم رغائبه.

إنّ وراء كلّ هدف تخطئونه، هدفًا آخر تدركونه، وهو الأصلح لكم والأهمّ. فلا تجدنّ الخيبة إلى قلوبكم سبيلًا.

الخيبة غُداف تحتضنه القلوب الضعيفة المائعة وتغذّيه بجيف آمالها الجهيضة.

كلّ أمل يتحقّق من آمالكم يصبح الوالدة لآمال كثيرة جهيضة. تحرّزوا من أن تعقدوا قلوبكم على الأمل إن شئتم ألّا تحوّلوها إلى مقابر.

من كلّ ما تقذفه سمكة من البيض في الماء قد لا تثمر غير واحدة من مائة. أمّا التسع والتسعون فلا تذهب، مع ذلك، هدرًا. هكذا تبدو الطبيعة سخيّة إلى حدّ العسف والتبذير. ولكنّ في عسفها وتبذيرها رويّة. كونوا كالطبيعة سخاء، وبذّروا قلوبكم وأفكاركم، ولكن عن رويّة، في قلوب الناس وأفكارهم.

لا تطلبوا ثوابًا عن أيّ عمل من أعمالكم. فالعمل في ذاته ثواب للعامل الذي يحبّ عمله.

اذكروا الكلمة المبدعة والتّوازن الكامل. فأنتم عندما تبلغون ذلك التوازن بواسطة الفهم المقدّس تصبحون متغلّبين. وإذ ذاك فأيديكم شريكة في العمل، ليد الله.

وليبقَ سلام هذا الليل وسكينته يختلجان في قلوبكم إلى أن تغرقوها في سكينة الفهم المقدّس وسلامه.

هكذا علّمت نوحًا.

وهكذا أعلّمكم.

الفصل السادس والثلاثون

عيد الفلك وطقوسه وتقاليده.
ورسالة أمير بِتعار عن المصباح الحيّ.

نروندا: منذ عاد المعلّم من بِتعار وشمادم مقلوب الوجه قليل التدخّل مع الرّفاق. لكنّه إذ اقترب عيد الفلك تبدّلت أطواره فأشرقت أسرّته وانطلق لسانه فراح يدير بنفسه كلّ حركة في تنظيم العيد وإعداد ممهّداته الكثيرة.

وعيد الفلك، كعيد الكرمة، قد امتدّ من يوم واحد إلى أسبوع كامل يعجّ بالمهرجانات والمعارض بأصنافها. ولهذا العيد طقوس وتقاليد جمّة أهمّها ثلاثة: ذبح الثور الذي سيقدّم محرقة، ثم إضرام نار المحرقة، ثمّ إشعال المصباح الجديد من تلك النار ووضعه بدل المصباح القديم على المذبح. وكلّ هذه الطقوس منوط تتميمها بالمتقدّم تساعده في ذلك الجماهير. وفي الختام يشعل كلّ من الحضور شمعةً من المصباح الجديد ثمّ لا يلبث أن يطفئها ليحتفظ بها بقيّة السنة تعويذة ضدّ العيون الشرّيرة. وقد درجت العادة أن يختم المتقدّم كلّ ذلك بخطبة يوجّهها إلى الجماهير.

ثمّ إنّ الذين يؤمّون الفلك في عيدها، مثل الذين يؤمّونها في يوم الكرمة، قلما يأتونها خالين من الهدايا. وأكثرهم يأتون بالثيران أو الكباش أو التيوس لتقدّم محرقات مع ثور الفلك. لكنّ شمادم قد حوّر في تلك العادة فراح يقبل تلك البهائم، ولكنّه بدلًا من ذبحها وحرقها كان يضمّها حيّة إلى قطعان الفلك.

أمّا المصباح الجديد، فمن المعتاد أن يقدّمه أحد الأمراء أو الأغنياء من جبال الآس واللبان. وإذ أنّ تقديمه يُعَدُّ عندهم شرفًا عظيمًا، وإذ أنّ المتزاحمين على ذلك الشرف كثرة، فقد جرت العادة أن يُفصلَ الأمر بالقرعة، وأن تُلقى القرعة من أجل مصباح العيد التالي في نهاية العيد الذي قبله.

والأمراء والأعنياء يتبارون في إتقان مصابيحهم والتفنّن في صنعها. وكلّهم يرغب في أن تفوق هديّته سائر أسلافها من حيث الثمن ودقّة الصنعة وجمال المظهر.

وكان أنّ القرعة في السنة الماضية وقعت على أمير بتعار. والأمير مشهور بغناه ومشهود له بالكرم وحسن الذوق. لذاك كان الجميع يتوقّعون بفارغ الصبر وصول المصباح الجديد ليمتّعوا أبصارهم بجماله.

في عشيّة العيد دعا شمادم الرفاق والمعلّم إلى مخدعه وخاطبهم هكذا، موجهًا كلامه إلى المعلّم أكثر مما إلى الرفاق:

شمادم: غدًا نهار مقدّس. ويليق بنا أن نقدّسه مهما تكن الخصومات التي نشبت بيننا فيما مضى فلندفنها الآن وهاهنا. فالمهمّ ألّا تبطىء الفلك في سيرها إلى الأمام وألّا تخفّف من اندفاعها وحماستها. ومعاذ الله أن تقف عن السير.

أنا المتقدم في هذه الفلك. وعليّ وحدي بترتيب واجب قيادتها. ولي وحدي الحقّ في توجيه دفّتها. وذلك الواجب وهذا الحقّ انحدرا إليّ بالتسلسل مثلما سينحدران إلى أحد منكم بعد انصرافي من هذه الدنيا. فاصطبروا نظير ما اصطبرت.

إذا كنت قد أسأت إلى مرداد بشيء فليغفر لي إساءتي.

مرداد: ما أساء شمادم إلى مرداد. لكنّه أساء إلى شمادم شرّ إساءة.

شمادم: أليس شمادم حرًّا بأن يسيء إلى شمادم؟

مرداد: حرّ بأن يسيء؟ ما أغرب أن تجتمع هاتان الكلمتان، الحريّة والإساءة، في فم واحد. فكيف بهما تجتمعان في قلب واحد! إذ أن من أساء حتّى إلى نفسه أصبح رقيقًا لإساءته. ومن أساء إلى الغير كان رقيق الرّقيق. يا للإساءة ما أثقل وطأتها!

شمادم: ما دمتُ راضيًا أن أتحمّل ثقل إساءتي فما لك ولي؟

مرداد: أتقول ضرس نخرها السوس للفم الذي هي فيه: ما شأنك من وجعي ما دمت راضية أن أتحمّله؟

شمادم: بالله دعني وشأني. دعني كما أنا. ردّ يدك الثقيلة عنّي ولا تجلدني بلسانك الحذق. دعني أعش ما بقي لي من الأيّام كما عشت حتّى اليوم. اذهب وابن لك فلكًا في غير هذا المكان، ودع هذه الفلك وشأنها. فالعالم يتّسع لك ولي ولفلكك وفلكي. غدًا هو يومي فتنحّ عن طريقي ودعني أعمل عملي. وها أنا أنذرك وأنذر الكلّ أنّني لن أطيق أقلّ تدخّل من أحد.

كونوا على حذر. فثأر شمادم لأفظع من ثأر الله. كونوا على حذر. كونوا على حذر.

نروندا: لمّا خرجنا من عند المتقدّم هزّ المعلّم رأسه هزّة لطيفة وقال:

مرداد: إنّ قلب شمادم ما يزال قلب شمادم.

نروندا: وتمّ كلّ شيء في الغد حسبما شاء شمادم إلى أن جاء وقت تقديم المصباح الجديد وإنارته. وإذا برجل في لباس أبيض، طويل القامة، مهاب الطلعة، يشقّ سبيله بين الجماهير المتراصّة ويتقدّم نحو المذبح. وفي الحال سرت وشوشة بين الجماهير بأنّ الرجل ما كان غير رسول أمير بِتعار وأنّه يحمل المصباح الجديد. واشرأبّت الأعناق وتوجّهت الأبصار إلى المذبح علّها تلمح التحفة السنيّة.

وعندما بلغ الرجل المذبح همس شيئًا في أذن شمادم فانحنى المتقدّم له انحناءة كلّها وقار. ومن بعد أن خاطب الرجل الجمهور مبيّنًا أنّ لديه رسالة خاصّة من أمير بِتعار وأنّه مكلّف بتلاوتها، أخرج من جيبه درجًا من رقّ الغزال وأخذ يقرأ:

«من أمير بِتعار في الأمس إلى إخوانه من أمراء وعامّة جبال الآس واللبان المجتمعين اليوم في الفلك، سلام ومحبّة أخويّة.

«أمّا بعد فليس بينكم من يجهل عظيم غيرتي على الفلك. وإذ أنّ شرف تقديم المصباح الجديد كان من نصيبي هذه السنة، فقد آليت على نفسي أن تكون تقدمتي آية في الفنّ والاتقان كيما تليق بالفلك. فما وفّرت في سبيلها مالًا أو حيلة. وقد كلّل النجاح جهودي، فجاء المصباح تحفة للأبصار.

«لكنّ الله كان أحنّ عليّ منّي. فقد أشفق على فقري من الفضيحة. إذ قادني من بعد ذلك إلى مصباح نوره يبهر ولا يخبو، وجمال يفوق كلّ جمال ولا يصدأ. فخجلت إذ ذاك من نفسي أيّما خجل لأنّني كنت أحسب مصباحي المصنوع بالأيدي، على شيء من القيمة والجمال. لذلك طرحته على المزبلة.

«وها أنا أدعوكم إلى الانتفاع بذلك المصباح الذي ما صنعته يد بشريّة. بجماله متّعوا أبصاركم. ومن نوره أضيئوا شموعكم. فهو قريب، وجدّ قريب منكم. أمّا اسمه، فمرداد.

«**جعلكم الله أهلًا للاستنارة بنوره**».

ما كاد الرسول يفوه بالكلمات الأخيرة حتّى اختفى شمادم، وكان واقفًا بجاب الرسول، كأنّه ما كان غير طيف من الأطياف. ومشى اسم المعلّم من فم إلى فم مشية الريح في غاب بكر. فقد راح الكلّ يهتفون له بغية أن يمتّعوا أبصارهم بمنظر ذلك المصباح الحيّ الذي تكلّم عنه أمير بِتعار كلامًا كلّه تشويق. وعمّا قليل بان المعلّم يصعد درجات المذبح ثمّ يواجه الجمهور. وبأسرع من لمحة الطرف هبطت السكينة على الجمع المتماوج، فأصبح كأنّه رجل واحد كلّه بصر وكلّه سمع وكلّه شوق.

عندها تكلّم المعلّم فقال:

الفصل السابع والثلاثون

مرداد يحذّر الجماهير من طوفان النار والدّم
ويدلّهم على طريق النجاة ويعلن فلكه على أهبة الإقلاع.

مرداد: ماذا تبتغون من مرداد؟ أمصباحًا من الذهب الإبريز المرصّع بالجواهر تزيّنون به المذبح؟ لكنّ مرداد، وإن يكن ميناء ومنارة، ليس بالصائغ ولا بالجوهريّ.

أم تبتغون نورًا يضيء لكلّ منكم الطريق الذي اختاره في معيشته كي يأمن العثار؟ يا للغرابة! أتكون لكم الشمس والقمر والنجوم وتزلّ، مع ذلك، أقدامكم فتهوي بكم إلى الحضيض؟ إذنْ كانت عيونكم غير صالحة لتقود خطاكم. أو كان النور شحيحًا لعيونكم. ومَنْذا بينكم يرضى بأن يفقأ عينيه؟ أم مَنْذا يتّهم الشمس بالشحّ؟

ما نفعكم من عينٍ تحفظ القَدَم من العثار في طريقها وتترك القلب يتعثّر ويدمى إذ هو يفتّش باطلًا عن طريق له؟ بل ما نفعكم من نور يترع العين ويترك الروح فارغًا وفي ظلام؟

ماذا تبتغون من مرداد؟ إن يكن ما تبتغونه وتهتفون من أجله قلوبًا مبصرةً وأرواحًا مغمورة بالنور فهتافكم لن يذهب ضياعًا. إذ لا همّ لمرداد من الإنسان إلّا قلبه وروحه.

ما هي القرابين التي جئتم تقدّمونها لهذا اليوم الذي هو يوم تغلّب مجيد؟ أجئتم بالثيران والكباش والتيوس؟ فما أبخسها ثمنًا تبتاعون به الخلاص! بل ما أبخس الخلاص الذي تريدون ابتياعه بمثل هذا الثمن!

ليس من المجد في شيء أن يتغلّب إنسان على تيس، بل هو الخزي كلّ الخزي أن يفتدي إنسان دمه بدم تيس مسكين.

ماذا فعلتم لتساهموا في روح هذا اليوم الذي هو يوم الإيمان الظافر والمحبّة المتألّهة؟

أجل، لقد تمّمتم طقوسًا كثيرة وتمتمتم صلوات عديدة. لكنّ الشكّ كان رفيقًا لكلّ حركة من حركاتكم. والبغضاء كانت تقول «آمين» لكلّ صلاة من صلواتكم.

ألستم هاهنا لتحتفلوا بذكرى الغلبة على الطوفان؟ فكيف بكم تحتفلون بغلبة تركتكم مغلوبين؟ إذ أنّ نوحًا يوم تغلّب على طوفانه ما تغلّب على طوفانكم، بل دلّكم على طريق الغلبة. وها هي أعماقكم تعجّ وتثور وتكاد تبتلعكم. لا، لستم حقيقين بهذا اليوم قبل أن تقهروا طوفانكم.

كلٌ منكم طوفان في ذاته وسفينة وربّان. وإلى أن تخرجوا كلّ واحد من سفينته لتطأوا أرضًا بكرًا ومغسولة من كلّ أدرانها، لستم جديرين بأن تحتفلوا بالنصر.

أتريدون أن تعرفوا كيف أصبح الإنسان طوفانًا في ذاته؟

عندما شطرت الإرادة الكليّة آدم إلى شطرين كيما يتمكّن من معرفة نفسه ووحدته مع الواحد الأحد، عندئذٍ صار آدمُ آدمين: آدم الذكَر وآدم الأنثى. وعندئذٍ طغت عليه أمواج من الشهوات التي تولّدها الثنائيّة. وهي شهوات لا يكاد يحصيها عدّ وليس لأشكالها وألوانها نهاية. وهي لا تشفق على ذاتها من التبذير؛ وقوّتها على التوليد والتناسل تكاد تكون بغير حدّ.

وها هو الإنسان حتّى اليوم محمول على غوارب أمواجها الصاخبة. ما تكاد موجة ترفعه إلى الأعالي حتّى تهبط به الأخرى إلى القاع. ذلك لأنّ هذه الشهوات تجري أزواجًا أزواجًا نظير ما يسير الإنسان أزواجًا. وهي وإن تكن في الواقع متمّمة الواحدة للأخرى تبدو، مع ذلك، لعين الجاهل كما لو كانت نقائض بعضها لبعض، وكأنّها في صراع أبديّ لا هوادة فيه ولا هدنة على الإطلاق.

ذلكم هو الطوفان الذي حُتّم على الإنسان مقاومته ساعةً فساعة ويومًا فيومًا طوال الثنائيّة الشاقّة.

ذلكم هو الطوفان الذي تنفجّر ينابيعه من قلوبكم وتكاد نجرفكم بسيلها العارم.

ذلكم هو الطوفان الذي لن يزيّن قوسُ قزح سماءكم حتّى تتّحد سماؤكم بأرضكم في قران أبديّ فتصبحا واحدًا.

منذ أن زرع آدم نفسه في حوّاء والناس يجنون إعصارًا تلو إعصار وطوفانًا تلو طوفان. فما إن تتفاقم شهوات من صنف واحد فتشتدّ صولتها وترجح كفّتها، حتّى يفقد الناس التوازن في حياتهم ويطغى عليهم طوفان هذه الشهوات أو تلك إلى أن تستردّ حياتهم توازنها. ولكنّ هذا التوازن لن يستتبّ لهم حتّى يتعلّموا أن يعجنوا جميع شهواتهم في معجن المحبّة كيما يخبزوا منها خبز الفهم المقدّس.

قد يكون الطوفان الذي غمر الأرض في عهد نوح، أكبر طوفان عرفته البشريّة حتّى اليوم. لكنّه ما كان الأوّل ولن يكون الأخير من سلسلة الطوفانات. فطوفان النار والدّم الذي عمّا قريب سيجتاح

الأرض، سيفوقه عنفًا وخرابًا. ألعلّكم اتخذتم العدّة لتعوموا، أم أنتم قانعون بأن تغرقوا مع الغارقين؟

واأسفاه! إنّكم لفي شغل عن كلّ ذلك. وشغلكم الدائم هو أن تزيدوا فوق أوزاركم أوزارًا، وأن تخدّروا دماءكم باللذات المثقلة بالألم، وأن تختَطّوا لكم سُبُلًا في مهامه لا ماء فيها ولا حياة، وأن تفتّشوا في عرصات أهراء الحياة عن حبوب تلتقطونها بين أقذار البهائم، من غير أن يخطر لكم ولو أن تلوصوا من خصاص الأبواب على ما في داخل الأهراء من الخيرات. فكيف لكم ألّا تغرقوا يا أيّها التائهون؟

أنتم المولودين لتحلّقوا في الأعالي، لتجوبوا رحاب الفضاء اللامتناهي، لتلفّوا المسكونة بأجنحتكم، قد سجنتم أنفسكم في أقنان ضيّقة من التقاليد والمعتقدات التي تهشّم أجنحتكم وتضعف أبصاركم وتحجّر عضلاتكم. فكيف لكم أن تقهروا الطوفان يا أيّها التائهون؟

وأنتم، وقد صوّر الله فيكم صورته ومثّل مثاله، توشكون أن تمحوا الصورة والمثال. فقد مسختم قامتكم الإلهية إلى حدّ أنّكم لا تميّزونها عن قاماتكم بشيء، وطليتم وجهكم الربّاني بالوحل ثم حجبتموه بالمساخر البهلوانيّة. فكيف لكم أن تجابهوا الطوفان، طوفانكم، يا أيّها التائهون؟

إنّكم ما لم تعملوا بنصح مرداد، سُدّت في وجهكم مسالك الأرض فما كانت الأرض لكم غير جدث؛ وأُغلقت أبواب السماء فما كانت السماء لكم أكثر من كفن. حين أنّ الأرض أُعدّت من البدء لتكون لكم مهدًا ملكيًّا، والسماء لتكون لكم عرشًا.

أقول لكم ثانية: أنتم الطوفان، وأنتم السفينة وأنتم الربّان. أمّا الطوفان فشهواتكم، وأمّا السفينة فجسدكم، وأمّا الربّان فإيمانكم. وهذه كلّها تتخلّلها إرادتكم، ومن فوق هذه كلّها يهيمن فهمكم.

فاهتمّوا لسفينتكم كيما تكون متينة وصالحة لمصادمة الأمواج. ولكن حذار من أن تبذّروا كلّ أيّامكم على السفينة وحدها لئلّا يفوتكم وقت الملاحة، فيدهمكم داهم الفناء ويقضي عليكم وعلى سفينتكم قضاء لا مردّ له.

ثمّ اهتموا لربّانكم كيما يكون رزينًا وغنيّ الخبرة بأسرار الملاحة.

ولكنّ الأهمّ من ذلك وهذا أن تبحثوا عن ينابيع الطوفان وأن تدرّبوا إرادتكم على تجفيفها واحدًا بعد واحد. وإذ ذاك تهدأ ثورة الطوفان ورويدًا رويدًا تتلاشى.

ألا احرقوا الشهوة قبل أن تحرقكم.

لا تتفحّصوا فم الشهوة لتروا ما إذا كان مسلّحًا بأنياب مسمومة أم بقوارض معسولة. فالنحلة التي تجني من الأزهار شهدها تجني سمّها كذلك.

ولا تتأمّلوا وجه الشهوة أجميل هو أم قبيح. إنّ وجه الحيّة كان أجمل في عين حوّاء من وجه الله.

ولا تزِنوا الشهوة في ميزان. فمن منكم يقابل بين وزن الجبل ووزن عقد من اللؤلؤ؟ والحقّ إنّ عقد اللؤلؤ لأثقل من الجبل بكثير.

ثمّ إنّ من الشهوات ما يصدح في النهار صدح البلابل، ويغرّد أغاريد السماء. ولكنّه يفحّ فحيح الأفاعي، ويعضّ ويمزّق تحت ستار الليل. ومنها ما هو سمين بالأفراح والملذّات، إلّا أنّه لا يلبث أن ينقلب إلى هياكل عظمية تتدلّى منها سرائد الأحزان والأوجاع. ومنها ما يبدو لكم وديع الطرف سهل المراس، ولكنّه يتحوّل بغتة إلى ذئاب خاطفة وضباع نهمة. ومنها ما تفوح منه رائحة ولا رائحة الفلّ والياسمين ما دمتم بعيدين عنه، إلّا أنّكم حالما تلمسونه تفوح منه عليكم روائح أشدّ كراهة من روائح الجيف والجعلان.

لا تغربلوا شهواتكم بغية فصل الصالح منها عن الطالح، ذلكم عمل من الباطل بمكان. لأنّ الصالح لا يحيا بغير الطالح، والطالح لا يمدّ جذوره إلّا في تربة الصالح.

واحدة هي شجرة الخير والشرّ، وواحدة هي ثمرتها. وعبثًا تحاولون أن تتذوّقوا الخير من غير أن تتذوّقوا الشرّ في آنٍ معًا.

إنّ ثديًا ترضعون منه الحياة لهو عين الثدي الذي منه ترضعون الموت. وإنّ يدًا تهزّكم في السرير لهي عين اليد التي تحفر لكم الرمس.

تلكم، أيها التائهون، هي طبيعة الثنائيّة. فلا يخطرنّ لأحدكم ببال أن يتصدّى لها برأي أو باعتراض. وحذار ثمّ حذار أن تحاولوا شقّها إلى شطرين لتأخذوا الشطر الذي تستسيغون، وتطرحوا الآخر جانبًا. ذلكم هو باطل الأباطيل وقبض الريح.

أتريدون أن تصبحوا أسياد الثنائيّة بدلًا من أن تكونوا عبيدها؟ إذن روّضوا أنفسكم على اقتبالها كما لو كانت بريئة من كلّ خير وشرّ.

أما تخثّر لبن الحياة والموت واحْمضَّ في أفواهكم؟ أما آنَ لكم أن تشطفوا أفواهكم بمحلول جديد لا هو بالخير ولا هو بالشرّ لأنّه أقوى وأنقى من الإثنين؟ أما آنَ لكم أن تتوقوا إلى الثمرة التي ليست بالحلوة ولا بالمرّة لأنّها ما نمت على شجرة الخير والشرّ؟

أتودّون أن تنعتقوا من براثن الثنائيّة؟ إذن فاقتلعوا شجرتها، شجرة الخير والشرّ، من قلوبكم. اقتلعوها بجذعها وجذورها كيما يتاح لبذرة الحياة الربّانيّة، بذرة الفهم المقدّس المتسامي فوق كلّ خير وشرّ، أن تنمو وتثمر مكانها.

تقولون إنّها لرسالة قاتمة عابسة تلك التي يحملها إلينا مرداد. فهي تسلبنا لذّة الأمل بالغد. وهي تجعلنا في الحياة بمثابة شهودٍ بُكْمَ لا شأن لهم في كلّ ما يشهدون. في حين أنّنا نرغب في النضال مهما تكن قيمة الأمر المناضَل من أجله. وما أحلى الصيد والقنص وإن لم تكن الطريدة غير منام أو خيال.

هكذا تقولون في قلوبكم، ناسين أنّ قلوبكم ليست قلوبكم على الإطلاق ما دامت أعنّتها في أيدي شهواتكم من خير ومن شرّ.

أمّا إذا شئتم أن تملكوا أعنّة قلوبكم فعليكم أن تعجنوا كلّ شهواتكم، صالحها وطالحها، في معجن واحد هو معجن المحبة، كيما تخبزوها في تنّور واحد هو تنّور الفهم المقدّس حيث تلتئم المتناقضات كلّها في الله.

لِيكفّنّ كلُّ واحد منكم منذ الآن، عن تعكير عالم تفاقم عكره. كيف تأملون أن تنشلوا ماءً زلالًا من بئر لا تنفكّون تطرحون فيها كلّ أنواع الأقذار والرجاسات؟ أم كيف لحوض من الماء أن يبقى صافيًا ما دمتم تحرّكون الماء فيه بغير انقطاع؟

لا تلقوا شباككم في عالَمٍ كدِرٍ بغية صيد الصفاء، لئلّا تصطادوا الكدر لا غير.

ولا تلقوها في عالم تتأكّله الضغينة أملًا بأن تصطادوا المحبّة، لئلا تصطادوا الضغينة لا غير.

ولا تلقوها في عالم يمرح فيه الموت راجين أن تحظوا بالحياة، لئلّا تصطادوا الموت لا غير.

فالعالم لا يدفع لكم نقدًا غير نقده. ونقد العالم أبدًا ذو وجهين.

ولكن ألقوا شباككم في ذاتكم الإلهيّة الغنيّة أبدًا بسلام الفهم المقدّس.

لا تطالبوا العالم بما لا تطالبون به أنفسكم. ولا تطالبوا إنسانًا بغير ما ترون من حقّه أن يطالبكم به.

وما عسى أن يكون ذلك الشيء الذي إذا ما ظفرتم به من العالم، مكّنكم من الغلبة على الطوفان ومن الوصول إلى أرضٍ بتول طلّقت الألم واقترنت بالسماء قران محبّة أبديّة وسلام سرمديّ وفهم إلهيّ؟

ألعلّه وفرة المتاع والصيت والسلطان؟ أم هو المجد العالميّ وما يحفّ به من التجلّة والاحترام؟ أم هو الطموح تكلّل بالظَّفر، والأمل المنشود تحقّق؟ ولكنّ جميع هذه ينابيع تغذّي طوفانكم. ألا انبذوها من أفكاركم. ألا اصرفوها عنكم.

كونوا هادئين كيما تكونوا نيّرين.

وكونوا نيّرين كيما تنفذ أبصاركم إلى قلب العالم.

فأنتم إذا ما نفذتم إلى قلب العالم، أبصرتم كلّ ما فيه من قحط وأدركتم أنّه عاجز عن إعطائكم الحريّة والسلام والحياة التي تنشدون.

جلّ ما يستطيع العالم أن يعطيكم إيّاه، هو الجسد أو الفلك التي بها تتمكّنون من مخر عباب الحياة الثنائيّة. وذلك لا يجرؤ إنسان أن يتمنّن عليكم به. فالمسكونة مكلّفة بتأديته لكم وتأدية أَوَده. أمّا حفظه قويًّا وخاليًا من الغشّ والفساد ليكون صالحًا لمقاومة الطوفان مثلما كانت فلك نوح؛ وأمّا

كبح ما فيه من الكواسر والضواري على حدّ ما كبح نوح الضواري والكواسر التي كانت في فلكه، فأمر منوط بكم، وبكم لا غير.

وأمّا أن يكون لكم إيمان مستيقظ العين والقلب ليدير الدفّة؛ إيمان لا يتزعزع بالإرادة الكليّة التي لن يقودكم سواها إلى أبواب عدن السعيدة، فأمر منوط بكم كذلك، وبكم لا غير.

وأمّا أن تكون لكم إرادة لا تعرف الجزع؛ إرادة التغلّب والوصول إلى شجرة الفهم المقدّس التي هي شجرة الحياة، فأمر منوط بكم كذلك، وبكم لا غير.

الإنسان سائر إلى الله. فما من وجهة أخرى جديرة بآلامه. وأيّ بأس في أن يكون طريقه مفروشًا بالعواصف والزوابع؟ فالإيمان النقيّ القلب، الحادّ البصيرة والبصر، لَيَتَمَنْطَق بالزوبعة ويمتطي العاصفة.

ألا سابقوا الزمان. فكلٌّ ساعة تقتلونها بالتذبذب والبطالة، ساعة حبلى بالوجع. والناس، حتّى أكثرهم حركة، متذبذبون في الغالب وبطّالون.

أنتم بناة سُفُنٍ، كلٌّ على طريقته. وأنتم بحّارون، كلٌّ في سبيله. ذاك هو العمل المُعدّ لكم منذ الأزل: أن تمخروا عباب ذلك المحيط اللامتناهي الذي هو أنتم لتظفروا منه بلحن الوجود الصامت الذي هو الله.

لكلّ شيء محور منه يشعّ، وعليه تدور حركته. فإن تكن الحياة، حياتكم، دائرةً محورها الوصول إلى الله، فكلّ أعمالكم يجب أن تتمركز في ذلك المحور، فتنطلق منه وتدور عليه. وإلّا كانت تذبذبًا وبطالة، حتّى وإن سحّ منها عَرَقُكم بلون الدّم.

وإذ لا شغل لمرداد على الأرض إلّا أن يقود الإنسان إلى ميراثه الإلهيّ، فها هو قد أعدّ لكم فلكًا عجيبة الصنع والقيادة. وهو ما صنعها من الخشب القطرانيّ، ولا طلاها بالقار، ولن يجعلها مأوى للضبّ والضبع والغراب. لكنّه بناها من الفهم المقدّس الذي لا منارة إلّاه يهتدي بها كلّ من تاق إلى ميراثه. وهي لن تحمل خوابي نبيذ ومعاصر عنب، بل قلوبًا طافحة بالمحبّة للكلّ. ولن تكون مثقلة بالعقارات والرياش والفضّة والذهب والجواهر، بل بنفوس طلّقت ظلالها وتوشّحت بوشاح النور وحريّة الفهم المقدّس.

فليتقدّم كلّ من رغب في قطع الأمراس التي تربطه بالشاطىء، وكلّ من أراد أن يتوحّد، وكلّ من تاق إلى التغلّب على نفسه.

فالفلك جاهزة،

والريح راهية،

والبحر في ركود.

هكذا علّمت نوحًا.

وهكذا أعلّمكم.

نروندا: عندما وقف المعلّم عن الكلام، سرَت في السامعين حركة أشبه ما تكون بحفيف الأوراق. فكأنّهم تنفّسوا وكانوا قد خنقوا أنفاسهم وهم يصغون إليه.

وقبل أن ينحدر المعلّم عن درجات المذبح، دعا السبعة إليه وطلب أن يأتوه بالقيثار. وإذ جاؤوا بها أخذ يرنّم معهم نشيد الفلك الجديدة. وسرعان ما التقط الجمهور اللحن، ومن ألوف الأفواه تعالى القرار أمواجًا جارفة إلى السماء:

«ربّانكِ الله، سيري، فُلكَ مردادِ!»

هنا ينتهي ذلك القسم من الكتاب
الذي أبيحَ لي نشره.
أما ما بقي فساعته
لم تأتِ بعد.

م. ن.